طه وادي

الكهف السحري



طه وادي

الكهف السحري

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١ ــ ظلال متداخلة

جلس متضائلا .. تائهاً فى كرسى فوتيه ، تأمل صالة البيت الواسعة . مضى كل من كان هنا .. وبقى ــ مثل أثاث الشقة ــ شاهداً ، على زمان غريب ، وعالم عجيب . أشعل سيجارة ، وتأمل الباب المغلق . أخذ ينقل بصره المحير بين الباب المغلق .. والدخان المتصاعد . تعلقت عيناه ببندول ساعة الحائط . البندول يتحرك يمينا ويساراً ، لا يتوقف .. لا يهدأ .. لا يستقر . البندول يتحرك .. والحياة تمضى . لا يدرك الآن شيئاً سوى أنه بقيت خمس عشرة دقيقة ، وتدق العاشرة من صباح الأربعاء . تعجب .. كيف يحب من تجاوز الأربعين ..؟! الحب .. حالة ، قد تصيب الإنسان فى أية مرحلة . الحب فى الكبر كالنقش على الحجر . الحب بدر يمزق وجه الليالى ، ويوقظ فى الروح كل المعانى . الحب ضوء من نفس الرحمن ، يهدى العصاة إلى أسرار الحياة . لماذا تأخرت ؟! أيتها المحبوبة تعالى .. فقد اشتد شوق الحبيب إليك . أيتها الحمامة الوديعة ، العش ــ دونك ــ قبر موحش . طافت عيناه بكل أجزاء الصالة الواسعة . ورث هذا البيت عن أبيه ــ رحمة الله عليه . البيوت القديمة هى البيوت الحقيقية . هذه الصالة وحدها أكبر بكثير من الشقق التى تُبنى ، وتُباع فى هذا العصر الموبوء .. العصر المصنوع .. عصر التجارة والشطارة . على هذه الكنبة العتيقة كان يجلس أبوه ، يشرب شاى الصباح وقهوة المساء ، ويقرأ الجرائد فى أيام الإجازات . زينب أخته كانت تسميها « كنبة الأستاذ بابا » . مات الأب .. ورحلت قبله الأم .. وزينب تزوجت فى بلدة بعيدة . صار اليوم وحيدا مع الصالة الواسعة

والكنبة العتيقة والساعة القديمة . لكن الله كريم حليم ، عوضه وأكرمه ..!!
ما زال العقرب بطيئاً ، يجر خطاه نحو العاشرة . بعد عشر دقائق .. عشر فقط
سوف تطرق الأنامل الرقيقة زجاج الشراعة . لن يملك ساعتها إلا أن ينهض ..
يقفز .. يثب فرحان مرحاً فرحاً . ماذا يصنع الحب فى البشر ؟! ضاعتْ كل القيم
فى الزمان المستباح . العملة الوحيدة هى .. المال . يساوى قرشاً من معه قرش.
Money .. Money .. المال .. المال .. تلك هوية أهل هذا الزمان ؟! نسى
البشر سفر التكوين وأناشيد سليمان .. وإنجيل متى ويوحنا .. وسورة الفاتحة
وآل عمران .

لماذا تأخرت أيتها الجميلة بين النساء . صنوان .. وغير صنوان يسقى بماء
واحد ، ونفضل بعضها على بعض . أيها المعلم الصالح : ماذا جرى لك ؟ تريد
أن تكون كاملا فى هذه الحياة الدنيا ، لكن الزمن يسخر منك ، والشيب يعصف
بك ، والحب يطرق بابك . الرجل المحروم .. ماذا يروم ؟! أربعون عاماً مضت
وهو صابر .. صامد .. نسى قلبه أو أنسى ذكره . لكنه منذ مدة قريبة بعيدة سلّم
.. واستسلم ، مضى .. وانتهى . يحلو له أحياناً أن يقاوم ويقاوح ، خاصة وأن
هذه التجربة اللذيذة العاصفة .. لا تزال سراً مغلقاً لا يعرفه إلا هى .. وهو .
طالت الدقائق والثوانى ، بينما الأفكار تتصارع ، والمشاعر تتضارب . لابد أن
يفعل شيئاً ، حتى لا تنفقع مرارته فى الدقائق الخمس المتبقية . لم لا يخرج وينتظرها
فى أول الشارع ، ثم يصحبها إلى البيت ؟ سيقول الناس .. الأستاذ إبراهيم الشريف
ماذا جرى له ؟! لا .. لن يقول أحد شيئاً ، حتى النسوة العجائز ، اللائى تشك
كل حيزبون منهن فى أى مشهد .. وأى كلام . لن تقوى واحدة منهن على أن
تظن شيئا بالمرة . حاشا لله .. فهو إنسان كامل ، وهب حياته للعبادة .. ومساعدة
المحتاجين .. ومواساة المحزونين . أخذ يمشى فى الصالة ، حتى يقطع مع الخطو
الموقع مرارة الإحساس بالوقت . نظر إلى السقف فرأى نجفة

ضخمة ، تتدلى فى صمت . أخذ يعبث فى مصباح النور ، كأنما يرى النجفة أول مرة . السلسلة الحديدية تشد النجفة ـ بقوة ـ إلى السقف . التراب يغطى كثيراً من أجزائها . بعض لمبات محترقة .. وأخرى مضيئة . منذ مدة .. وهو يريد أن يغير اللمبات المحترقة ، لكنه ينسى .. ينسى كثيراً فى هذه الأيام . نحن فى أول النهار .. وضوء الشمس يملأ الحجرة ، لكنه أحس لذة مبهمة حين أشعل الضوء . إبراهيم .. ليس المهم أن يشع الضوء من الخارج . الضوء الحقيقى يفيض من الداخل .. من القلب . حين تذكَّر القلب ، انتفض .. واهتز . لماذا هى .. هى وحدها دون نساء العالمين ، التى فضت بكارة القلب ؟! وصل المريد إلى مقام الفناء . أحسها تملأ سمعه وبصره وقلبه . انجذب نحو الضوء .. تاه عن الوجود .. شطح بعيداً بعيداً . كاد ينام وهو واقف . سخر فى نفسه .. هذه حالة جديدة ، لم تحدث لمجذوب قبله . طرق خفيف على الشراعة الزجاجية . لم يسمع شيئاً . إزداد طوق الأنامل الناعمة . تكرر الصوت ، وهو غائب عن الوجود . اهتز .. ارتعش ، كأنما يتلقى سراً من عالم الغيب . أفاق ، وهو يتصبب عرقاً . بفرحة طفل ـ جرى نحو الباب .. فتح . طلع البدر عليه . مرقت سريعاً . أغلقت الباب ـ دون أن تحدث صوتاً ، حتى لا يشعر أحد من سكان البيت . وقفا وجهاً لوجه خلف الباب . ارتمت كريمة على صدره . أول مرة يحس أنها أقصر منه قليلا . شعر أنه أب يحتضن ابناً طال غيابه . أسكرته رائحة عطرها ، مع أنه لم يكن فى حاجة إلى مزيد من السكر الروحى . تلبس ثوباً رمادى اللون عليه ورود حمراء وزرقاء . فستان أم بستان .. يا حبيبتى ؟! كل الأفكار والأحلام جفت فى مخيلته . الوصال بدد أوهام الفراق . أول مرة يشتاق أن يضمها .. أن يحتويها بين ذراعيه .. أن يصبح هو وهى شيئا واحداً . تحسس شعرها الأسود الناعم . حاول أن يقبلها ، فوضعت باقة زهر ، كانت تخفيها بين فمه وفمها . ابتسمت فى دلال .

ـــ لم تصرين كل مرة على أن تحضرى الزهور .. يا أجمل وردة ؟!
ـــ الزهور تعبر عن أجمل معانى الغرام .
ـــ أنتِ .. أنت الرسالة ، التى تعجز كل لغات البشر أن تعبر عما تدل عليه .
قلوب العاشقين لها عيون ، تصور لهم ما لا يراه سواهم . الخيال يصور فى اليقظة ما تراه فى الحلم . الوجود بلا خيال ، محال . الخيال المطلق هو الحضرة الجامعة ، وهو العماء الذى يقبل التشكل .. بالخيال تعرف ذاتك .. تعرف من تحب .. من تعادى .. تستعيد صورة المدرك بالحواس ، بعد غياب المحسوس . الكون كله خيال مرتسم ، يعكس طيف الحقيقة الكبرى . فجرت المحبوبة فى ضميره بعض معانى الخيال حين تجلت أمامه ، فكشفت للقلب ، بعض أنوار الغيب . الحب إذا تجلى صور مالا أذن رأت ، ولا عين سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. هيئ له أنه يعرفها منذ آلاف السنين .. بل منذ آبد الآبدين . صار يعتقد بتردد النفوس الباقية ، فى الأجساد البالية . رنا المريد إلى القطب ، وانجذب ناحية المعبد . مالكة القلب ذات قد ، يجسد ملامح الفتاة المصرية ، التى تراها على جدران المعابد وفى تماثيل المتاحف . تعجب من نفسه ، ورثى لحاله ، يعرف كثيرا من معانى الخيال ، لكنه ـــ فى ذات اللحظة ـــ يعجز عن وصف محبوبته ؟! كيف يكون القلب فياضاً بالحب إلى حد الرعشة ، ويصير اللسان عاجزاً إلى درجة الدهشة ؟! حتى تبرد حرارة الموقف ، أخذته كريمة من يده ، وجلست بجواره على الكنبة ـــ كنبة الأستاذ بابا ـــ ناحية الشمال ، حتى تكون قريبة من قلبه . هكذا حاول أن يفهمها ، لكنها ردت مبتسمة :
ـــ أنت على اليمين . أنا على الشمال .. أتدرك دلالة هذا ؟!
رد إبراهيم مبتسما :
ـــ هذه قواعد بروتوكول الحب ..
ـــ لا .. لا يا حبيبى ، الحب متمرد على كل القواعد . لكن هذا يدل على

أن الرجل فى الحب يمينى محافظ ، والمرأة يسارية ثائرة !!

ــ أنت شقية تريدين أن تغلبينى فى الحب .. وفى الكلام .

نظر إليها فى شوق وحرارة . ضمها إليه . غاب عن الوجود . هذه الفتاة هى البوصلة التى توجه سفينة حياته فى بحر لجّى . ما هذه فتاة .. إن هى إلا ملك كريم ، واثق الخطوة ، ذكى العطاء ، ذو جمال وجلال . أرواح من النور .. فوق أجساد من الطين . الأرواح النورانية تطهر الطين ، وتجعل البشر الآدميين ، كائنات علوية نورانية . إذا أحب العبد حباً خالصاً ، صار المحبوب فؤاده الذى يحرك ــ نحو الطهر ــ مشاعره ، وعقله الذى يقود ــ نحو الوجد ــ مداركه . المحب كائن نورانى ، حين يصير المحبوب روحه وقلبه وعقله .. وتكون أنت إياه ، أنت وهو شيء أحد ، يحاول أن يسمو فوق البحر الموحش والبرية القاحلة ، كى يشهد الجوهر الحقيقى للوجود ، بالفناء الكامل فى الموجود ، واتحاد العابد بالمعبود ، حيث تسقط الأوصاف المذمومة ، وتبقى الخلال المحمودة . يا ذات الوجه البدرىّ ، والشعر الغجرىّ ، زمليني .. زمليني . يا صاحبة العينين الصافيتين ، والخدين الطاهرين ، ضميني .. ضميني ، فقد طال الشوق إلى الحنان والأمان . أبحرتُ فى بحر الحنان بعيداً .. بعيداً ، غير أن الحنان لم يستطع أن يطفئ النيران ــ نيران ذكرى سوداء .. مر عليها ما يقرب من عشرين سنة ، لكنها تظل ذكرى مؤلمة . رؤوس الشياطين .. تطارد المؤمنين . كنت أستعد للعودة إلى جامعة القاهرة ، لكى أقضى السنة الأخيرة فى قسم اللغة الإنجليزية فى كلية الآداب . عشقتُ الأدب واللغة الإنجليزية على يد أستاذى الأول .. وصديقى وحبيبى « الأستاذ بابا » . الأبوة عاطفة نبيلة سامية ، حين يمارسها الآباء ، ويقدرها الأبناء ، توجد جيلا صلباً ، يقدر على صنع المستحيل . حاول أبى أن يحقق ــ من خلالى ــ كل آماله المحبطة . لم يحصل من التعليم إلا على شهادة ، كانت تسمى « الثقافة » ، ألغتها وزارة المعارف .. أقصد وزارة التربية والتعليم ، كما ألغت أشياء

كثيرة جميلة فى مراحل التعليم المختلفة . كانت لأبى مكتبة عظيمة عامرة بالكتب القيمة فى الأدبين العربى والإنجليزى .. وأحياناً الروسى والفرنسى والأمريكى وغيرها . إنه أول من عرفنى بالجاحظ ، وأبى الفرج الأصفهانى ، وأبى حيان التوحيدى ، والمتنبى ، وأبى العلاء المعرى ، والمنفلوطى ، وشوقى .. وتشارلز ديكنز ، وسير والتر سكوت ، ومرجريت ميتشل ، وبيرل بك ، وجين أوستن ، ووليم شكسبير ، ولورد بيرون ، وفيتز جيرالد ، وتوماس إليوت .. ونيقولاى جوجول ، وديستويوفسكى ، وتورجنيف ، وتشيكوف .. وجى دى موباسان ، وفيكتور هوجو ، وفلوبير ، وأونريه دى بلزاك ، ولامرتين ، وألفرد دى موسيه ، وإدجار آلن بو ، وسومرست موم ، وجون تشاينبك ، ووليم فوكنر ، وإرنست همنجواى ، ووالت ويتمان .. وفريدريش جوته ، وألبرتو مورافيا ، ولويجى بيراندلو ، وأنيا تسيو سيلونى .

لم يكن أبى يشترى كثيراً من الكتب ، وإنما يؤجرها من بائع كتب قديمة .. اسمه .. اسمه الحاج يوسف الشامى . وقد صرت أنا الآخر زبوناً عنده فيما بعد ، حيث كنت أؤجر بعض قراءاتى الخاصة بعيداً عن مراقبة والدى .. فى المرحلة الثانوية وبداية الجامعة ، إذ كنت شغوفاً بالروايات العاطفية والبوليسية . لم يكن أبى غنياً .. ولا حتى ميسور الحال ، لكنه كان حريصاً فى تدبير مرتبه المحدود . كان يعمل كاتب محكمة فى مدينة المنصورة . أكسبه التعامل مع رجال القانون مزيداً من الحكمة ورجاحة الرأى وحسن السلوك وانضباط الحركة ، لذلك يمثل — فى نظرى — صنفا نادراً من الرجال ، حاداً فى رأيه ، واضحاً فى كلامه ، متطهراً فى عواطفه ، نبيلاً فى مقاصده . زهد فى كثير من متع الدنيا وزينتها ، واكتفى بالقراءة والعبادة والوحدة . هكذا عاش أبى .. وعشت معه بعيداً عن الناس ، لكنه وحده كان يغنينى عن كل الناس . ليس العمل فى المحكمة هو الذى فرض على أبى الوحدة ، لكنها أيضاً تركيبته الخاصة وطهارة أعماقه . كنت أعابثه

ضاحكاً : أنت معرى العصر الحديث ، لأنك رهين المحكمة والمكتبة . تسأل أختى الصغيرة زينب حين تأتى مصادفة بأكواب الشاى : من أبو العلاء المعرى هذا يا بابا ..؟! فأرد عليها ساخراً : إنه جد جد جد بابا .. أى بينه وبين بابا خمسون أباً . فيزجرنى أبى بعد أن تخرج زينب معاتباً : لا تضلل أفكار البنت .. يا ولد يا شقى .!!

ــ إبراهيم .. يا حبيبى ــ أيقظته كريمة من شروده فى حنان ــ هل سنفطر اليوم أم تريد أن تضرب عن الطعام احتجاجاً على الفقر والغلاء ؟!

انتفضَت واقفة أمامه . تتعمد ألا تجلس بجواره كثيراً ، حتى لا تشتعل الرغبة فى أعماقه أو أعماقها . لذة الحب الكبرى عندها .. هى الحوار والمناقشة ــ أو بتعبيره هو .. المناغشة ..!! الحب يعنى التفاهم ، والتفاهم لا يتم إلا بالتفاعل. أن تفهم .. وتفهم هذه مشاعر وجدانية رقيقة فى عالم كله صخب وعراك .

الحب يصيب البعض دون البعض يختار ، مثل الموت غدار ، ومثل السيف بتار ، لأن الحب تيار .. نداء .. مبهم .. نار .. يلقاك فتحتار .. تتكلم أو تنهار .!! كريمة حين تتكلم تنفعل كأنها فى مهمة رسمية ، تود أن تؤديها على أكمل وجه . تريد أكثر من هذا أن تكون صاحبة الكلمة الأخيرة . بينه وبينها فارق زمنى كبير ، فهو يبتعد عن الأربعين .. وهى تجاوزت الخامسة والعشرين . هناك فروق واسعة بينهما ، ليس من حيث السن فقط ، وإنما من حيث طبيعة الشخصية أيضاً ، فهى تحب الكلام .. وهو أميل إلى الصمت :

ــ هل أنا ثرثارة يا حبيبى ؟

ــ لكنها ثرثرة لذيذة .. يا كوكو .

ــ هذا اعتراف .. لا ، اتهام .. لم تعد تحبنى . هناك امرأة أخرى .. قل .. لا تكذب .. الرجال كلهم هكذا .

ــ أعترف أنى متهم بحبك .

ـــ أرأيت .. تعد حبى تهمة ؟!

ـــ وأتمنى أن أعاقب عليها بالمؤبد .

بينما تعد وجبة الفطور ، كان يتحير فى أمر كريمة . هذه الفتاة .. ذكية الفؤاد ، طاهرة القلب ، تحبه حباً ، يدرك أنه لم يعد موجودا إلا فى الحكايات والروايات ، مثل بطلات : أنا كارنينا ، وأحدب نوتردام ، وغادة الكاميليا ، ودعاء الكروان ، وبين الأطلال ، وغصن الزيتون . حين تتكلم تكون عصبية متهورة .. متشددة ، وحين تعمل تعطى بغير حساب . إنها مثل البيضة ، جدار صلب .. فى داخله سائل لذيذ الطعم . لم تكن حركتها فى المطبخ بعيدة عن سمعه . أراد ذات مرة أن يساعدها فرفضت بإصرار :

ـــ حجرتان فى البيت يجب أن تكون كل منهما حسب ذوق المرأة .. الأولى هى المطبخ ..

ـــ والثانية يا حبيبتى ..؟

ـــ تعرفها جيداً يا حبيبى .. لكن ، لم يحن دورها بعد .

انحنت أمامه فى حركة درامية :

ـــ المائدة فى انتظارك يا سنيور .

ـــ شكرا سنيوريتا .

كان أبى محدود الدخل ، لكن القراءة فى الدين والأدب والسياسة ، جعلته موسوعة ثقافية . صار حجة فى القانون المدنى والجنائى . عرض عليه بعض المحامين أن يعمل فى مكاتبهم بعد الظهر ، لكنه رفض أكثر من عرض مغر . بعض كبار المحامين كانو يستعينون به فى كتابة بعض المذكرات القانونية ، التى كانت تستعصى على من يعاونونهم من المحامين . كان أبى أحمد الشريف ـــ كاتب المحكمة ، مثل كثير من القضاة فى نظافة يده وعفة لسانه ، ورجاحة تفكيره . هكذا نال احترام المحامين ، وثقة القضاة والمستشارين ، خاصة وأنه بالإضافة إلى

ذلك ، كان حريصاً أشد الحرص على مظهره وملبسه . فهو لا يذهب إلى العمل صيفاً أو شتاء إلا ببدلة كاملة وكرفاتة أنيقة . لم يكن فى زيه شيء نشاز .. وإنما هو حريص — كما تذكر أمى — على تناسق « الطقم » الذى يرتديه : البدلة والقميص والكرفاتة والحذاء والجورب والمنديل . كما أنه يملك مجموعة من السبح ، يكمل بها زينة الطقم . فى الصيف .. لا ينسى « منشة » وجيهة ، ذات شعر أبيض ، ويد من العاج البنى المحروق ، يطرد بها الذباب .. فى كبرياء ، وأنفة . حتى نساء الحى كن يحسدن أمى على كمال شخصية أبى وجلال مظهره ، وقد تتزاحم بعض النسوة والفتيات — فى الثامنة إلا ربعاً — صباح كل يوم ، حتى يشهدن منظر أحمد أفندى الشريف بقامته الشامخة ومنظره المهيب ، وأمى تودعه بالمبخرة على عتبة الشقة .. وهى تردد : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ . كل امرأة بزوجها معجبة .. وإعجاب أمى بأبى ، كان يصل إلى حد القداسة . لم تعص له أمراً ، ولم تطلب منه شراء شيء . بالطبع أمى .. لا تشترى لوازم الأكل أو اللبس أو البيت . لم تعترض يوماً على شيء اشتراه ، بل كانت دائما تكيل له الدعوات ، حتى لو عاد بحزمة فجل . الحسن عند أمى هو ما يحسنه أبى لها . كانت لا تزور ولا تزار تلبية لنصيحته ، حتى أهلها وأقاربها ، لا تذهب إليهم إلا فى المناسبات . هناك أمر .. كنت دائما أشاكس — وأنا صغير — أمى فيه . توجد صورة لأبى فى حجرة المسافرين .. أو الضيوف .. التى تحتوى على معظم الكتب النادرة ، التى يخفيها فى دولاب يسميه « الخزانة السلطانية » . هذه الصورة الكبيرة .. هى صورة أبى بالبدلة والطربوش سنة ١٩٤٥ عندما حصل على الثقافة ، مكتوب تحتها بخط جميل : أحمد أفندى الشريف الموظف بوزارة الحقانية . أمى تصر على أن صورة أحمد أفندى مثل صورة سعد باشا زغلول .. الخالق الناطق ، يخلق من الشبه أربعين . أكثر من هذا

تقول لبعض جاراتها : إن أحمد أفندى سوف يصبح وزيراً ، فهو يلبس الطربوش مثل سعد باشا ، وشاربه مثل شاربه ، ويعمل مثله فى وزارة الحقانية . حتى تثبت — لنفسها على الأقل — هذه الأمنية ، كانت دائماً تقول : الباشا خرج .. الباشا جاء .. الباشا اشترى . وحين يطلب منها عمل أى شىء — فى أية لحظة — تقوم على عجل بنفس راضية وتقول : حاضر يا باشا .. أمرك يا باشا .. أمرك يا سيدى وتاج رأسى . ربنا يحميك ويطرح البركة فيك ، وينصرك على من يعاديك ، ولا يحكم ظالم فيك ، ولا يأمر عدو عليك .. قادر يا كريم !

برغبة طفل مدلل — كنت أحاول معرفة موقف أمى من زوجها فى الليل ، فأراها امرأة أخرى تماماً . كل ليلة تستحم بعد العشاء . حين تدخل حجرة النوم تلبس ملابسها الخاصة ، التى لا أراها أنا .. ولا حتى أختى زينب . تؤمن أن طاعة الزوج من طاعة الله .. الله يغضب غضباً — تهتز له السماء والأرض — على من بات زوجها غضبان منها . أحياناً أضبطها فى الصباح .. وهى تلبس قميص نوم شفاف — بغير أكمام .. وما زالت آثار الكحل باقية فى جفونها المسهدة . تسير دائما خلف أبى .. وتطيعه فى السر والعلن ، وتعمل له حساباً فى الحضور والغيبة . لم يقل يوماً مثل كثير من الأزواج فى البيت أو الحارة : امرأة يا نفيسة . لم يكن أحد فى الحى يعرف اسمها ، لكن الجميع يقولون ما يقول زوجها .« ست أم إبراهيم » . وهى ترى أن سبب احترام الناس لها ، يرجع إلى احترام أبى .. وتردد فى هذا مثلا ، لم أسمعه إلا منها : « من قال لامرأته يا عورة ، لعبت بها الناس الكورة » .

انتهت وجبة الفطور فى صمت . كان إبراهيم مشغولا فى زخم ذكرياته القديمة . مخطئ من يظن أن ما فات ، مات . الماضى جزء من الحاضر .. والحاضر يحدد ملامح المستقبل . الزمان كله وحدة واحدة .. كل حلقة فيه تؤدى إلى الأخرى . كريمة كانت — رغم ثرثرتها اللذيذة — كثيرا ما تجلس فى حضرته

صامتة متأملة . هذا الرجل .. قدرها .. حبها .. حاضرها .. مستقبلها ، كل شيء فى حياتها ، وهى على استعداد أن تحارب من أجله الدنيا وما فيها ، حتى أبويها . طرق البابَ كثير من الخطاب : فتاة جميلة .. ذكية .. جامعية .. مدرِسة لغة إنجليزية .. بنت ناس طيبين .. رفضت كل الذين تقدموا من أجل المحبوب . يكفيها سعادة أنها وإياه يعيشان فى بلدة واحدة .

قربت منه كوب الشاى . أخذت رشفة ، وهى تنظر إليه متيمة هائمة . أخرج سيجارة ، حتى يدارى قلقه أو حيرته . خطفتها بسرعة :

— قلت لك أكثر من مرة .. إما أن تتوب عن السجائر أو تعلمنى تدخينها ؟!

— التدخين عادة سيئة من عادات الرجال .

— أنت رجل تقدمى .. وهذه الإجابة الساذجة لا تقنعنى .

دق جرس الباب فجأة دقات سريعة متتالية . نظر كل منهما إلى الآخر فى ريبة وخوف . أول مرة يحدث لهما هذا الموقف المحير . من الطارق فى هذا الوقت المبكر .. وماذا يريد ؟ دون تفكير اتجهت نحو حجرة النوم :

— تصرف بشكل عادى ، سوف أغلق الباب ورائى .

الحجرة ذات أثاث قليل كلاسيكى الطراز . يبدو أن هذه حجرة والديه : دولاب كبير ، سرير خشبى عريض بجواره كومودينو ، عليه أباجورة نحاسية ، تسريحة عتيقة مرآتها مشروخة ، أمامها كرسى خشبى دون ظهر ، عليه وسادة صغيرة . خلف الباب مشجب خشبى طويل ، تلتف حول فروعه ملابس مختلفة الأنواع والأشكال : جلباب أبيض ، بنطلون بيجاما من الكستور الأزرق ، روب نوم بنى الشكل ، قميص أبيض كرافاتة زرقاء بها نقوش حمراء خفيفة . الضوء شاحب فى الحجرة . لم تحاول أن تشعل النور ، حتى لا تثير ريبة القادم المجهول . شىء ما جعلها لا تقدر أن تجلس على السرير ، لذلك آثرت أن تقعد على كرسى دون ظهر . أخذت تتأمل صورتها فى المرآة المشروخة . أحست قدراً

من القنوط والأسى . أكثر من شاب .. وشاب ، يتمنون إشارة .. أو كلمة . لو فتحت الباب للخطاب ، لتزوجت بعد أقل من شهر . أبى حسين غالب وضع أصابعه فى الشق ، واعتبرنى حالة ميئوساً منها . كثيراً ما قال لأمى ساخراً ، وهو يتعمد أن يسمعنى صوته : سوف تحل عقدة ابنتك ، حينما تُحلُّ مشكلة زيادة السكان فى مصر . لكن أمى أطال الله عمرها — لم تفقد الأمل ، وإنْ بدا لى — أحياناً — أن صبرها قد نفد . صارت تلجأ إلى أساليب غريبة ، حتى تفك النحس الملازم لى . أخبرتنى أختى الصغرى حليمة .. أن أمى أرسلت وشاح رأسى إلى أحد المشايخ ، ليرى ما إذا كان معمولا لى عمل أم لا ؟ ويكتب لى حجاباً ، يفتح أمامى باب الحظ المغلق . انفتح الباب فجأة .. وظهر إبراهيم ماداً يده :

— تعالى يا حبيبتى .. مشى صبى المكوجى ..

كل هذا الرعب والقلق سببه صبى المكوجى . كان الموقف مفاجئا .. وبسيطا ، غير أنه فجر فى نفس كل منهما معانى متضاربة .. ماذا لو كان الطارق شخصا آخر ؟! بينما يخرجان إلى الصالة ، قال ويده اليسرى فى يدها اليمنى :

— آسف يا حبيبتى .

— لا تأسف على شيء أنا التى شجعتك عليه . أنا واثقة منك .. ومن نفسى . المنصورة مدينة صغيرة ، هنا أكثر أماناً من الجلوس فى الفنادق أو الحدائق أو الأماكن العامة . أنت رجل معروف .. لا أريد أن يسيء إليك أحد .

— وأنت .. يا حبيبتى !؟

— أنت رجل حسن السمعة . لن يشك أحد فى أى شيء ، حتى لو رأونى كل يوم داخلة أو خارجة من عندك .

— هذا كثير يا كريمة .

— تضحية بسيطة من أجل رجل عظيم ، أحبه .

تعلقت برقبته .. وأخذت تقبله من اليمين واليسار .. ومن الجبهة والرأس .

الحب جعلها تذوب فى دائرة المحبوب . لم تعد قادرة على أن تتصور الحياة دونه . إنه الأب الذى تلتمس عنده النصح ، والمُعلم الذى تأخذ عنه المعرفة ، والصديق الذى تأنس إليه عند المحنة ، والحبيب الذي يعلمها أسرار الحياة . كل منهما بالنسبة للآخر كتاب مفتوح .. لم يعد واحد منهما قادراً على أن يتخذ أى قرار بمفرده . كان يبحث معها عن عمر ضاع وقلب جف ، بينما ترى فيه مستقبلا عريضاً وأملا متجدداً . هذه الفتاة ـــ الموهوبة بالفطرة ـــ تغنيه عن كل نساء العالمين . وقد جعلته يتحسر على ما يزيد على أربعين سنة من حياته ، لم يذق فيها للحب طعماً ..!!

ـــ أنت فتاة مثقفة ، ومدرِسة ناجحة . لماذا لا تمثل السياسة إحدى اهتماماتك ؟

أخذت تضع أكواب الشاى الفارغة على الصينية :

ـــ هل لذلك جدوى فى بلاد مثل بلادنا ؟

رد متحمسا وهو ينظر إليها :

ـــ بلا شك .

ـــ لست أوافقك .

ـــ لماذا ؟

أخذت تعبث بالملعقة الصغيرة فى الكوب الفارغ :

ـــ ما حدث لك ، خير دليل على سلامة رأيى .!!

ـــ الدواء ـــ يا حبيبتى ـــ قد يكون مراً ، ومع ذلك فإنه ضرورة للعلاج .

اقتربت منه أكثر :

ـــ السياسة لعبة قذرة ، سواء تعاملت معها من موقف اليسار أم من مقعد اليمين . (هدأت قليلا) : ورغم إيمانى بما أقول ، فقد بدأت أقرأ فيها من أجل خاطرك .

هذه الفتاة تبدو بسيطة ساذجة ، لكنها تملك روحاً شفافة ونفساً صافية ، لهذا تدرك الحق ، وتقول الصدق ، دون وعى مسبق أو فكر معقد . التعليم ليس وحده مفتاح المعرفة .. لكنها الفطرة الصادقة ، التى توجهنا الوجهة السليمة فى كثير من المواقف المصيرية الصعبة . بدرت منها التفاتة إلى ساعة الحائط ، فصاحت :

ـ ياه الساعة الواحدة . لابد أن أعود قبل أن يرجع أبى من العمل ، ويصب غضبه على رأس أمى المسكينة .!!

ـ لماذا يمر الوقت سريعا معك ؟ لم أقل ما كنت أريد قوله .

ـ لو قعدنا شهراً نتكلم ، سينتهى حديثنا ؟! لا وألف لا .. أنت تعلم أكثر من غيرك ، أنه ليس أفضل عندى من الكلام معك . لكن لبابا أحكاماً .!!

ـ لا أريد أن يسىء إليك أحد بسببى .

وضعت يد الحقيبة البيضاء فى كتفها :

ـ أوه .. كدت أنسى .. أين الكتاب ، الذى سآخذه هذه المرة ؟

دخل إلى حجرة الاستقبال ، وهى تسير خلفه . فتح باب « الخزانة السلطانية » . أخرج كتاباً ، ثم قال وهو يغلق بابها بالمفتاح :

ـ هذا الكنز خير ما ورثته عن أبى .. ولولا منزلتك عندى ..

ـ أعرف قيمة هذه الثروة بالنسبة لك ، ولكن ...

ـ ولكن .. ماذا ؟!

ـ لن تتضايق منى .

ـ إطلاقاً .. أنا أتضايق منك يا كوكو ؟!

ـ لقد ورثت هذه الخزانة عن أبيك . لكن ألم تفكر .. ولو للحظة ، من الذى سوف يرث هذه الثروة عنك ؟!

تكهرب الجو فجأة . تحولت الفرحة الصريحة إلى حزن مكبوت . ما أقسى

نظرات الصمت بين المحبين . الكلام صلة واتصال .. والصمت حيرة وانفصال . يعرف جيداً أنها لا تنوى ولا تقصد إحراجه . تحاورا فى هذا الأمر كثيراً ، وبقى كل منهما حريصاً على التمسك بوجهة نظره إلى درجة العناد . رغم ذلك .. لم يتوقف تيار الحب بينهما ، بل ظل ثابتاً ، ينمو ويزيد مع الأيام . أرادت أن تغير من برودة الموقف . نظرت إلى الكتاب ، الذى أعطاها إياه .. « ألف ليلة وليلة » . ابتسمت بسمة متكلفة .. لكنها لا تخلو من قدر من السخرية . مدت يدها لتأخذ الكتاب .. فحملها سريعاً نحو فمه ، وقبل ظهرها وباطنها :

— كوكو يا حبيبتى ....

وضعت يدها الأخرى على فمه :

— لا تنطق .. لا تقل شيئاً ، اختيارك للكتاب هذه المرة فضح نواياك يا شقى — ابتسمت فرحة — تريد أن تثبت أيها المحب السعيد ، ذو الرأى الرشيد ، أنك شهريار أو هارون الرشيد ، وأنا جاريتك التى تحبسها فى قفص من حديد .

— لا حديد ولا جريد يا عزيزتى شهر زاد .

— رغم عنادك .. فأنا موافقة على كل ما تقول وما ترغب ..

لم تستطع أن تكمل ، ودتْ لو أنها صاحت بصوت عال ، تسمعه الدنيا كلها : لا أريد منك سوى أن تسمح لى بأن أظل عابدة فى محرابك . يكفينى الفتات المتناثر من وقتك ، والجزء الفائض من فكرك . حياتى رهن بحبك .. سعادتى متوقفة على رضاك .. قدرى قدرك .. لا يروينى إلا ماؤك .. لا يطعمنى إلا خبزك .. فامنحنى أو فامنعنى .. تلك صلاتى حين وقفت بين يديك !!

هذه الفتاة رمز للبكارة فى كل شىء . كل شىء فيها عذرى طاهر . لا يدرى ماذا يفعل من أجلها ، حتى يعبر عن تقديره لما تفعله نحوه . إن روحه وسعادته صارتا فى يديها .. فهى بالنسبة له الواحة المريحة — رغم أنه لم يرتبط معها بأى رباط .. ولم يعدها بأى وعد . يحلو له كثيراً أن تشبهه بكمال عبد الجواد فى

ثلاثية نجيب محفوظ . أيها الحائر دوماً ألا ترغب فى أن تعرف الطريق .. فكرك واضح فى كل الأمور .. إلا فيما يخص قضية القلب المحروم . لكن .. ما فائدة أن تعرف كل شىء ، وتنسى أهم شىء ؟! تدعى أنك نذرت حياتك من أجل الناس جميعاً ، وأن سعادتك فى إسعاد الآخرين . هذا كان مفهوماً قبل أن تلقانى .. وتعرفنى ، وتعرف مدى حاجة كل منا إلى الآخر . أيها المحب الحائر .. والرجل الغامض .. لن أتنازل عنك ، ولن يحل ضفائرى سواك . كما يربط الحبل السرى الجنينَ برحم الأم ، أشعر أن الشعاع الذى يربطنى بالحياة .. هو أنت .. أنت وحدك لا غيرك .

صارت الروضة الفيحاء زنزانةً موحشة بعد أن طارت عصفورة الجنة ، وتركته وحيدا مع همومه الثقيلة وطيفها المعذب . أصبح ما بينهما أقوى من الحب وأخطر من الزواج . وهبته مشاعرها وقلبها وحياتها .. لم تطلب منه أى شىء . احترمت حيرته .. أو قضيته ، التى يدعى أنه وهب عمره لها . ومع ذلك لم يفتر حبها . لم تتخلف عن لقاء . و لم تقل له يوما (لا) فى أى شىء . أحالت الفوضى فى حياته إلى نظام . ردت روحه المغتربة ، وأيقظت مشاعره المتجمدة . لم يعد قادراً على أن يستغنى عنها . يصعب عليه أن يتزوجها . من هو فى مثل سنه وظروفه ليس فى حاجة إلى زوجة .. وإنما إلى ممرضة ، تداوى جراح الجسد والنفس .!! ارتمى على السرير متهالكاً ، لم يستطع أن يخلع ملابسه . لم تكن له رغبة فى الشرب أو الطعام أو التدخين . كل شىء له لذة خاصة ، حين يفعله مع كريمة . ماذا جرى لك يا إبراهيم ؟! أول مرة .. تغرق فى بحر الحب . أول مرة .. أول مرة .. لا تعرف ماذا تريد على وجه التحديد . صعب على من ذاق طعم الظلم أن يظلم أقرب الناس إليه . ربى .. إن لم تهدنى لأكونن من الظالمين المظلومين .!!

فيما هو بين اليقظة والنوم .. والحيرة والذكرى ، غاب بعيداً .. وارتد به الفكر

إلى ذكرى أيام بعيدة . لا يعرف سر إلحاحها على مخيلته فى تلك اللحظة . هذه الحجرة ، التى ينام فيها الآن ، كانت حجرة أمه نفيسة .. وأبيه أحمد الشريف . كنت ولدهما البكر الوحيد . بعد مولدى بخمس سنوات رزقا أيضاً بأختى زينب . فرح أبى بزينب — التى أسماها تبركا باسم حفيدة الرسول وشقيقة الحسن والحسين . أما والدتى فكانت سعادتها بزينب تكبر ، كلما كبرت . ومع أن زينب كانت تلميذة ناجحة ، إلا أن الأم كانت مهتمة أكثر بأن تعلمها « شغل البيت » : التعليم ضرورى للبنت ، حتى تفهم الدنيا وتعرف حقوقها . لكن المكان الحقيقى للمرأة هو البيت . يعابثها أبى قائلا :

— الدنيا تغيرت يا أم إبراهيم ..!!

فترد عليه :

— الدنيا هى الدنيا .. والمرأة هى المرأة .. والرجل هو الرجل . الدنيا تغيرت بالكلام يا باشا ، لكن بالحق مثلما كانت .. وأضل سبيلا .

الطريف فى مشكلة زينب — رغم تفوقها فى التعليم .. ورغم تشجيع أبى — أن الكلام الذى كان يدخل قلبها هو كلام أمى ، لذلك تزوجت صغيرة نسبياً ، وسافرت مع زوجها إلى طنطا ، ونسيت طموحها فى الدراسة العليا والدفاع عن حرية المرأة . إيه يا زينب .. أنا فى حاجة شديدة إلى حكمتك اليوم .!!

زينب فتاة مطيعة .. هادئة. أما أنا فكنت شاغل أبوى الوحيد . كل منهما يتنافس فى تحقيق ما أريد . ورثت عن أبى الرغبة فى العزلة وحب القراءة ، لذلك لم أسبب لهما مشاكل مثل بقية زملائى فى الحارة . لم أكن أميل إلى ممارسة الرياضة ، حتى لعبة كرة القدم ، التى أصبحت « مرضاً عصريا » لم أكن أفضلها ، ولا أرغب فى مشاهدتها . بعض زملائى فى المدرسة الثانوية ، كانوا يحكون لى قصصا غرامية ملتهبة عن فتيات أعرف بعضهن ، وأخريات لا أعرفهن . ثم يقرئوننى خطابات غرامية .. منقولة من بعض الكتب أو الروايات

أو الأغانى العاطفية ، رأيت أن ما يفعلونه .. وما يقولونه « لعب عيال » . كنت أحب القراءة فى الأدب والتاريخ والسياسة . ثم بدأ أبى يسمح لى ، بل يشجعنى على قراءة الصحف فى نهاية المرحلة الثانوية : صحيح يا ابنى الجرائد فيها كذب وتزييف كثير .. لا يوجد شيء صحيح فيها إلا صفحات الوفيات والإعلانات .. لكن ماذا نعمل ؟! هز يديه وكتفيه : الجرائد وجبة ثقافية هامة لا غنى عنها لمن يريد أن يكون إنساناً عصرياً .

أحست .. وهى تغادر البيت أن صورة إبراهيم ماثلة أمامها فى كل شيء . إنه الضوء الذى ينير الطريق ، والدم الذى ينبض فى العروق . صارت كريمة تؤمن إيماناً راسخاً بأن الحب ، هو الذى يجعلنا ندرك معنى الجمال وقيمة الحياة . الحياة الحب .. والحب الحياة .. الذين لا يحبون ، ساقطون من دفتر الوجود . يا روح الفؤاد : أنت رجائى وزادى ، فلم تركتنى أتشرد فى فسيح البلاد ..؟! يا نور العين : أنت الآن نعيمى ومرادى .. وشفاء الروح وأمل الفؤاد . خرجت من الحارة الجانبية ، التى يوجد فيها بيت إبراهيم ، فابتلعها صخب الشارع الكبير . الناس تروح وتجيء . المحلات عامرة بالحركة . وسائل المواصلات المختلفة ، كثفت الإحساس بالزحام . حاولت أن تجد مكاناً على الرصيف ، حتى تحمى نفسها من حرارة القيلولة فى شهر يوليو .. كانت تائهة فى زحام الشارع .. وزخم المشاعر .. وتخيل المعركة ، التى قد تواجهها ، لو وصلت إلى البيت بعد أبيها حسين غالب . اصطدمت برجل مجذوب ، له لحية كثيفة ، وثوب مرقع ، لا تعرف له لونًا .. فى رقبته مجموعة مختلفة من السبح ، يلبس عمامة خضراء ، يمسك عصا طويلة بإحدى يديه ، وبالأخرى يحمل صرة فيها — فيما يبدو — بعض أرغفة خبز . فجأة وجدته أمامها وجهاً لوجه . ابتسم حين رآها ، ونظر إليها متفحصاً . رغم نظرته الجريئة فإن عينيه كانتا تشعان قدراً من البراءة والأمان . ابتسمت ابتسامة خفيفة ، فاتسعت حدقتا عينيه أكثر ، فأخذ يردد

بصوت موقع ونبرات مشروخة : النبى تبسم .. تبسم .. النبى تبسم .. تبسم .!!
ثم أخذ ينشد ، وقد أسند ظهره إلى جدار منزل عتيق :

الصاحب اللى يصون الـود وتعـوزه
عند الشدايد ووقت الضيق بتعوزه
أفديه بدمع العين ما دام العين بتعوزه

بدأ بعض الفضوليين ينقلون النظر بينها وبين الدرويش . جذب صوته المشروخ بعض المارة .. كما جذبها . بدأت تدرك أن حاسة الفضول التى جمعت هؤلاء الناس ، ليس الدافع لها منظر الدرويش .. أو صوته فحسب ، لكن الدهشة تحولت منه إليها .. وصارت هى المحركة لذلك الجمع المحتشد ، الذين راحوا يسرحون أبصارهم المتعبة من الحر والمشى بين الدرويش والفتاة الجميلة . حين أدركت ذلك انطلقت سريعاً ، وهى تضم كتاب « ألف ليلة وليلة » إلى صدرها . أحست رغم تغير العلاقة بين الإنسان والزمان والمكان ، أنه ما زالت هناك روابط متينة ، تربط بين امرأة العصر الحديث وشهر زاد .. وبين الرجل وشهريار . شهر زاد يا جدتى العزيزة ، هل أفشل فيما نجحت فيه ؟!

هبت الأم منتفضة حين وضعت كريمة المفتاح فى الباب ، كأنما كانت تعد اللحظات بالثوانى انتظارا لعودتها . الأم هى الأم — سواء أكان الولد ذكراً أم أنثى ، صغيراً أم كبيراً — تظل قلقة على المتعب حتى يستريح ، وعلى الغائب حتى يعود . اعتدلت فى مجلسها المألوف على كنبة فى الصالة . مسحت برفق عينيها ، حتى تفيق من كابوس متجدد — تراه .. ولا تدركه — حين تفكر فى أمر ابنتها البكر . هاجس ما يعكر صفو فؤادها . البنت ليست على ما يرام فى الفترة الأخيرة . هذه كريمة أخرى غير التى تعرفها . ابنتى — أختى الصغرى .. صديقتى .. ذكريات عمرى ، التى ضحيت من أجلها ، و لم أرفض لها طلباً — اليوم صارت كائنا غريباً ، لم يرضع لى ثدياً . فاضت دموع العين حسرة ، حين

حاولت أن تقارن بين كريمة الأولى .. وكريمة الثانية . لم تعد صريحة معها مثلما كانت . صارت تتعمد البعد عنها ، وقلة الحديث معها . لكنها امرأة ، تدرك ــ بالغريزة ــ أن البنت لا تخفى شيئا عن الأم ، إلا إذا كان هناك رجل فى حياتها ، وأصبح ما بينه وبينها أقوى ــ بكثير جداً ــ مما بين الأم وابنتها . الأم ــ عفاف ــ ضحت بالكثير .. والكثير ، حتى تظل الأسر متماسكة والبيت قائماً . الزوجة العاقلة وراء كل أسرة سعيدة . تناست همومها القديمة وهواجسها الجديدة . احتضنت ابنتها متصنعة الابتسام والفرحة :

ــ حمداً لله على سلامتك . لم تأخرت عند صديقتك رندة ؟ متى أفرح بك مثلها ؟ سأكون خير حماة وأحسن جدة .. أريد أن تخلفى نصف دستة على الأقل .. فقط هاتى وأنا أربى .!!

تبادلت مع الأم عناقا تقليدياً . جلست بجوارها على الكنبة ، وهى تخلع الحذاء والجورب فى تكاسل :

ــ ماما يا حبيبتى ، الدنيا تغيرت . ابنتك متعلمة وموظفة ، ولن تتزوج إلا بشروطها هى .

حاولت أن تقترب منها أكثر ، وأن تعبث فى شعرها الأسود المسترسل ، مثلما كانت تفعل وهى طفلة :

ــ غيرى ملابسك ، بابا .. لن يتغذى معنا اليوم .

انتفضت كالملدوغة :

ــ لم .. خيرا ؟

ــ سافر لزيارة قريب مريض .

تركت حبيبها .. وجاءت تجرى ، حتى لا تتأخر ، وبعد هذا تفاجأ بأن الأب لن يأتى . أى قدر .. وأية سخرية ..؟! ليتها بقيت مع إبراهيم روح القلب وحبيب العمر . لو كانت تعرف .. لكن (ليت) لا تفيد .. و (لو) تفتح باب

المستحيل .!! أكيد أمها تعرف هذا الخبر منذ الصباح .. وربما من أمس ، لكنها آثرت ألا تخبرها .

ـــ بابا مسافر .. وأخواتك نعيمة وحليمة عند خالتك إحسان . سوف نتغدى سوياً أنا وأنت فقط يا حبيبتى . أعددت من أجلك حلة من المحشى اللذيذ ، الذى تحبينه . وبعد الغداء سأقول لك خبراً سعيدا ..

ردت بفتور ، إذ لم تكن قد تخلصت من ضيقها بعد :

ـــ رجعت ريمة ، لعادتها القديمة .!!

ـــ هل للبنات أمل غير الزواج .. وهل للأم فرحة إلا زواج بنتها ؟!

قامت منتفضة ، كأنما تحتج بعصبية على كلام الأم ، وهى تحمل الكتاب والحقيبة فى يد ، والحذاء والجورب فى اليد الأخرى :

ـــ يا ماما أنا بنت متعلمة و ....

قالت ملوحة بيديها فى الهواء بانفعال :

ـــ ملعون أبو التعليم وسنينه . علمناك حتى تسمعى الكلام ، وليس لمخالفة آرائنا ، وتحقير أفكارنا .

ـــ لا فائدة من الحوار معك يا أمى .. عن إذنك ، سوف أدخل حجرتى وأنام .

ـــ والغداء ؟!

ـــ لا أشتهى ، ولا أريد ..

جرت حافية مسرعة نحو الحجرة. لم تعد قادرة على المواجهة . فتحت الباب ثم أغلقته خلفها ـــ دون أن تلتفت إلى دموع الأم ونحيبها . نوافذ الحجرة مغلقة ، لكنها تعرف طريقها جيدا . الذى فى قلبه نور ، لا يحتاج إلى ضوء . لم تكن قادرة على خلع ملابسها . ارتمت على السرير . حين تعود من لقاء الحبيب لا تفكر فى خلع ملابسها سريعاً ، تعتقد أن عبيره يشع من كل جزء فيها . الحب مصباح

نكتشف به كثيراً من الحقائق ، التى قد لا يعرفها الآخرون . كل شىء واضح ومفهوم بالنسبة لها إلا تلك المعركة ، التى تناضل مع الأم فيها ، كلما سنحت فرصة . الأم امرأة حكيمة ومدبرة ، لكنها متعصبة لدرجة التزمت فى قواعد السلوك المحافظ والمصير التقليدى .

كريمة عمرها الآن سبع وعشرون سنة بالتمام والكمال ، وإذا لم تتزوج قبل الثلاثين فسوف تركب سفينة العوانس ، وترحل فى طريق بلا عودة . اللبن الرائب لا يرجع حليباً . لن يحول بينها وبين هذا الطريق المسدود كونها متعلمة أو موظفة . التعليم والعمل بالنسبة للفتاة — فى رأى الأم — مجرد ديكور ، يزيد من عدد الخطاب ، ويغلى من قيمة المهر ، ويفتح فرصة الاختيار لعريس مقتدر ، لا يكلف أهل العروس الكثير ، ويضمن لها حياة رغدة . ربما .. لو سمعت هذا من أمها منذ سنتين ، لآمنت به وصدقت عليه . فقد مضى عليها حين من الدهر ، كانت لا تؤمن فيه إلا بأمرين : الله فى السماء .. والأم على الأرض ، وكل ما عدا ذلك باطل وقبض الريح . اليوم تغيرت حياتها وتعدلت مفاهيمها . ترى أن من حقها أن تختار .. وأن تجرب .. وأن تأخذ فرصة ، لتعرف بنفسها ما الصواب وما الخطأ ؟! إذا لم نخطئ فليس ثمة صواب . نحن نتعلم من الخطأ أكثر مما نتعلم من الصواب . الخطأ أو الصواب عنصران ممتزجان فى نفس كل إنسان . كما يتركب الماء من الأوكسجين والأيدروجين ، تتشكل النفس الإنسانية من الخير والشر ، الطاعة والتمرد ، المقدس والمدنس ، لذلك ينبغى أن تترك لها الحرية ، حتى تصل — باختيارها الحر وإرادتها الواعية — إلى ما هى مهيأة له وقادرة عليه . الإنسان قد يجد نفسه — أحياناً — يسير فى طريق ، يكون غير مقتنع به بالقدر الكافى ، ومع ذلك يدفعه هاجس غريب إلى ضرورة أن يشرب الكأس حتى القطرة الأخيرة . وهذا ما يحدث غالباً فى كثير من المواقف الذاتية الخاصة .. وأمور العاطفة . فى قضايا الحب ، ليس ثمة صواب أو خطأ .. وإنما قلب متمرد ، يختار

ما يروى ظمأه ، ويريح مشاعره . أحست كريمة أنها معلقة خارج مدار الأفلاك ، أو أنها مثل بندول الساعة ، تتحرك يمينا ويساراً ، دون أن يستقر لها مجال . كانت تتمنى أن تسعد أمها ، التى ضحت كثيراً من أجلها ، ووقفت بجوارها حين هرب أبوها من البيت ، وفكر فى زواج جديد .. بعيداً عن أم البنات . كما أنها لا ترغب فى أن تنتزع ممن تحب اعترافا شرعياً بالقبول . الأم ترى ــ وتؤيد قولها بعض الصديقات والزميلات المتزوجات عن طريق المقدر والمكتوب ــ أن المرأة التى تجرى وراء رجل ، تقلب ناموس الكون ، وتوقف قانون الجاذبية .. وتكسر قاعدة أرشميدس . الحب شىء جميل جداً ، حين نقرأ عنه فى الأشعار والروايات . الحب فى الفن كلمات محلقة بعيدة عن طين الأرض التى نمشى عليها . إبراهيم يقول : الحب عاطفة نبيلة ، لا علاقة لها بأى عرض من أعراض الدنيا الزائلة . الحب رغبة وجودية ، تحقق معنى الحياة ، وتجعل القلب يؤدى وظيفته . بلا شك الحب من غير أمل هو الحب الحقيقى . عنيدة تحاول كريمة أن تجمع بين الماء والنار . فتحت زرار الفستان وانقلبت على الجانب الآخر ، واحتضنت الوسادة المعذبة . صارت ممزقة بين أمل الأم ورغبة الحبيب . الناس تحب من أجل أن تسعد ، لكن الحب أصابها بشقاء كبير . تمنت أن تصيح .. وأن يصل صوتها إليه : يا من تعرف حرارة شوقى وصدق حبى .. إنك كلى وأنا جزء منك . حين أبتعد عنك أنشطر .. أتوه فى فضاء سرمدى ، لا أستقر إلا عندما أعود إلى مدارك . جمع الزمان فكنت الماضى والحاضر والمستقبل ، وتوحد البشر فكنت الأم والأب والأخ والصديق . تعال يا من أعدت الحياة إلى مُدنى الخراب ، وأنبت فيها الزهر والريحان ، وأشعلت الضوء ، فى كل الأركان .. تعال فقد أقسمت ألا يحل ضفائرى سواك .. تعال فقد أثمر الكرم ، واستوى الرمان ، ونضج التفاح .!! سامحينى يا أمى ، فقد تمرد القلب ، وخرج من القمقم ، ونزل يسبح فى بحر بلا ضفاف .. ولن يكف عن السباحة ، حتى يصل إلى جزر السندباد ، ويعود

باللؤلوة المسحورة ، التى سوف تحل الطلسم ، وتفتح باب المغارة ، ليصل إلى سكة السلامة . تذكرت كتاب « ألف ليلة وليلة » . مدت يدها فى تكاسل وجذبته من فوق المكتب واحتضنته ، وحاولت أن تنام .

بينما استسلمت كريمة لطائر النوم ، كانت الأم تتقلب على فراش القلق . سمكة حية تتحرك فوق صفيح ساخن . كل بنات الجيران تزوجن أو خطبن على الأقل — رغم أنهن أقل من ابنتها جمالا وعلماً وكمالاً وأصلا . ماذا جرى لها .. ليست تدرى . تظن أن ابنتها محسودة يا حبة عين أمها . أخذت تبكى مأساة زواج فاشل .. وزوج عديم الإحساس .. وابنة خائبة الرجاء .. وحياة حزينة .. لا لون لها . لا أمل .. ولا عزاء فى شىء يا عفاف . كانت رغم فشل زواجها — تحس أن أملها عريض فى هذه الحياة ، وأنها سوف تحقق عن طريق بناتها ما عجزت عن تحقيقه . وها هى ابنتها البكر تسخر من كل أحلامها ، وتدوس — بالأقدام — كل ما ضحت من أجله . إذا كانت هذه حال الكبرى — التى كانت لها بمثابة الأخت والصديقة ، فكيف تكون حال الصغيرتين .؟! يا ألله .. ارحمنى يا ربى .!!



٢ ــ الصــوت الأول

منذ صباى عرفت طريقى . علاقتى الطيبة بأبى جعلتنى رجلا فى الخامسة عشرة . هذه العلاقة الطيبة .. أو الصداقة الحميمة ، تعد شاهداً على أن ما قاله بعض علماء النفس ليس صحيحاً .. أو على الأقل هناك شذوذ يهز القاعدة ــ قاعدة أن الولد الذكر ، يرتبط عاطفياً بأمه أكثر من أبيه ، وهذا ما يطلقون عليه « عقدة أوديب » .. كما أن الابنة ترتبط بالأب أكثر من الأم ، وذلك ما يسمونه « عقدة إلكترا » . أما أنا فقد كان ارتباطى المتين ــ منذ بدأت أعى ما حولى ــ بأبى . لم أكن متعلقاً به تعلق الابن بأبيه فحسب ، وإنما كنت مرتبطاً به ارتباط المريد بالقطب الصوفى ، يتلقى عنه أمور التكوين والتكليف ، ويتعرف منه على شئون العالم العينى والغيبى ، حتى تتجلى له الحقائق ، ويصل إلى مقام « الجذب » . كنت صورة مصغرة من أبى فى الشكل والمضمون . حين كبرت وصرت فى مرحلة الشباب ، كان بعض معارف أبى حين يروننى معه ، يظنون أنى أخوه الصغير . كنا روحين سكنا جسداً واحداً ، فإذا أنا هو فى كل حال . أبى كان رجلا عصامياً ، ورغم أنه لم يحصل من التعليم إلا على شهادة متوسطة ، ومن العمل إلا على وظيفة متواضعة .. وهى كاتب محكمة ، يسجل ما يدور فى قاعة العدل ، فإنه كان مثقفاً ثقافة رفيعة .. يقرأ بالعربية والإنجليزية ، حسن النوايا ، طاهر الفكر ، نظيف اليد . كنت أظن فى البداية أن ما يتطلبه العمل فى المحاكم من سرية ونزاهة ، هو السر فى بعده عن الناس وميله إلى العزلة ، لكننى اكتشفت أن له طبيعة خاصة .. فطر عليها . كان دائما يكرر : « طوبى لمن شغلته أموره عن أمور الناس » . هكذا عاش أبى رجلا بيتياً ، البيت كل عالمه ، لذلك

تفانى فى تجميل أثاثه ، وشراء ما تحتاجه العائلة من شئون الحياة .. لكن ذلك كله ، لم يؤثر على ميزانية الثقافة . كل أسبوع — على الأقل — يشترى كتاباً ، ويقرأ كتاباً . الثقافة فى رأى أبى ، تعنى الأخذ من كل شىء بطرف ، لذا كان يقرأ فى الدين والأدب والسياسة والفلسفة والاقتصاد والقانون . لم تكن كتب القانون تمثل هواية ثقافية بالنسبة له ، لكنها تشكل أساس العمل . كان يحفظها عن ظهر قلب ، ويقول الإنسان الذى لا يعرف كل ما يتصل بأمور وظيفته ، إنسان غير كامل الأهلية ، وعضو فاسد فى المجتمع . كثير من الأماكن الحكومية صارت مثل « التكايا » .. يجب أن يكتب فى مدخل كثير منها الآية الكريمة : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ... ﴾ . السبب فى هذا أن العمل الحكومى ، لا يطبق مبدأ الثواب والعقاب ، بل على العكس من ذلك — أحياناً — يكافئ المهمل والمنافق ، ويعاقب المخلص والأمين . بهذه الآراء الصريحة وأمثالها .. كان أبى يفتّح بصيرتى وينمّى ثقافتى .. وذلك ما زاد إعجابى به يوما بعد يوم .!!

أبى حجة فى القانون الجنائى والمدنى والشرعى ، لدرجة أن بعض المستشارين والقضاة وكبار المحامين ، حينما يسألونه سؤالا ، ينطق — سريعاً — بالإجابة الصحيحة . لكن هذه الثقافة الرفيعة ، لم تجعله يوماً يتجاوز قدره ، أو يختال على من سأله ، لذلك ازدادت ثقة من حوله به ، لدرجة أنه سمع يوماً أحد القضاة ، يقول لزميل له : لو كانت اللوائح تسمح ، لطلبت ترقية الكاتب أحمد الشريف إلى وظيفة قاض أو وكيل نيابة على الأقل ..!!

زاد من الإعجاب بشخصية أبى .. أنه رفض العمل فى مكاتب كل المحامين ، حتى محامِى الاستئناف ، بحجة أن هذه مخالفة صريحة لشرف المهنة . لكنه قبل بعد إلحاح من بعض المحامين أن يعد لهم مذكرات قانونية فى بعض القضايا ، التى لا تنظر فى محكمته ، والتى يكون مقتنعاً بصفة شخصية — ببراءة المتهم فيها . وهذا ما جعل أحد المحامين يقول له ذات مرة : لو أن ما تفعله صار قاعدة ، لأغلق معظم

المحامين مكاتبهم .!!

لم أكن وحدى المعجب بشخصية أبى فى البيت ، وإنما سبقتنى إلى ذلك أمى ، التى تحترمه احتراماً يصل إلى درجة القداسة . لا تستطيع .. ولا تفكر .. أو تنوى .. أن تفعل أمراً ، لا يرضى عنه ، سواء أكان حاضراً أم غائباً . طلب منها أن تقطع علاقتها بالجيران .. ففعلت ، وأن تكف عن الخروج .. فوافقت ، وأن تبتعد عن الأقارب .. فاستجابت ، وأن تعطى البيت كل وقتها وجهدها وفكرها .. فآمنت وصدقت . جعلت أمى البيت روضة جميلة ، كل شىء فيه مرتب ونظيف .. كل شىء فى مكانه .. لا تجد على أرض الشقة ذرة تراب أو فى أثاث البيت لمحة وساخة . بعض قطع الأثاث مثل الكنب وكراسى الصالون لم تكن لها غيارات ، لذلك كانت تغسل وتوضع فى مكانها فى الفترة ما بين ذهاب الأب إلى العمل وعودته . وإذا كان بها أجزاء مقطوعة فإنها ترقع بمهارة وحكمة ، بدرجة لا يبدو فيها أى أثر للرقعة . حتى الحمام والمطبخ .. كل شىء فيهما منسق ومرتب ، له مكان خاص لا يبرحه ، لدرجة أنك تستطيع أن تحضره فى الظلام ، لو كان النور مقطوعاً . كما أن أمى « الست أم إبراهيم » — كما يناديها بهذا الاسم معظم الناس ، إذ لا يعرف أحد أن اسمها « نفيسة » سوى أهل البيت وبعض الأقارب الحميمين — قادرة على أن تصنع من الفسيخ شربات . لم نكن قادرين على أن نأكل اللحوم أكثر من مرتين فى الأسبوع هما الاثنين والجمعة ، ومع ذلك فإنها كانت تطهو أفقر الوجبات بطريقة تفتح نفس العليل ، حتى لو كانت الوجبة « كشرى »(أرز وعدس) .. كما أنها موهوبة — بالفطرة — فى صنع المربّى والفطائر والقراقيش ، وعمل أصناف المخلل مثل : الخيار والفلفل واللفت والبصل والليمون والزيتون . كما أنها تجيد عمل البطاطس المحمرة والباذنجان المقلى . أما الحلويات مثل أرز اللبن والمهلبية ولقمة القاضى والكنافة والقطائف والبليلة وعاشوراء .. فما تصنعه من تلك الأصناف — يصلح للتصدير ، ويصمد للمنافسة العالمية .. كما يعلق أبى

أحياناً . ترى هل كسبت الدنيا أم خسرت حين تركت المرأة مملكة البيت ، ومضت تزاحم الرجل فى شئون العمل ..؟! لست أدرى .. كما أنى لا أدرى هل هذا شأن أمى وحدها أم أن هذا كان طابع عصر ذهبى ، مرت به الأسرة المصرية فى النصف الأول من القرن العشرين ، ذلك العصر الذى شهد أفضل مراحل مصر الحديثة فى الثقافة والتربية والأخلاق ..!!

أنهيت دراستى الثانوية فى مدرسة المنصورة وهى مدرسة عريقة أُنشئت سنة ١٨٣٥ فى عصر محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة ، وتقع فى شارع قريب من النيل يسمى « شارع الثانوية » . مع نهاية المرحلة الثانوية كنت قد انتهيت من قراءة كثير من أمهات كتب الأدب العربى والإنجليزى .. وبعض الأعمال المترجمة من الآداب العالمية ، اخترت قسم اللغة الإنجليزية بتشجيع من والدى وصديقى ومعلمى . اخترت أيضا كلية آداب القاهرة ، لأنى كنت ولا زلت معجباً بقبة جامعتها الوقور وطرازها الهندسى الرصين .

حين دخلت المدرج أول مرة ، سخر بعض طلبة وطالبات المدارس الإنجليزية من ذلك القروى الساذج ، الذى دخل قسم أبناء الذوات وسكان العاصمة . شيئاً فشيئاً بدأت أفرض احترامى على كل الطلبة ، وألفت نظر بعض الديمقراطيين من الأساتذة ، الذين يسمحون بأن تكون المحاضرة حواراً بينهم وبين الطلبة . لم أكن أبدو للجميع أنى مثقف واسع الاطلاع فحسب ، بل كنت حريصاً دائماً ألا أقول أية معلومة إلا بإنجليزية سليمة النطق ، صحيحة المخارج.وقد ازداد إعجابهم حين علموا أنى لم أسافر مطلقاً إلى بلاد الإنجليز ، و لم أتلق النطق على أحد من المدرسين الأجانب ، وإنما الذى علمنى هذه الطريقة الصحيحة فى النطق Pronounce هو والدى ــ أطال الله عمره . صرت أسمع هذه الجملة ــ عادة ــ بعد كل إجابة :

Excellent, Very nice. Thank you.

كنت خجولا — بالفطرة والعادة — فلم يكن لأبى أصدقاء أو أقارب يزوروننا . كما أنه لم يشجعنى على الاختلاط ، فصرت أميل إلى العزلة وأقرب إلى الانطواء ، لذلك كنت أقضى فترات الراحة بين المحاضرات فى القراءة .. أو تأمل حجرة الدراسة ، التى تبدو — أحيانا — مثل سفينة نوح ، تحمل نموذجاً من كل صنف من الكائنات . أتأمل الجميع من مكانى — الذى لا أغيّره — فى آخر مقعد ، فأراهم ما زالوا أطفالا. الأعجب من هذا أن معظمهم كان سعيداً بدور الطفولة ، الذى يمارسه . ثمة طالب معجب بنفسه هو يحيى المليجى ، يريد أن يلفت نظر كل الطالبات إليه ، ويتودد إليهن بطريقة لزجة . هذه نبيلة حسنى القصيرة الدميمة الثرثارة ، تصر على أن تُرى الجميعَ الفساتين والملابس الفاقعة ، التى ترتديها كل يوم . مع مرور الأيام اكتشفت أن هناك زميلين حريصين على التودد إلىّ والتعرف بى : الأول طارق فهمى ، شاب انتهازى ، أراد أن يصاحبنى من أجل كشاكيل المحاضرات ، وأن أشرح له بعض ما يصعب عليه . إلى هنا والأمر مقدور عليه ، و لم أستطع أن أتخلف عن مساعدته . لكن الأخطر والأنكى أنه عرفنى بأحد موظفى رعاية الشباب ، الذى أخذ يغرينى بأهمية الانضمام إلى « منظمة الشباب الاشتراكى » ، وكتابة تقارير عما أشاهده فى المدينة الجامعية أو الكلية أو القسم أو فى أى مكان :

— المسئولون الكبار يريدون إصلاح البلد ، وتطهير الفساد ، وإبعاد المفسدين . ثورتنا المباركة — مثل كل ثورة فى العالم — تريد رجالا مخلصين وعيونا يقظةً ، حتى تستطيع أن تحقق مجتمع الحرية والاشتراكية والوحدة .

رفضت بإصرار الدخول فى هذا التنظيم المشبوه ، لأنى رأيت فيه نوعاً من الخيانة ، وليس الوطنية — كما يدعون . لكن طارق الكلب لم ييأس ، ووضعنى فى رأسه .

الشخص الثانى الذى اهتم بى من الزملاء عبير قنديل ، وهى فتاة رقيقة

استلطفتني هكذا لله فى لله . فهناك من البشر شخص تراه فتحبه ، أو على الأقل تتقبله من أول نظرة ، وشخص آخر حين تراه تنفر منه ، أو تتقزز من أول نظرة . الأرواح فيها موجات مشعة — قد لا نراها لكنها تعمل تلقائياً ، وحين تلقى من هو على طبيعتها تنجذب إليه ، ومن ليس على شاكلتها تهرب منه . وهذا التجلى هو ما ينكشف للقلوب ، من أنوار الغيوب ، فى لحظات برقية خاطفة manifestion . ظهر لى من خلال الحوار مع عبير أن بيننا أشياء كثيرة مشتركة . كانت أول أنثى فى الوجود خفق لها قلبى . حين أسافر فى عينيها الصافيتين أرى خلف منظارها الفضى بحراً من الحنان ، وسماء من الشوق . ثمة أشعة نورانية تصلنى من عينيها ، وتخترق لحمى وعظمى ، وتستقر فى القلب الأخضر ، فتحل الروح فى الروح ، وتتحد الذات بالذات ، كأنا جد عشاق . العجيب فى أمرى مع هذه الفتاة ، التى فضت بكارة قلبى ، أنى لا أستطيع وصف جسدها ، لأنى لم أر فيها سوى النفس الذكية والروح الطاهرة . لم نكن نلتقى خارج حجرة الدراسة . عندما نلتقى لا نتكلم عن الحب أو الشوق ، وإنما نثرثر فى أمور الدراسة والتعليم . رغم ذلك كنت أحس نحوها بحب غامر ، هيئ لى لفترة أن أحداً من العالمين ، لم يحمله لأنثى من قبل أو من بعد . حفظتُ من أجلها هذين البيتين :

مُزجتْ روحُك فى روحى كما تمزجُ الخمرةُ بالماء الزلالِ

فإذا مسك شىءٌ مسّنى فإذا أنتَ أنا فى كل حالِ

من عجب أن مصدر السعادة صار سر الشقاء . غار منى طارق الكلب بسبب علاقتى بعبير ، حاول هو الآخر أن ينال رضاها . كانت تصده بأدب ولباقة ، ومع ذلك فإنه اتخذ من هذه القضية الخاصة مبرراً آخر للخلاف بيننا ، والحقد الشديد علىّ . أول مرة أقف فيها موقف الخصومة فى حياتى القصيرة ، التى لا تتجاوز عشرين ربيعاً .

مرت الأيام والشهور ، ونجحت بتفوق فى السنة الأولى . كنت الثانى على

الدفعة بأكملها . أقنعنى أبى بضرورة أن أرضى بهذا ، لأن ذلك لن يتغير أبداً ، فأول الدفعة .. ابنة رئيس القسم ، وابن الوز — دائما عوام . وأساتذة القسم لابد أن يجاملوا رئيسهم . نحن شعب يعرف الأصول .. انصر رئيسك ظالماً أو مظلوماً .

واصلت مسيرتى العلمية بتفوق ، وحافظت على كونى طالبا ممتازاً ، أتبادل أنا وابنة رئيس القسم سمر صبرى فريد أولية الفرقة — بالمناسبة سمر هذه مولودة فى إنجلترا أثناء وجود أبيها فى البعثة . أمها أيضا أستاذة لغة إنجليزية فى كلية البنات ، أى أنها تحمل جنسية مشتركة (إنجليزية ومصرية) . كما أنها تعيش فى بيت إنجليزى مائة فى المائة ، وإن كان موجوداً فى حىّ الدقى القديم . قدرتى الفائقة على تحدى ابنة رئيس القسم ، هو ما جعل الدكتور صبرى وغيره من الأساتذة ، يعاملوننى باحترام وتقدير . بل إن الدكتور صبرى طلب أن أزوره فى البيت ، وأن أذاكر مع سمر إنْ أردت . لكن عبير رفضت هذا الاقتراح ، وظنت أنى سوف أتحول عن حبى لها . بدأت أدرك من غيرتها المستترة ، أنها تحبنى حباً جماً . كادت تعترف بحبها ، بل لقد اعترفت بالفعل . لم أقم إلا بزيارة واحدة لبيت الدكتور صبرى إظهاراً لحسن النوايا . لم أستطع تكرار ذلك ، لا من أجل غيرة عبير فحسب ، بل من أجل سبب آخر ، وهو تكوينى الخاص ، الذى يميل إلى العزلة والانطواء ، ويرفض فى الوقت نفسه الانتهازية والتملق .

لم أحظ بتقدير الأساتذة وتشجيعهم فحسب ، بل إن معظم الزملاء صاروا يتوددون إلى ، ويتقربون منى — ما عدا طارق فهمى ، الذى كان ينظر إلى دائماً نظرة حقد وحسد . لكننى لم أعبأ به ، ولم ألتفت إليه ، وإنما كنت أعامله باحتقار شديد . أفضل أنواع الاحتقار فى رأيى هو : أن تسقط من حسابك من لا تستريح إليه .. وتعده فى زمرة المفقودين أو الموتى .

أغرانى النجاح المتواصل فى القسم بأن أتخيل أنى سوف أحقق المعجزات بعد (الكهف السحرى)

النجاح بمرتبة الشرف Honour Degree والتعيين معيداً ، والسفر فى بعثة إلى إنجلترا أو أمريكا . حتى أؤكد هذا الحلم الكبير ، رأيت أن أقلد بعض الأدباء والنقاد ، الذين نعرف أسماءهم مختصرة مثل : إ. أ. ريتشاردز — ت. س. إليوت — د. هـ. لورنس وغيرهم ، لذلك كنت أكتب اسمى دائما بهذه الطريقة E. A. Shirif — فى كل ما يخصنى من كتب وكشاكيل .

أهم عامل جعلنى أنجح فى دراستى ، هو ما وجدته من حب ورعاية من أهلى . كنت قرة عين أمى ، فقد أنجبتنى وقطعت الحمل مدة خمس سنوات ، وبعدها رزقها الله بأختى زينب . أما أبى فكان حفياً بى حفاوة شديدة ، إذ أراد أن يحقق من خلالى كل الآمال المحبطة ، التى لم يستطع هو أن يحققها . كان يستدين — أحياناً — من أجل أن أرتدى أفخر الملابس ، وأبدو فى أكمل مظهر ، لدرجة أن بعض الزملاء ظنوا أنى سليل أسرة عريقة ، فكنت أقول ليحيى المليجى ، الذى سماه بعض الخبثاء « المعجبانى » : أنا ابن باشا .. باشا سابقا .

ابتسمت فى داخلى حين تذكرت أن أمى ، ما زالت تؤمن بأن زوجها مثل سعد زغلول ، وتقول له فى لحظات الدلال والرضا : يا باشا . بدأت أستعد للسفر إلى القاهرة ، وأبى مشغول بإعداد ما يلزمنى .. وأهم ما يلزمنى فى تلك السنة — كما رأى أبى — بدلة جديدة محترمة ، أختم بها حياتى الجامعية فى قسم اللغة الإنجليزية ، وقال فى إنجليزية تحافظ على نبرات النطق الصحيح :

Mr Ebrahim must have a new Suit .

الفكرة البعيدة التى دارت فى مؤخرة رأس أبى ، هى أننى يمكن أن أعين معيداً فى العام القادم . الشكل .. أو The Form مهم جداً فى نظر والدى . الشكل لا ينفصل عن المضمون . لا يكفى أن تكون عظيماً فى أعماقك ، وإنما لابد أن تجمع بين حسن الجوهر وجمال المظهر . الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، كما أن الله جميل ، يحب الجمال .!!

أخذت أمى ـ كالعادة ـ تعد لى بعض الفطائر المحشوة بالعجوة والسمسم والقراقيش . إنها تعلم أنى أقيم فى المدينة الجامعية ، كما تعرف أننى مسافر إلى مدينة أكثر عماراً من المنصورة ، لكنها تجد فى ذلك سعادة غامرة ، كأنها تعد كعك عرس ، وتقول :

ـ الأم التى لا يأكل ولدها من صنع يدها ، لا يكون له خير فيها .

اجتمعت الأسرة حولى ليلة الرحيل ، كأنى مسافر إلى بلاد بعيدة . تناولنا عشاء فاخراً ، ترفع من قيمته المعنوية والمادية البطة الدسمة ، التى زينت المائدة . الست أم إبراهيم أعدت منها شوربة جميلة ، وثريداً بالثوم والخل ، وملوخية شهية . بعد العشاء أحضرت زينب كوبين من الشاى لأبى ولى . أخذ الوالد يطلب من زينب أن تجتهد فى الدراسة ، حتى تدخل الجامعة مثل أخيها . ردت الأم :

ـ جامعة إيه يا باشا .. الجامعة للأولاد .. لكن البنت جامعتها بيتها .

لاحظت أن الحوار يدور حول مستقبل زينب ، لكنها لا تشترك فيه بالرفض أو القبول . قلت حتى أخفف من حدة الخلاف بين الأب والأم :

ـ وأنت يا زينب .. ما رأيك ؟!

ردت فى خجل ، لكن صوتها أخذ يهدأ ويثبت قليلا قليلا :

ـ بابا رأيه صحيح .. وماما عندها حق ..

ـ كيف .. يا أختى ؟!

ـ التعليم ضرورى للبنت .. لكن البيت أهم شىء فى حياتها . الشاب قد يتزوج أو لا يتزوج ، فلا يخسر شيئاً كثيراً . أما البنت فى مجتمع محافظ مثل مجتمعنا ، فلو لم تتزوج لكانت مصيبة ناقعة .

قالت الأم معجبة :

ـ فيلسوفة مثل أبيك يا حبيبتى !!

فوجئنا بطرق شديد على الباب فى ساعة متأخرة من المساء . اشتد الطرق أكثر ، لدرجة أنه كاد يكسر الباب . أحسسنا بقدر من الخوف والقلق ، قال الأب :

ـــ اللهم اجعله خيراً ، من الطارق .. وماذا يريد فى هذه الساعة المتأخرة ؟

حاولت أن أتجه نحو الباب ، لكن أبى ـــ الذى كان يجلس بجوارى ـــ أمسكنى من يدى :

ـــ انتظر أنت ، سوف أفتح أنا .

أصلح وضع الطاقية على رأسه ، ووضع العباءة على كتفه . أدخل قدميه فى الشبشب ، لم يلتفت إلى أنه وضع اليسرى فى اليمنى ، واليمنى فى اليسرى . خفق قلبى فى صدرى ، كأنما نهشه منقار نسر . ما يحدث الآن .. لم يحدث لنا فى أى يوم .. ولا فى أية ليلة . نحن أسرة تحب العزلة ، لا تزعج أحداً ، ولا تريد أن يزعجها أحد . تعلقت عيناى بشخص أبى ، الذى توجه مسرعاً نحو الباب ، بينما أمى وأختى لم تقدرا على مغادرة صالة البيت ـــ رغم أن أبى لا يسمح لهما بلقاء الغرباء . اشتد الطرق أكثر .. وأكثر . ما إن فتح أبى الباب ، حتى اندفعت نحو الداخل مجموعة من جنود الشرطة والمخبرين ، يحملون عصياً غليظة وبنادق مشهرة . تحولت صالة البيت إلى ميدان قتال فى أقل من لمح البصر . صاح قائد الهجوم :

ـــ هذا بيت إبراهيم أحمد الشريف ؟

فرد الوالد فى ثقة ممتزجة بالدهشة :

ـــ نعم .. أنا والده .

نظر ناحيتى وهو يصوب مسدسه ، واطمأن ـــ فى داخله ـــ كأنما ظفر برأس كليب ، بل لقد ظفر بكليب نفسه :

ـــ أليس هو هذا الشخص ؟

ــــ نعم .. إنه طالب فى جامعة القاهرة .. ولا شأن له ....

قاطع أبى صائحا :

ــــ لا تتكلم إلا حين تُسأل ، مفهوم ؟

انطلق نحوى فى سرعة البرق . أمسكنى بيده اليسرى ، ونظر نحو قواته البربرية :

ــــ فتشوا حجرته ..

ثم استدرك :

ــــ لا .. فتشوا البيت كله .

انطلق فئران الجبل مثنى وثلاث نحو حجرات البيت . حاول أبى أن يعترض ، قال موجها حديثه نحو الضابط الممسك بيدى فى عنف وغطرسة :

ــــ أنا رجل قانون يا بنى .. ولا يوجد قانون فى العالم ، يبيح لكم أن تفعلوا هذا ببيوت الأبرياء .

ــــ لست وحدك الذى يفهم القانون يا حضرة كاتب المحكمة .

قالها فى سخرية .. وهو يحكم قبض كفه على المسدس :

ــــ لكن مسألة البراءة .. وعدم البراءة هذه ، ليست من شأنى ولا من شأنك .

حاولت أمى أن تدخل حجرتها ، فلم يسمح لها أو لأختى زينب بمغادرة الصالة . فى موقعنا بالصالة كنا نسمع صوت أشياء يُقذف بها على الأرض ، وأشياء أخرى تنكسر ، وثالثة تتمزق . الثيران تتجول فى البيت بسرعة الشيطان . المجموعة التى فتشت حجرة ، تتبادل التفتيش مرة ثانية مع مجموعة أخرى . بعد لحظات حارقة الانتظار ، جاءوا بما بدا لهم أدلة الاهتمام : تفسير القرآن الكريم ــــ صحيح الإمام مسلم ــــ إحياء علوم الدين للغزالى ــــ رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ــــ الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ــــ حياة محمد لمحمد حسين هيكل ــــ عبقرية عمر للعقاد ــــ مناهج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوى ــــ

حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي ــ بعض الكتب والقواميس الإنجليزية .

عندما أبصرهم الضابط صاح بلهجة آمرة :

ــ لماذا أحضرتم كتب إنجليزية يا بقر ؟!

رمى الجنود باستهتار الكتب الإنجليزية ، فصاح أبى فيهم غيظاً :

ــ حرام عليكم .. خربتم بيتى . تدوسون العلم بأقدامكم ، وتخربون بيوت الأبرياء بأيديكم .

اقترب الضابط منه فى هدوء ، وهو يلوح بمسدسه :

ــ قلت لك اخرس ، وإلا قبضت عليك بتهمة ..

غلى الدم فى عروق . أبى العظيم .. مثلى الأعلى ، يهدده كلب مسعور . انتهزت فرصة تركه ليدى وتوجهه نحو أبى . بدأت أستعد لصفعه . أحس بحركتى بعض الجنود ، فجروا نحوى :

ــ المتهم يريد أن يهرب يا سيادة النقيب .

التفت نحوى الضابط فى هدوء :

ــ صحيح .. تريد أن تهرب يا كلب ؟!

ــ أنا طالب جامعى محترم .. الكلاب من لا يعرفون حقوق الآخرين .

تبادلنا نظرات غيظ مكتوم . صاح فجأة :

ــ شاويش فتحى .. الأستاذ مازال نائماً .. أيقظه .

تحركت الآلة الجهنمية . بدأوا يضربونى من خلف ومن قدام ، بالأيدى والأقدام . صرخت أمى وأختى . جرى أبى فى محاولة يائسة لحمايتى . جذبه الضابط من يديه مهدداً :

ــ ابتعد .. إنهم يؤدون واجبهم . أنت رجل قانون ، وتعرف عقوبة من يمنع موظفاً رسمياً من أداء عمله .

لم أعد أفهم شيئاً ، بل لم أعد أرى ما أمامى بوضوح . واجب .. قانون ..

أداء عمل .. هل هذا ما يحدث الآن ؟. أى واجب .. وأى قانون يا وزير الداخلية ؟!

قال الأب باكياً :

ـ إنه ابنى الوحيد يا حضرة الضابط .

ـ لماذ لم تحسن تربيته ، حتى لا يتورط فيما تورط فيه .

ـ أنا أعرف ابنى جيداً ، أنا الذى ربيته ، إنه ...

ـ قلت لك اخرس . لسنا جهة تحقيق . نحن مسئولون فقط عن ضبط المتهم وأدلة الاتهام .

عز على أمى ما يحدث لولدها وزوجها . لكنها لم تستطع أن تتحرك من مكانها ، تقف ثكلى فى ركن قريب هى وأختى زينب ، تبكيان بصوت مكتوم ودموع لا تجف . أول مرة ترى ابنها وزوجها يعاملان بهذه الطريقة . لم يعبأ الضابط بالمشاعر الملتهبة والأحزان المشتعلة بين أفراد الأسرة :

ـ شاويش فتحى خذ الأستاذ إبراهيم ، حتى يغير ملابسه فى الداخل .

عندما دخلت حجرتى ، لم أكد أتعرف عليها . صارت سوق كانتو ، حتى البدلة الجديدة ـ بدلة الليسانس الممتازة ـ ألقيت على الأرض ، وداستها الأحذية الثقيلة القذرة . عدت إلى الصالة فى صحبة الرقيب فتحى بعد أن ارتديت ملابسى على عجل . حين لمحنى الضابط ، قال لأبى هامساً :

ـ جهزوا له بعض الغيارت الداخلية والملابس ، فمن يدرى ، قد يستمر التحقيق مدة .

قال أبى للضابط فى مودة :

ـ ما دمت تقول هذا يا بنى ، فأنت بلا شك تعرف تهمته . قل ، وأرحنى يا بنى . أنا مثل والدك . أرحنى أراحك الله .

لم أكن أعرف تهمتى .. ولا إلى أين سيتوجهون بى . انهار أبى ، وهم

يستعدون للخروج . أحسست مرارة الذل فى حلقه ، وهو يستخلف الضابط بأن يخبره عن المكان ، الذى سوف يتوجهون إليه . خرجت فى حراسة الشرطة ، وصورة أمى باكية لا تفارق مخيلتى .

رغم كل ما أنا فيه مر فى مخيلتى ـــ وأنا أهبط سلم البيت فى حراسة الشرطة وقبضة الرقيب فتحى ـــ طيف عبير قنديل . عبير .. يا زميلتى الحبيبة ، كنت أعد أيام العطلة بالساعات أملاً فى أن نلتقى . لم نتحدث فى الحب قليلا أو كثيراً ، لكن القلب ينبض بقوة ، حين يرى كل منا الآخر . هذه الفتاة تجبنى بطريقة لبنى قيس ، وعزة كثير ، وبثينة جميل . فى نهاية السنة الثالثة حدثت منها طفرة رومانسية يسارية ، حين طلبت منى أن أكتب لها تعليقاً نقدياً على مسرحية شكسبير الشهيرة « روميو وجولييت » المقررة علينا فى مادة DRAMA . ابتسمت فى داخلى ، وظننت ـــ ظناً أقرب إلى اليقين ـــ أن هذه دعوة لكتابة رسالة عاطفية عبر التحليل النقدى . قلت لنفسى إنها لفتة ذكية .. وتقدمية من حبيبتى العذراء الخجول . وقد أعجبتنى الفكرة ورأيت فيها شهادة إعلان صريحة لحبنا المثالى ، لكننى جبنت ، و لم أقدر على تنفيذ ما أرادت . اكتفيت بإعطائها كتاباً حول مسرح شكسبير . أنعشت روحى المحبطة ذكرى عبير الجميلة . فجأة قفزت إلى ذهنى صورة قبيحة لطارق فهمى ، وهو ينظر إلىّ نظرة شماتة وتشف .

خرجت من البيت وصراخ أمى الباكى ، يشرخ سكون الليل ، وبكاء أختى الصغيرة ، يساقط تساقط مطر الخريف . نهرنى الضابط بشدة حين حاولت توديع أبى قبل أن أصعد إلى سيارة البوليس قائلا :

ـــ لا داعى لهذا ، لأننا تأخرنا .. وقد يرجع إليكم بعد يومين .

رد الأب سريعاً :

ـــ هل هذا .. هذا صحيح يا حضرة الضابط ؟

أسلمنى الضابط إلى الرقيب فتحى ، الذى أسلمنى بدوره إلى شرطى ضخم

الجثة . كانت العربة ذات صندوق كبير .. يفتح من المؤخرة ، ويصعد إليه بدرجتين . فُتح البابُ ورمونى مثل جوال بطاطس وسط صندوق العربة . الظلام شديد فى الداخل .. و لم أستطع أن أميز سوى صوت قفل حديدى ، يغلق الباب إثر دخولى . وقعت وسط العربة منكباً على وجهى بقوة الدفع وقلة المقاومة وضعف الروح المعنوية . حاولت أن أجمع أعضائى المفككة . تحاملت على نفسى حتى أنهض ، لأجلس على الكرسى الملاصق لجدار العربة ، فإذا بشرطى خشن الصوت ، تبرق عيناه فى الظلام ، يردنى بكلتا يديه ، حتى لا أنهض . هيئ لى أن نبرات صوته قريبة من نبرات صوت طارق فهمى ، الذى لا أدرى لم يلح علىّ طيفه فى هذه الليلة الحزينة :

ـــ مكانك على الأرض .. يا مجرم يا ابن الكلب .

عز على ـــ كثيراً ـــ أن يشتم أبى لغير ما سبب ، فصحت دون أن أعرف أين مكانه :

ـــ لا تشتم أبى يا ثور .

لم أكد أنتهى من نطق كلامى ، حتى أحسست أن هناك أيادى كثيرة وأرجلا ثقيلة ، تضربنى من كل اتجاه .. فى كل جزء من جسدى . لم أعرف هل كان فى العربة أكثر من شرطى أم أن فحل الجاموس ، تحول إلى كائن خرافى ، له أكثر من يد وأكثر من رجل ..؟! أول مرة أحس أنى أعامل مثل كلب عقور . بينما السيارة تسير إلى حيث لا أعلم ولا أدرى .. لم أعد أعرف من يضربنى ، ولا كيف أضرب ؟! بعد مدة صرت شبه فاقد للوعى .. بعد أن انهرت بشدة ، لأن هذا أول موقف صعب أتعرض له فى حياتى . أبى لم يضربنى ، حتى وأنا طفل .. كذلك أمى لم تقل لى كلمة نابية ، حتى على سبيل المزاح . أنا إبراهيم الشريف الشاب المثالى الرقيق ألقى كل هذه المعاملة البربرية .. كيف .. و لم ؟!.. لماذ يا مصر تخصين ذكورة أبنائك ؟! تمددت فى صندوق العربة بلا حراك ..

أو صوت . ظن الحارس أو الحراس ـــ لست أدرى ـــ أنهم قد فعلوا ما يكفى لتأديبى ، لذلك سكت عاجزاً .. ولم تصدر عنى أية حركة . فى تلك اللحظة تقدم شرطى ضخم اليد ممتلئ الأصابع ، ليربط عصابة على عينى ، حتى لا أرى شيئاً فى وقت اغتيل فيه الضوء من كل الجهات . تذكرت فى تلك اللحظة الأليمة بيتاً من قصيدة « الأرض الخراب » للشاعر إليوت Eliot :

« هنا لا يمكنك الوقوف أو الاسترخاء أو الجلوس »

لست أدرى هل طال الطريق حقيقة .. أم أن إحساسى بالزمن ، هو الذى تثاقل ؟! فيما بين الوعى واللا وعى ـــ حاولت أن ألتمس مبرراً لما أنا فيه . اثنتان وعشرون سنة ، لم أرتكب فيها ذنباً .. بل لم أخطئ ـــ حتى على مستوى التفكير المتخيل ـــ فى حق أحد من البشر . لا أحب النقاش . ليس لى أعداء أو خصوم ، لأنه ليس لى أصدقاء . فأنا إنسان كثير المعارف نادر الأصدقاء . صديقى الوحيد هو والدى . كم هو جميل أن تتبادل مع أبيك الرأى .. وتختلف معه .. أو تسمع منه آخر نكتة .. أو آخر إشاعة فى الحى .. أن تغلبه أو تُغلب منه فى لعبة الشطرنج .. أن تتناقش وإياه فى قضايا الأدب والفكر والسياسة والقانون . الأمر الوحيد الذى جعلنى إنساناًسوياً فى هذه الحياة هو أبى .. صديقى وأستاذى . لم أسرق .. ولم أزن .. وعلى هذا فإن تهمتى فيما يبدو سياسية . كيف يحدث هذا .. وأنا مؤمن برأى الإمام محمد عبده بعد العودة من المنفى حين قال : لعن الله كل ما اشتق من فعل ساس يسوس سياسة . كنت أمضى فى هذا السبيل على خطى أبى .. فهو يفضل القراءة فى السياسة والصحافة ، لكنه يكره ممارسة العمل السياسى ، ويرى أن السياسة فى بلاد العالم الثالث لعبة الانتهازيين . ازداد اقتناعى بهذا الرأى حين دخلت الجامعة ، فقد رأيت كثيراً من الطلبة مثل طارق فهمى ، يفتعلون نوعاً من الحوار السياسى ، حتى يعرفوا رأى زملائهم ، ويكتبوا تقارير عنهم . كما اكتشفت أن بعض الطلبة أعضاء فى منظمة الشباب الاشتراكى

أو التنظيم الطليعى ، بل إن بعضهم مخبرون سريون ، يتقاضون راتباً ، ويمنحون ميزات من وزارة الداخلية . تذكرت فى هذه اللحظة مقولة ذكرها أحد الأصدقاء : بعض الصحفيين يبدأ حياته مندوباً عن الجريدة فى وزارة الداخلية ، ثم ينتهى به الحال ليصبح مندوب الداخلية فى الجريدة . لم .. لماذا قبضوا على إذن ؟! إننى طالب جامعى فقط لا غير .. حتى « أسرة وليم شكسبير » التى كونها بعض طلبة القسم بإشراف أستاذ الدراما دكتور فريد رشدى رفضت الانضمام إليها . يا شكسبير العظيم .. أسجن أم لا سجن تلك هى القضية ؟! كيف أسجن .. ونحن فى عصر الثورة والحرية . الشعار فى كل مكان : « ارفع رأسك يا أخى ، فقد مضى عصر الطغيان » .

لم أحرك رأسى يميناً أو يساراً .. فلم .. لم قبضوا على فى منتصف الليل مثل عتاة المجرمين .. لم ؟! لمت نفسى لوماً شديداً ، لأنى شغلت بها عن التفكير فى أمر أسرتى . ما زال صياح أمى يرن فى أذنى ، وبكاء أختى يقطع شغاف قلبى ، وانكسار أبى يحرق أعصابى . ماذا سوف يحدث لأمى ، التى تسود الدنيا فى عينيها إذا أصيبت بأزمة برد ؟ كيف سيكون موقف أبى — المعتد بنفسه المحافظ على كرامته ، الذى يترك بينه وبين غيره عشرين خطوة ، حتى لا يتجرأ أحد على خصوصياته أو يقتحم إطار عالمه الخاص ؟! الأستاذ أحمد أفندى الشريف الموظف المحترم ، الذى لم يقع يوماً فى زلة .. ولم يعتذر عن فعل أو قول — ماذا سيقول للناس إذا ما سألوه : لم قبضوا على ابنك .. وما تهمته ؟! صحيح ما هى تهمتى .؟! إذا كنت أنا نفسى لا أعرف . فكيف يعرف هو .؟! سامحنى يا أبى فلم أكن أود أن تحنى قامتك ، حتى من أجلى أنا .. أنا ولدك الوحيد .!!

بين اليأس والأمل .. أعادنى الشرطى إلى صندوق السيارة وإلى إحساس سرمدى بظلمة الكون . تحرك الشرطى الضخم واضعاً حذاءه العسكرى فوق صدرى . حدث ذلك مصادفة .. أم قصد؟! الحذاء ثقيل جاف النعل . ثمة

مسمار فى الكعب انغرس فى صدرى .. ووصل إلى ضلوعى . رائحة نتنة نفاذة تفوح من الحذاء ، كأنما وضعت فيه جثة كلب ميت . رغم إحساسى بالألم والمرارة ، لم أكن قادراً حتى على تحريك حذاء الشرطى . المسمار ينغرس أكثر .. والحذاء يتثاقل على صدرى . أى قانون يأمر بمعاملة البشر هذه المعاملة المغولية ؟! يا سادتنا العظام فى الشرطة والمباحث : ارحموا عبادكم الضعفاء .. ومواطنيكم الأبرياء . ما زال حذاء الشرطى جاثماً فوق صدرى ، وما فتئ السؤال يلح على ذهنى المرهق : هل وضع الشرطى حذاءه فوق صدرى قصداً أم مصادفة ؟! شكل هذا السؤال بالنسبة لى — فى لحظة توقف فيها الزمان ، وفقدت الإحساس بأنى إنسان — سؤالا مصيرياً ، محيراً أكثر من حيرة هاملت Hamlet . تحرك خفاش القلق فى أعماق . أرغب صادقاً فى معرفة إجابة لهذا السؤال المحير . استهوتنى الرغبة فى المعرفة إلى سؤال آخر ، إذا كان الشرطى قد وضع قدمه مصادفة فوق صدرى ، وهذا مجرد فرض نظرى — فكيف أتجرأ وأطلب منه أن يتكرم ويبعد قدمه الشريفة ، عن صدرى الضعيف ؟!

لست أدرى ماذا حدث لى بعد موقعة الحذاء ، فقد غبت عن الوعى مدة لا أعرف مداها . حين استعدت قدراً من إحساسى بالحياة ، كرهت نفسى .. ولعنت اليوم الذى ولدت فيه .. وكفرت بالحق والقانون . تمنيت ألا أكون قد عشت فى عصر ، يتساوى فيه القط والفار والليل والنهار . ما قيمة الحياة إذا داستنا الأقدام القذرة ، واعتدت — على إنسانيتنا — الكلاب المسعورة ؟! منصورة .. يا بلدنا .. ماذا حدث لك .. وكيف هُنّا عليك إلى هذه الدرجة ؟!

توقفت العربة فجأة .. هدأ صوت الماتور وحركة العجلات . استعدت قدراً من آدميتى المهدرة . استيقظ الشرطى على صوت أتى من الخارج :

— عسكرى يا حنفى .. هات المسجون الذى معك وتعال .

— حاضر يا أفندم .

انتبه الشرطى . رفع قدمه عن صدرى بعد أن كدت أيأس من ذلك . قال فى صوت ممتزج بالتثاؤب :

— اصح يا بنى آدم .. وصلنا خلاص .

إلى أى مكان فى بلادنا الجميلة وصلنا يا عم حنفى ؟! انفتح القفل .. وباب الصندوق .. والتف الجنود حولى .. كأنى عطيل OTHELLO . بدا ضوء الفجر يشع من بعيد .. بعيد جداً ، لكننى رغم ذلك لم أر شيئاً .. و لم أعرف فى أى مكان نزلت .. ولا ماذا سوف يحدث لى . صحت فى داخلى : يا رب يا متجلى .. ارحم ذلى ..!!



٣ ـــ إنهم يغتالون الأحلام

انطلقت العربة بالابن العزيز الغالى . ليس من تحمله العربة إنساناً عادياً ، لأنه ابنى ، لكنه رجل أعددته ليكون ذخراً للوطن . إنه أملى الوحيد ، الذى خرجت به من ظهر الدنيا ، ربيته كأحسن ما تكون التربية . اخترت له أماً صالحة .. نفيسة ابنة جارنا الطيب الشيخ عثمان موافى . أنجبته بعد سنتين من الزواج ، اشتد فيهما شوقى أنا وهى للخلفة . أخيراً رزقنا الله بإبراهيم . توقفت أمه عن الإنجاب ثانية فترة خمس سنوات ، ولدت لنا بعدها زينب . ثم ودعت الأم القدرة على الإنجاب . حمدت الله .. وقلت إنه جلت حكمته قد رزقنى البنين والبنات « خلف الملوك ، صبية ومملوك ». تركت تربية زينب لأمها ، وتكفلت بأمر الولد . كما كان إبراهيم خليل الله .. صار إبراهيم ابنى وتلميذى .. وصديقى . أخذت أصنعه على عينى . حرمت نفسى والعائلة من كل شىء لكى أقدم له أى شىء يرغب فيه . أفضل معروف يصنعه والد لولده أن يقرئه العلم والأدب ، وأن يربيه على القيم والمبادئ . كنت أحس أحياناً وهو صغير أنه طفل ، يحتاج إلى اللعب والخروج ، فكنت ألاعبه وأنزه معه ، حتى لا يحرم من شىء يمارسه من هم فى مثل سنه . أكرمنى الله كثيرا فى إبراهيم . نقلت إليه عدوى حب القراءة .. ولا سيما قراءة الأدب ، وبدأ يجيد القراءة بالعربية ثم الإنجليزية . أملا فى مزيد من إتقان اللغتين ، حددنا ـــ أنا وهو ـــ أوقاتاً لا نتكلم فيها إلا بالعربية الفصحى أو الإنجليزية . كان هذا يحدث على الأقل مرتين فى الأسبوع فى حديقة قريبة من نهر النيل . فى أثناء العودة تكون المكافأة كوباً من عصير القصب المثلج فى الصيف ، أو طبقاً من البليلة الساخنة باللبن والسكر وجوز الهند شتاء .

لم يرسب فى حياته فى مادة من مواد الدراسة ، بل ظل محافظاً على ترتيب الأول كل سنة . لم يتخلف ترتيبه إلى الثانى إلا فى قسم اللغة الإنجليزية ، حتى لا يسبق ابنة رئيس القسم . لم يكن عقل إبراهيم مشغولا بالعلم والأدب فحسب .. وإنما صار قلبه أيضاً مشغوفاً بالإيمان والعبادة ، فقد حفظ أجزاء كثيرة من القرآن الكريم ، وقرأ بعض كتب سيرة الرسول — ﷺ — خاصة كتاب « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل . لم يقصر يوماً فى أداء الفروض والنوافل . الإيمان ليس حلية أو زينة ، وإنما وسيلة هامة لتطهير الجسد ، حتى يتفرغ العقل والقلب لما خلقنا من أجله . نعوذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، وعين لا تدمع ، ونفس لا تشبع ، ودعوة لا يستجاب لها ، وذرية لا خير فيها .!!

بعد كل هذا أخذوك يا إبراهيم ..؟! لماذا يا رب .. يا الله .. يا من يجيب دعاء المضطر إذا دعاه .. لا أسألك رد القضاء ، بل أسألك اللطف فيه . دارت هذه الخواطر البعيدة فى أعماق المضطربة ، عندما رحلت السيارة بالحبيب ، وخلفه سيارة أخرى تحرسه . اختفت السيارتان فى ظلام منتصف الليل . هممت — للحظة — أن أجرى خلف السيارة ، حتى أعرف المكان الذى يأخذونه إليه . القلب يحدثنى بأن هناك خطأ ما . مستحيل أن يكون ولدى قد اقترف ذنباً ، أو تورط فى مشكلة . لابد أن يكون هناك خطأ ما .. هناك خطأ ما ، ليس فى سلوك إبراهيم .. وإنما فى حياة الوطن وطبيعة الكون . الجيران الطيبون يواسوننى ، ويطلبون منى الصبر على قضاء الله . كثير من الجيران ممن أعرف أو لا أعرف ، وقفوا بملابس البيت مثلى ، وقد علت وجوههم الدهشة ، وغمرت قلوبهم الحيرة . منذ ما يقرب من ثلاثين سنة وأنا أسكن هنا فى حارة الفكهانى . كل أهل الحارة ممن أعرف أو لا أعرف ، يعلمون أننى رجل طيب .. أعيش فى حالى . لا أحب الاختلاط وتبادل الزيارات ، لكنى أشارك الجميع فى بعض الأزمات وحالات الشدة ومصائب الزمان ، وأقدم العون والمساعدة إن استطعت . أخذنى

من يدى الأستاذ حامد البكرى مدرس اللغة العربية ، الذى يسكن فى الدور الثانى ـ تحت شقتنا ، وهو أقرب سكان البيت إلى ، لأنه من بلدة قريبة من قريتنا ـ التى لم أعد أزورها إلا فى بعض المناسبات الجليلة . قال :

ـ عدْ إلى بيتك يا أخى ، حتى تُصبِر أمه وتستريح ، وفى الصباح سوف أذهب معك إلى مأمور قسم الشرطة ، لكى نطمئن على إبراهيم .. وإن شاء الله براءة ، وسيعود معنا بإذن الله .

رد كثيرون فى صوت واحد :

ـ إن شاء الله براءة يا أبو إبراهيم .

بينما أصعد السلم ، لم أكن أرى شيئاً أمامى . أحسست حركة أقدامى بطيئة متثاقلة . تعثرت وكدت أقع ، لولا أن أمسكنى ـ بقوة ـ حامد البكرى ، وضمنى إلى صدره فى حنان أخوى . حين عدت إلى الشقة وجدت بعض نساء البيت والحارة يجلسن بجوار زوجتى وابنتى يصبرانهما . لفت نظرى أن بعض صديقات الأسرة حاولن ـ فى أثناء غيابى ـ إعادة ترتيب ما أفسده رجال الشرطة . غير أنى اكتشفت فيما بعد أن بعض ما فعلوه يصعب إصلاحه ، فقد كسروا باب كل دولاب مغلق ، وسرقوا بعض ذهب أم إبراهيم ، وبقروا مرتبة سريره ، وحطموا زهرية الورد والأباجورة اللتين على مكتبه ، الذى صار بعد العدوان ـ أطلال مكتب . تذكرت ـ بعد عدة أيام ـ أن ساعة إبراهيم الثمينة ، التى قدمتها هدية له عندما دخل الجامعة ، قد اختفت أيضاً . حين غزا السلطان سليم الأول القاهرة سنة ١٥١٧ ، لم يكتف بالهزيمة العسكرية وقتل آخر سلطان المماليك طومان باى شنقا ، وتعليق جثته على « باب زويلة » ، بل سرق أيضاً الكتب والمخطوطات وقناديل المساجد ومنابرها وسجاجيدها وبعض عواميدها المرمرية القيمة . بعد أن سلب كل الأموال والأشياء الثمينة ، حمل معه إلى القسطنطينية معظم العمال والصناع المهرة . سامح الله الأتراك .. فقد آذوا مصر

والعرب أذى شديداً باسم الإسلام ثلاثة قرون كاملة .

طال ليلى ، و لم أنم فى تلك الليلة المشئومة أنا وأم إبراهيم وشقيقته . لم يكن أحد منا قادراً على أن يقول كلمة للآخر . بعد فترة — لا أدرى مساحتها الزمنية — نامت زينب متقوقعة ، وهى جالسة بجوار أمها . بين لحظة وأخرى كانت تنتفض مرتعشة ، كأنما كابوس مرعب ، يتراءى لها ، ويتجول بوقاحة وإلحاح فى مخيلتها المذعورة . حقيبة إبراهيم كانت معدة ، لكى يسافر بها فى الصباح ، لكنه بدلا من أن يسافر إلى الجامعة — رحل إلى مكان ، لا يعرف موقعه على خريطة الوطن إلا الله ورجال الشرطة . أمر ما غاب عنّى فى زحمة الأحداث . مع أنى رجل قانون ، لم أسأل هل الإجراءات البوليسية — التى تمت بموجبها عملية التفتيش والاعتقال — سليمة أم لا ؟! لم يكن من السهل إعادة النظام إلى الشقة ، التى عمتها حالة من الفوضى الهمجية . فى كل مكان .. وكل قطعة أثاث فتشوا وعبثوا ، حتى خزانة الكتب لم تسلم من التخريب والتكسير — هى أو الكتب القيمة التى كانت فيها . عندما احتل التتار بغداد خربوا كل شىء .. كل شىء ، حتى الكتب والمخطوطات أحرقوها أو رموها فى نهرى دجلة والفرات . صعب أو مستحيل أن تعرف البوم والغربان قيمة المعرفة وفائدة الثقافة . منصورة يا بلدنا .. هل نحن حقا فى عصر الثورة .. وعهد الحرية ؟!

أيقظتنى أم إبراهيم من شطحاتى بصوت مجروح :

— ماذا ستعمل لابننا يا أبو إبراهيم ؟

— ما قدره الله يكون .

— يا حبة عينى يا ابنى .. يا كبد أمك يا إبراهيم .. عين وصابتك يا روح قلبى .. منهم لله .. منهم لله ..

— اصبرى .. الصبر طيب .

— ما حدث — يا أخى — يستوجب الكفر لا الصبر .

صوت تراتيل الفجر ، تأتى من مئذنة مسجد قريب . قمت متجها نحو الحمام ، لأنهى المناقشة :

ــ استغفرى الله .. وقومى توضئى ، حتى تصلى الفجر . أما أنا فسوف أصلى فى المسجد ، وأدعو الله أن يرد غربة ابننا ويفرج كربته ، ويلهمنا الصبر والإيمان .

هبت زينب من نومها خائفة :

ــ العسكرى يا ماما .. العسكرى يا ماما . العسكرى سيأخذنى فى العربة .

ضمت الأم صبيتها إلى صدرها ، حتى تخفف عنها آثار الكابوس ، الذى تخيلته فى نومها . صوت نشيجها يقطع القلب . عدت من الحمام سريعاً . الصبية لم تستطع بعد أن تتخلص من حالة الرعب ، التى تعانى منها ، كأنما أصابها مس من شياطين العسكر . وضعت يدى فوق رأسها ، وأنا أردد بعض الأدعية قائلا :

ــ بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم . بسم الله ذى الشان ، عظيم السلطان ، شديد البرهان ، قوى الأركان ، ما شاء الله كان . أعوذ بالله من كل شيطان ، من الإنس أو الجان .

فى الصباح توجهت إلى المستشار عاطف إسلام . بينى وبينه صلة مودة قديمة ، فقد عرفته منذ بداية عمله فى القضاء وكيلا للنيابة . اليوم أصبح مستشاراً كبيراً ، وأنا رئيس كتاب محكمة استئناف المنصورة . حين دخلت عليه المكتب أنكرنى فى البداية . ترك أوراقه ومستنداته ، وأنصت إلى باهتمام وشفقة . بعد أن رويت له تفاصيل ما حدث . أخذ يعبث فى قلمه ــ بحركة لا إرادية . أطال النظر فى سماء الغرفة ، ولم يعلق . بدا كمن يعرف أموراً ، لا يريد أن يطلعنى عليها . بدلا من أن يقول شيئا مريحاً ، بادرنى سائلا ــ كما هى عادة رجال القضاء ــ حين رآنى أنظر إليه طالباً المساعدة والنصيحة :

ــ أنت تعرف مقدار حبى واحترامى لك .. وأنا أعرف أن ولدك إنسان ذكى وطالب ممتاز .. لكن ــ توقف لحظة متفادياً أن تقع عيناه فى عينى ــ هل تعرف

ما حدث منه خلال ثلاث سنوات قضاها فى الجامعة .. بعيداً عن رعايتك له ؟

أجبت دون تفكير :

ــ ابنى لا يخفى عنى شيئاً .

ــ هل تنتظر يا عم أحمد ، يا رجل يا طيب ، أن يخبرك أحد ، خاصة إذا كان مؤدباً مثل ابنك ــ إنه انضم إلى جماعة سياسية . أنت تعرف ــ بالطبع ــ أن أول شروط الانضمام لأى تجمع سياسى هو السرية ، السرية المطلقة ــ ولا سيما إذا كان هذا التجمع يعمل فى الظلام دون اعتراف سياسى أو دستورى من الدولة .

انتفضت كالملدوغ :

ــ مستحيل .. مستحيل يا سيادة المستشار . ابنى لا يفعل هذا مطلقاً .. مطلقاً .

نظر إلى الرجل فى حيرة وشفقة .

ــ رجل عمل فى دائرة القانون فترة طويلة مثلك ، ينبغى أن يعرف ..

ــ يعرف ماذا ؟!

ــ أن يفرق بين العواطف الشخصية والتحليل المحايد للمواقف والقضايا .

لم أسترح كثيراً لحديث الرجل ــ رغم معرفتى القوية به ، واحترامى الشديد له . بدا لى المستشار عاطف إسلام فى هذه اللحظة ــ مثل كل رجال القانون ، تناقشه وأنت مؤمن أنك برىء غاية البراءة ، بينما يحاول هو أن يثبت لك أنك المتهم الوحيد .. أو على الأقل ، يلقى فى نفسك بذور الشك ، فتتناقض أقوالك ، ويفسر التناقض لصالح ما يريد إثباته أو نفيه . لم يكن هذا عشمى فيك يا سيادة المستشار . الدنيا هكذا ..!! أحسست أنه يعرف أموراً ، لا يريد أن يطلعنى عليها . تبادلنا النظر والصمت فترة من الزمان .. لم تزد على دقيقتين تقريباً ، لكنها كانت قاسية على كلينا فى آن واحد . أردف الرجل فى هدوء حزين :

ــ أمهلنى مدة حتى أسأل . وأرجو أن يخيب ظنى ...

قاطعته فى لهفة :

ـ أى أمر تظن يا سيادة المستشار ؟

ارتبك لحظة ، ثم قال :

ـ أرجو ألا تكون قضية أمن دولة .!!

ـ ماذا تقول يا عاطف بيه ؟

ـ يوجد أمر غريب ، يحدث فى هذه الأيام ـ لا أعرف له سبباً .. هناك حركة اعتقالات واسعة . رجال الأمن يعتقلون الجماعات الدينية والشيوعية فى آن واحد ، لذلك أرجو ألا يكون إبراهيم متورطاً مع واحدة منها .

أحسست طعنة خنجر ثالم ، تقطع عروق قلبى الحزين . هل ما يقوله الرجل صحيح .. أم لا ؟! كيف يكون صحيحاً .. وأنا أعرف ابنى جيداً ؟ لكنه ـ كما ظن المستشار ـ يعيش فى القاهرة منذ ثلاث سنوات ، لا أعرف ماذا حدث له فيها . لو حدث شىء مثل هذا لأخبرنى إبراهيم نفسه . لا .. مستحيل .. لا .. مستحيل وألف مستحيل . ليس لدى دليل ، لكن قلبى لا يستريح لفكرة أن إبراهيم يخفى عنى شيئاً . ودعت الرجل بأدب وانكسار ، وحالتى النفسية أسوأ كثيراً مما دخلت عليه . جئت هنا وأنا مؤمن غاية الإيمان ببراءة ولدى ، وهأنذا أخرج حاملاً قدراً من الشك فى ذلك . إنه يعيش ـ بالفعل ـ فى القاهرة منذ ثلاث سنوات : « هل تنتظر يا عم أحمد ، يا رجل يا طيب ، أن يخبرك أحد ـ خاصة إذا كان مؤدباً مثل ابنك ـ أنه انضم إلى جماعة سياسية . أنت تعرف ـ بالطبع ـ أن أول شروط الانضمام لأى تجمع سياسى هو السرية .. السرية المطلقة ـ ولا سيما إذا كان هذا التجمع يعمل فى الظلام ، دون اعتراف سياسى أو دستورى من الدولة » . ماذا لو كان كلام المستشار عاطف إسلام صحيحا ؟! لقد ذهب إبراهيم إلى القاهرة تقياً نقياً ، فماذا حدث له ؟! قاهرة يا قاهرة ، نرسل أولادنا أبرياء إليك ، فماذا تصنعين فيهم يا قاهرة .. يا ساحرة ؟! قبل أن أصل

إلى باب الحجرة نادى على قائلا :

ـــ أحمد أفندى ..

ـــ نعم يا سيادة المستشار .

ـــ خذ أسبوعا أجازة إلى أن تطمئن على ولدك . إذا أردت شيئاً .. أى شىء ، فى أى وقت ، اتصل بى .

أدركت أن طريق المستشار عاطف إسلام ـــ مثل طريق القضاء دائماً ـــ قد يوصلك إلى الحق ، ولكن بعد أن ينفد صبرك . عدت إلى البيت فوجدت الأستاذ حامد البكرى فى انتظارى هو وزوجته أم عائشة وبعض الجيران والجارات . البيت فى مأتم .. وحالة العزاء ، لن تنقضى إلا بعودتك سالماً يا إبراهيم يا قرة عينى . اللهم كما لطفت برحمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمت ما تحت أرضك ، كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك ، وعلانية القول كالسر فى علمك ، وانقاد كل شىء لعظمتك ، وخضع كل سلطان لسلطانك ، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيديك ، اجعل لى من كل همّ وغم ، أصبحت فيه فرجا ومخرجاً !!

توجهت مع حامد البكرى وجار يسكن فى البيت المجاور ـــ هو الأستاذ عطية عمران وكيل مكتب البريد ـــ إلى قسم الشرطة ، له قريب برتبة صول يعمل فى القسم منذ فترة طويلة ، بل إنه أحياناً يقوم بدور الضابط النوبتجى . ونحن فى الطريق أخذ الأستاذ عطية عمران يشيد ببطولة قريبه الصول عبد الرحيم الصاوى ، قائلا :

ـــ حضرة الصول عبد الرحيم أقدم موظف فى القسم ، وهو الوحيد الذى يأتمنه سعادة البيه المأمور على دفتر الأحوال ، وأيتها مشكلة لأيها واحد من القرية الصول عبد الرحيم يحلها بقدرة قادر ، أى والله البيه المأمور لا يرد له طلباً .. وإن شاء الله سوف يأتينا بالخبر اليقين عن الأستاذ إبراهيم .

قال الأستاذ حامد :

ـ يا ليت يا أستاذ عطية .

أكمل الرجل قائلا :

ـ وجائز يا حامد أفندى سعادة البيه المأمور ، يأمر فى الحال إنه يرجع معانا بإذن الله .

قلت بحزن :

ـ يسمع منك ربنا يا رجل يا طيب .

حين اقتربنا من مبنى قسم الشرطة ـ ذلك المبنى العتيق المهيب الرهيب ـ اضطرب القلب . أحسست بانقباض شديد ـ رغم كل وعود الأستاد عطية عمران . ظهرت مجموعات مختلفة من الأهالى واقفة أمام الباب العتيق . صاح شرطى طويل نحيل فى بعض الواقفين قرب الباب :

ـ الدخول ممنوع يا عالم ..أوامر وأنا عبد المأمور .

أخذ الشرطى نفساً عميقاً من سيجارته الكليوباترا ، وقد شعر بقدر من الأهمية ، حين وجد نفسه يتحكم فى الناس ، الذين يريدون الدخول . أعطاه رجل سيجارة تحية أو رشوة ، فرد بحزم قائلا :

ـ لا أدخن يا محترم .

ـ لكن السيجارة والعة فى إيدك يا حضرة الصول .

ـ قصدى لا أدخن هذه الماركة . فهمت يا غشيم . ابعد عن الباب ، لأن اليوم طوارئ ، والدخول ممنوع منعاً باتاً بأمر سعادة البيه المأمور ، وكمان سيادة البيه مدير الأمن . فهمتم يا بقر . ابعدوا حتى لا تجلبوا لنا الأذى .

تحسس بندقيته مصطنعاً الحزم :

ـ ومن يخالف .. سأضرب فى المليان ..

أُسقط فى أيدينا نحن الرجال الثلاثة ، عندما شاهدنا هذا الزحام غير العادى

أمام مبنى قسم الشرطة . فعلا هناك طوارىء قصوى . كل الذين تجمعوا حلقات حلقات لهم معتقل أو أكثر . يوجد معتقلون من الإخوان المسلمين .. ومن الشيوعيين .. ومن بعض المسيحيين . من سبق اعتقالهم يعرف أهاليهم تهمتهم السياسية ، أما المعتقلون الجدد أمثال إبراهيم ابنى فلا يعلم أهلهم سبباً لاعتقالهم ، ولا إلى أى اتجاه سياسى ينتمون . إبراهيم يا حبيبى .. لم فعلت هذا بأبيك ؟ لقد ربيتك حتى تكون عكازاً أستند عليه فى شيخوختى ، وأفتخر به أمام معارفى . يا إبراهيم .. هل أنت مع اليمين أم مع اليسار ؟! مستحيل أن يكون ابنى من أولئك أو هؤلاء . لقد أحسنت تأديبه ، وعلمته أن لعبة السياسة لا تنفع فى بلاد ، يؤمن حكامها بأن من ليس معنا فهو علينا . نحن أناس فقراء ، لا نملك أن نكون مع أحد أو ضد أحد . نريد أن نعيش فى أمان محايد .. وسلام نقى . ألف حسرة عليك يا إبراهيم .. كيف لم تستوعب الدرس ، الذى عشت عمرى أعلمك إياه .

كل لحظة تمر تبعدنى مسافات شاسعة عن الأمل فى لقاء إبراهيم .. أو على الأقل معرفة مكانه وسبب اعتقاله . لا أحد يعلم شيئاً . لا أحد يعرف مفتاح اللغز . الحقيقة الوحيدة أنه فى أقل من أسبوع تم اعتقال حوالى أربعين ألف مواطن . اللغز بدا محيراً لكل من حاول أن يفهم . لقد قبضوا على الإخوان المسلمين لأنهم فكروا فى اغتيال الحاكم وتغيير الحكومة .. وهذا السبب نفسه هو تهمة الشيوعيين . دلونى على طريق المعرفة يا من تعرفون.. كيف يتفق المؤمنون بالله والكافرون به..اليمين واليسار .. المسلمون والمسيحيون .. كيف يتفقون فى لحظة واحدة ــ رغم ما بينهم من خلافات فى الأيديولوجية والتطبيق ــ على اغتيال الحاكم ورفض الحكومة ؟! إن كان هذا الزعم صادقاً .. فمن يجب أن يبقى .. ومن ينبغى أن يتنحى .؟! إبراهيم يا ولدى هل ضللتنى أم أنى أنا الذى ضللتك ؟ هل يمكن أن نترك الشر ينمو ويتوحش ، ونغلق على أنفسنا الباب ــ مثل جحا ــ بحجة أنه بعيد عن دارنا ؟! مخطئٌ من يقول : انجُ سعد ، فقد هلك سعيد . إذا لم يدافع سعد عن سعيد ،

فسوف يلقى مصيراً أسوأ من مصيره .!!

دارت هذه الخواطر المضطربة فى ذهنى ، وأنا فى طريق العودة إلى البيت . ماذا سأقول لأم إبراهيم ؟ مهما قلت .. فلن تقتنع . إنها تريد أمراً محدداً هو أن يأتى ولدها أو تذهب هى لرؤيته . دونَ واحد من الحلين .. لن تقبل ولن تكف عن البكاء والصياح . قبل أن أضع المفتاح فى الباب ، فتحته الأم وزينب خلفها ، كأنما وقفتا خلفه مباشرة انتظاراً لعودتى للاطمئنان على العزيز الغائب . يبدو أن الأم قرأت الإجابة على ملامح وجهى دون أن أنطق بحرف ، فصاحت باكية :

ـــ لم عدت وحدك ؟.. أين إبراهيم ؟

سكت و لم أدر بم أجيب ، فواصلت حديثها باكية :

ـــ قلبى مقبوض ، وعينى الشمال بترف . الطغاة اعتقلوك ظلماً يا حبة عينى .. يا مظلوم وغريب يا روح قلبى .

انهارت باكية ، وقد خنقتها الدموع . شاركتها زينب البكاء والنشيج . من المفترض أن أخفف عن زوجتى وابنتى .. كيف أقدر على هذا وأنا أشد حزناً وأبعد ألما ؟!

فى المساء حضر حامد البكرى وزوجته وابنته عائشة ، لكى يواسونا . عائشة فى مثل عمر زينب ، وقد ربطت بينهما الجيرة وزمالة المدرسة برباط أخوى ، فكلتاهما ليست لها أخت شقيقة . لا تزال آثار الخراب والفوضى بادية منذ الليلة المشئومة . الشقة كانت غاية النظام والنظافة ، فأمست تعانى من حالة فوضى شاملة . لا شىء فى مكانه أو فى حالة مثل التى كانت عليها . الكليم النظيف الجميل امتلأ بالغبار . فرش كنب الصالة صار غير مرتب وغير نظيف ، حتى المطبخ لم يعد أحد يهتم بغسل الأوانى وتنظيف الأرضية . أما حجرة إبراهيم فلم يجرؤ أحد على دخولها منذ خروجه منها ، لكن عائشة حاولت أت تفعل هذا . أخذت زينب من يدها ، ودخلت الحجرة موجهة الحديث إلى الأم دون أن تنتظر رداً :

— عن إذنك يا خالتى أم إبراهيم ، سوف أرتب حجرة الأستاذ مع زينب وأنظفها .

رغم أن مشاعرى ما زالت مجروحة ، فإننى قد أعجبت بشجاعة الفتاة . طلب منى الأستاذ حامد أن نذهب لصلاة العشاء فى المسجد ، ثم نعود لأخذ عطية أفندى عمران لمقابلة قريبه الصول عبد الرحيم فى البيت .. بعد أن استحال لقاؤه فى القسم مدة يومين متتاليين . لم يكن عطية الليلة كعادته ، لأنه كف عن ذكر بطولات قريبه . ونظراً لأنه إنسان لا يستطيع أن يضع لسانه فى فمه ، فقد أخذ يثرثر هذه المرة عن الغلاء قائلا :

— الأسعار أصبحت ناراً .. الأكل ، الشرب ، اللبس ، حتى الأحذية الواحدة منها بعشرة جنيهات . الأسعار تزيد والمرتبات كما هى .. محلك سرْ . لماذا لا تهتم الحكومة بالموظفين ؟!

قال حامد البكرى :

— الحكومة لا تهتم بالموظفين ولا بغير الموظفين .

لم أرغب فى أن أعلق على ما قاله عطية أفندى . يكفى ما أنا فيه . أخاف أن أقول إن الحكومة لا تخشى الله ولا تعدل بين عباده ، فأتهم بأنى من الإخوان المسلمين ، أو أن أقول إنها تضطهد الفئات المدنية وتسرف فى مجاملة العسكر ، وهى لا تقيم المساواة ولا تحقق الاشتراكية بين الطبقات ، فأتهم بالشيوعية . معنى هذا أنه لا يوجد مصرى يفكر فى أمور مصر من أجل مصر نفسها ، وأن كل من يعمل بالسياسة إما خائن أو عميل .!!

أيقظنى من شطحاتى عطية أفندى معلناً وصولنا إلى بيت قريبه ، الذى يسكن فى آخر مدينة المنصورة قريبا من المقابر . شعرت بقدر من التشاؤم ، حين بدت المقابر مظلمة موحشة . بين مقابر الموتى ومساكن الأحياء شارع واحد ، شارع واحد يفصل بين عالمين متناقضين . أى العالمين أكثر راحة ورحمة من الثانى ..

وهل المظلومون فى الدنيا سوف ينصفون فى الآخرة ..؟!

استقبلنا الرجل بسماحة أهل الريف وبساطتهم ، لفت انتباهى أن حوائط الشقة رطبة ، سقط معظم طلائها الجيرى . ومع أنها فى الدور الثانى فإن آثار الرطوبة تبدو بوضوح ظاهر . الحجرة فيها ثلاث كنبات بلدى قديمة الأثاث باهتة المنظر . كثير من أهل الريف فى البندر يتمسكون بوجود الكنب البلدى فى حجرة الاستقبال أو « حجرة المسافرين » — كما يسمونها أحياناً ، ليس لأنهم ينتقلون إلى المدينة بعاداتهم القديمة فحسب ، ولكن من أجل هدف آخر نفعى صرف ، فهذه الكنبات تصلح للجلوس نهاراً والنوم ليلا . فى بعض أركان الحجرة توجد أحذية غير مستعملة ، وسلة بها بغض الملابس القديمة ، وجوال به بعض الأرز الأبيض . على الحائط صورة باهتة فى برواز خشبى أجرب للصول عبد الرحيم يوم دخل الشرطة ، يلبس فيها زى شرطى نفر . وبجوارها جلباب من الصوف البنى معلق على الحائط فى شماعة خشبية . أكرة حجرة الباب تالفة ، لذلك تداخلت أصواتنا مع أصوات زوجته وأولاده ، الذين يدخلون ويخرجون دون سبب . دخلت زوجته تحمل صينية الشاى بيدها اليمنى ، وطفلا قذر الهيئة متسخ الثياب باليد اليسرى . طوق جلبابها — من أثر الرضاعة — قد سقطت أزراره واتسعت مساحته ، فبدت مقدمتا ثدييها بشكل متضخم . لا أدرى لم شعرت بالغثيان ..؟! حين عرف الصول عبد الرحيم طبيعة الخدمة التى نرجو أن يقوم بها ، تعكر وجهه وتغيرت ملامحه . سكت برهة ثم أردف :

— والله يا جماعة الحكاية ليست سهلة .

— كيف يا حضرة الصول ؟

— حركة الاعتقالات كبيرة وخطيرة .. لا زالت حتى اليوم تأتى لنا إشارات ومكالمات باعتقال ناس جدد . وزير الداخلية ذات نفسه مهتم شخصيا بهذه المسألة .

تساءل الأستاذ حامد :

ـــ مسألة إيه يا حضرة الصول ؟..

ـــ مسألة إن فيه جماعة من الشيوعيين الكفرة ومن الإخوان المسلمين ، كانوا يخططون لاغتيال سيادة الرئيس . لكن رجال الأمن استطاعوا أن يكتشفوا المؤامرة ، ويعرفوا الخونة قبل أن تقع المصيبة بأسبوع .. أسبوع واحد ، أى والله .

تساءلت فى دهشة :

ـــ من أخبرك بهذا يا حضرة الصول ؟

ـــ أنا سمعت بأذنى سعادة البيه المأمور ذات نفسه ، يقول هذا لسيادة المحافظ فى التليفون . والدليل على خطورة الموقف أن دفتر الأحوال ، الذى تقيد فيه كل صغيرة وكبيرة فى القسم ، لم يكن يخرج من دولابى ، لأنه عهدتى .. عهدتى أنا شخصياً . لكن البيه المأمور أخذه عنده ، ووضعه فى خزانته ، لذلك فهو الوحيد .. الذى يعرف أسماء المعتقلين ، وسبب اعتقالهم ، والجهة التى رحلوا إليها .

ـــ لكن يا حضرة الصول عبد الرحيم البركة فيك .. أكيد تقدر تريح الأستاذ أحمد الشريف ، لأن ابنه تلميذ فى الجامعة ، وطول عمره فى حاله . وفى الغالب والله أعلم اعتقلوه خطأ ، لأن الولد وأباه ليست لهما علاقة بالسياسة بتاتاً من قريب أو بعيد .!!

أجاب الصول عبد الرحيم :

ـــ كان على عينى والله العظيم .. لكن الأمر خطير . لا أستطيع أن أعد بشىء .

أحسست أن الأمر جد خطير ، وأن القضية تبدو معقدة كل يوم أكثر مما قبله . بدأ الخوف يساورنى . الأمل فى عودة إبراهيم ـــ حتى لو كان بريئاً ـــ ليس سهلا . لاحظ الأستاذ حامد أن الحلم الذى دخلت به ، سوف أخرج وهو موءود فى صدرى . قال حتى يهون الأمر ، وينهى المقابلة :

— عشمنا فيك كبير يا حضرة الصول .

— المسألة ليست فى يدى .. وأنا عبد المأمور .

— يا رجل لا تقل هذا .. أنت رجلنا عند الحكومة .

هكذا قال عطية محمساً قريبه .

— على كل أعطونى مهلة وربنا يسهل الأمور .

انتهت الفترة التى طلب المستشار عاطف إسلام أن أمهله إياها . بدأت أحس أنه يتهرب منى . لِم يفعل ذلك .. وبيننا عشرة ومعرفة قديمة ؟ كما أن ابنه عصام ، صديق وزميل لابنى ، وهو يعرف إبراهيم حق المعرفة ، بل صرح ذات مرة أنه يتمنى أن يكون ابنه مثل ابنى .. فى الجد والاستقامة والتفوق . قابلته صدفة ، وهو يخرج من باب حجرته ، فقلت لنفسى أبعد أنا عن طريقه ، حتى لا أحرجه ، لكنه نادانى قائلا :

— لم تعد تزورنا منذ مدة طويلة يا رجل . سوف أنتظرك حتى نشرب الشاى معا بعد المغرب . ثم استدرك قائلا : وإن استطاعت أم إبراهيم أن تحضر معك ، فسوف تسعد برؤيتها أم عصام ، لأنها لم ترها منذ مدة طويلة .

اخضر الأمل فى صدرى بعد أن جف . الغريق حين يصادف قشة ، يظن أنها يمكن أن تكون قارب النجاة . ذكرت كافة الإغراءات الممكنة ، حتى أقنع أم إبراهيم بأهمية الزيارة ، والآمال المعقودة عليها . رفضت فى البداية بحجة أنها أم جريحة ، ومن أراد مواساتها فليحضر إليها .. هذه هى الأصول يا أبو إبراهيم . كلام زوجتى صحيح .. وهى على حق ، لكن اليائس يبحث عن أى ثقب من رجاء .. مهما كانت الوسيلة ، التى توصل إليه .

تفاءلت حين وجدت المستشار نفسه هو الذى فتح لنا — أنا وزوجتى وابنتى زينب — الباب . بعد الترحيب التقليدى ، صحبنى من يدى قائلا :

— دع الحريم لأحاديثهن الخاصة ، وتعال معى إلى حجرة المكتب .

الحجرة نظيفة ومنسقة ، بطريقة تدل على ذوق فنى رفيع . المكتبة دولاب صغير ــ فيما يبدو ــ لحفظ القضايا والأوراق الرسمية . رغم تشتت فكرى وتمزق قلبى ، لم أكن قادراً على إبعاد الرغبة فى المقارنة بين حجرة المستشار وقاعة الصول . الفرق بين الأغنياء والفقراء كبير .. وبعيد جداً ، مثل الفرق بين الأحياء والموتى ، أو بين السماء والأرض . الفقراء ميتون فى الأرض .. تلك هى القضية . الفقراء معذبون فى كل زمان .. وفى كل مكان .. وفى ظل أية أيديولوجية .

قلت حتى أقطع حالة التحفظ ، التى بدا عليها المستشار بحكم المهنة :

ــ هل وصلت إلى شىء يا سيادة المستشار ؟

ــ نعم ..

قالها ، وهو يحكم ربط الروب حول وسطه .

ــ خيراً .. قل ، حتى أطمئن . قلبى يحدثنى أن الأخبار الطيبة ، لا تأتى إلا من رجل فاضل مثلك .

ــ لا تبالغ يا رجل .. وحاول أن تفهم جيداً ما أقول لك ، حتى لا تتعب نفسك .

قلت وأنا أبلع ريقى :

ــ أرحنى .. أراحك الله . هل يريد عاقل أن يتعب نفسه ؟..

ــ إذن نحن متفقون من البداية .

ــ إن شاء الله .. إن شاء الله متفقون يا سعادة البيه .

تكلم الرجل ، وهو يتحاشى النظر إلى عينى :

ــ ابنك يا أحمد أفندى معتقل فى قضية سياسية .

صحت كالملدوغ :

ــ لا .. مستحيل .. يا سيادة المستشار .

ــ وهل أكذب عليك يا أخى ؟..

تعمد أن ينطق كلمة (أخى) بهدوء ، حتى يشعرنى بقدر من الثقة والمودة .

ـــ لا لست أقصد هذا .

ـــ من الأفضل أن تسمع كلامى كله ، ثم بعد ذلك قل ما شئت .. وسوف أسمع ما تريد قوله .

ـــ تفضل أطال الله عمرك .

بدأ الرجل يتكلم دون أن يبدى درجة من درجات الانفعال رغم خطورة ما يقول ، بالنسبة لى على الأقل :

ـــ لقد سألت أكثر من جهة .. وأكثر من مصدر .. فى وزارة العدل والداخلية والمحافظة وقسم الشرطة . الجميع متفقون على أن المعتقلين جميعهم متهمون فى قضايا سياسية ، ومتورطون مع جماعات منحرفة . الذين قبضوا عليهم من ضباط وزارة الداخلية ، أو الذين أصدروا أمراً بالقبض عليهم من مستشارى وزارة العدل ، لا يعرفون شيئاً محدداً ، لأن القضية قضية أمن دولة .. كما توقعت فى البداية . هل تذكر ؟

ـــ نعم يا سيادة المستشار .

ـــ الذى اكتشف المؤامرة ، ليس جهاز الأمن العام ، وإنما أمن رئاسة الجمهورية .

ـــ الثورة استقرت .. ورئيس الجمهورية فى أمان والحمد لله .. فكيف تحدث إذن مؤامرة سياسية ؟

ـــ هذا شىء لا أعلم أنا أو أنت عنه شيئاً .. نحن فى دولة أجهزة ومؤسسات ، وكل إدارة تعمل بشكل مستقل تماماً .

قلت فى ضعف وانكسار :

ـــ نحن رجال قانون .. ألا يجوز أن نعترض .. أو نقدم التماساً .. أو نوكل محامياً .؟!

قال فى ثقة :

— كل هذا غير ممكن .. وإن أمكن — وهذا فرض مستحيل .. فلن تكون له أى فائدة .

— أين القانون .. والدستور .. والحرية .. وشعار .. ارفع رأسك يا أخى .. و .. كلنا سيد فى ظل النظام الجمهورى .؟!

— أنت رجل قانون ، لا تجعل الغضب ينسيك حدود وظيفتك ، يا أمين سر محكمة الاستئناف .

— أنا أعرف القانون جيداً .. وسوف أدافع عن ابنى باسم القانون ، الذى عملت فى ظله طول عمرى .

— ومن أنبأك أن القضية سوف تعرض أمام القضاء المدنى ؟!

أسقط فى يدى .. وارتج علىّ . دار رأسى ، حين بدأت أعى أن القضاء العسكرى هو الذى يمكن أن ينظر القضية . الأمر ليس سهلا — كما ظننت فى البداية . لكنهم لو جاءوا بألف دليل ودليل ، ما ساورنى شك .. أى شك فى براءة ابنى . لاحظ الرجل حزنى وقلقى ، فربت على كتفى قائلا :

— كن رجلا مؤمناً .. واصبر فإن الله مع الصابرين .

لم أيأس — رغم صراحة الرجل ووضوح رأيه ، فقلت :

— ألا يمكن فقط أن نعرف مكانه ؟

— لماذا ؟

— حتى أزوره أنا وأمه .. التى كادت تموت حزناً .

— يبدو أنك لم تفهم كلامى يا أخى .

— لماذا يا أستاذ عاطف ؟

— أقول لك قضية أمن دولة .. ومؤامرة على رئيس الجمهورية .. وقضاء عسكرى .. ومعتقلات نفى — لا يعرف عنها أحد شيئاً ، فتقول

أزوره .. كيف ؟

ــ أليس حقا قانونياً ؟!

ــ فى أمور القضاء المدنى فقط . وأظنك تعلم جيداً .. ؟

ــ ماذا تقصد ؟

ــ السجون المدنية تابعة لوزارة الداخلية ، وليس لوزارة العدل . ورجال القانون أنفسهم يعرفون أن هناك تجاوزات رهيبة ، تتم داخل السجون والمعتقلات ، لذلك يمكن أن يخرج البرىء منها مجرماً محترفاً .

ــ كيف يا سيادة المستشار ؟

ــ السجن باعتباره مؤسسة عقابية ، لن يكون دار تهذيب وإصلاح كما تزعم ، إلا إذا انتقلت إدارة السجون والمعتقلات إلى وزارة العدل ، فهى الجهة الوحيدة التى من حقها أن تفرض العقاب .. وأن تشرف على تنفيذه ، لأن الأوضاع الحالية فى السجون المصرية لا تبشر بخير ، لأن المسجون يدخل بعقوبة صغيرة ، وبعد الإفراج عنه يعود إلى السجن مرة أخرى بجريمة أكبر وأخطر من الجريمة الأولى . السبب فى هذا أنه تعلم حرفة الإجرام على أيدى عتاة المجرمين داخل السجن ، الذى ينبغى أن يقومه ، ويعيده إلى المجتمع مواطناً صالحاً .

لم أشغل نفسى كثيراً بخطورة رأى سيادة المستشار ، الذى بدا مثل محام متمرس ، يريد أن ينتصر فى قضية صعبة . حماسته لما يدعو إليه عالية الدرجة . كلما ارتفع صوته حاول أن يهدئه . لم أعد قادراً على متابعة كلام الرجل ، لكننى لم أجرؤ على مقاطعته .. فهو رئيسى فى العمل ، وأنا ضيف فى داره . أغراه سكوتى بمواصلة الكلام :

ــ بعد سنوات قليلة يا أحمد أفندى سوف أخرج إلى المعاش ، سأتفرغ لكتابة مذكراتى الخاصة ، وأوضح رأيى فى هذه القضية الخطيرة .

ــ كيف ؟

— تعلم أن رجال القضاء مثلى ، محرومون من مزاولة النشاط السياسى أو الكتابة فى الصحافة ، لذلك سوف أوضح — بالتفصيل فى مذكراتى الشخصية — التجاوزات التى تحدث للسجناء ، وكيفية تعرضهم للكثير من أشكال القهر والتعذيب والعقاب البدنى والنفسى ، بالإضافة إلى وجود نوع من التميز فى المعاملة — أحياناً — طبقاً لمكانتهم الاجتماعية أو قوتهم الجسدية . كما أن السجون لا تفرق بين المسجونين حسب سوابقهم الإجرامية ومدد أحكامهم الزمنية . هل تفهم ما أقول يا أحمد أفندى ؟

أيقظنى من شطحاتى ، فقلت دون تفكير :

— الحمد لله .. ربنا قادر على كل شيء .

— أنت معى إذن فى أن إدارة السجون ، يجب أن تكون فى إطار مسئولية وزارة العدل ، حتى يتم تطبيق الإجراءات الجنائية بشكل يحافظ على إنسانية السجين ، ويتحول السجن من معمل لتنشئة الجريمة إلى مقر لإعادة إصلاح مواطن منحرف .!!

الذى يده فى الماء ليس مثل الذى يده فى النار . لم أستطع فهم المغزى ، الذى يقصده الرجل . جئت إليه فى أمر محدد .. هو مشكلة اعتقال ابنى ، فإذا به يحدثنى عن السجون .. وما يحدث فيها من انحرافات ، وأن إدارتها يجب أن تكون لوزارة العدل . هل أراد أن يصرفنى عن التفكير فى أمر إبراهيم .. أم إنه رغب فى أن يحول بينى وبين التفكير فى أى أمر يتصل بالسجن أو المعتقل ؟ بالطبع ابنى ليس سجيناً مجرماً .. لكنه معتقل سياسى له حقوقه ، التى كفلها القانون .. إذن ماذا يقصد سيادة المستشار من حديثه هذا ؟ لا شك أنه أراد أن يدارى خيبته ، لأنه عجز عن مساعدتى ، وإيجاد حل لمشكلة ابنى أو معرفة مكانه ، فاخترع هذه القضية ، لكى أنسى الأصل وأنشغل معه بالفرع . لا يا سيادة المستشار ، إذا كنت رجلا وطنياً بحق ، فلم لا تدافع عن حقوق الناس المهدرة فى المجتمع ، قبل

أن تبحث عن حقوقهم الضائعة فى السجن ؟! لكن أليست الحياة سجناً كبيراً ، والوطن الذى يظلم أبناءه فى المجتمع ، يظلمهم كذلك فى السجون ؟! سامحك الله يا سيادة المستشار .. لم أكن مستريحاً حتى تتعبنى . جئتك مهموماً فزدت همومى .. صحيح الغلبان لا يشبع من الغلب .!!

ثمة شجرة عتيقة فى مدخل الحارة . كثير من المشاهد التى نراها يومياً ، لا نلتفت إليها بالقدر الكافى . تلك الشجرة منذ سنوات بعيدة ، كانت تطرح توتاً أحمر . أطفال الحارة يحبون التوت ، لذلك يحبون هذه الشجرة . أما الشباب فهى الركن الذى يجمعهم ، ويقفون بجوارها بالساعات ، يتكلمون ويضحكون أو ينتظرون حبيبة القلب ، التى قد تمر قصداً أو صدفة . هذه الشجرة عزيزة على كل سكان حارة الفكهانى ، فقد صارت أحد معالم الحارة ، بل إنها أحد سكانها . مضت مدة لا أدرى مداها لم ألتفت بالقدر الكافى إلى ما حدث للشجرة . الفروع قصرت وانحنت ، والأوراق تساقطت ، لم تعد الشجرة تثمر توتاً أحمر . اللحاء تجمد مثل جلد العجوز . لم أدر أن الأشجار يمكن أن تسقط واقفة ، إلا بعد أن رأيت الشجرة اليوم عند عودتى خائباً من زيارة أحد المسئولين فى المحافظة .

مضى ما يقرب من أسبوعين على اعتقال العزيز الغالى ، طرقت فيها أبواب كل من أعرف من قريب أو بعيد .. لكن لا فائدة ، لا أحد يعرف شيئاً .. ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً . الذى حزّ فى نفسى مؤخراً أن بعض المعارف صاروا يتحاشوننى ويبتعدون عنى ، كأنى خارج على القانون . صدقوا أن إبراهيم متهم سياسياً ، وبالتالى فإن أباه وبيته تحت مراقبة رجال الأمن ، لذلك ينبغى أن يبتعدوا عن الشبهات . يا ناس حتى لو كان ابنى معتقلا سياسياً ، ألم يعمل بالسياسة من أجلكم ؟ فلم إذن تبتعدون عنى ؟! نحن فى زمن ردىء .. البرىء فيه متهم ، والمتهم برىء .. بفضل الثورة المباركة وضباطها الأحرار ..!!

فتحت زينب الباب . أم إبراهيم بدأت تغير بعض عاداتها . كانت حريصة على

أن تكون ــ دائماً ــ هى التى تفتح الباب . السعادة تبدو واضحة على محياها حين ترى رجلها عائداً إلى البيت ، وهو يحمل بعض لوازم المعيشة ، فتأخذ منه ما يحمل ، وتذهب به إلى المطبخ ، وهى تدعو له بسعة الرزق وطول العمر .

ــ أين ماما يا زينب ؟

ــ فى السرير .. تعبانة يا بابا .

دخلت عليها مسرعاً ، فوجدتها راقدة والشحوب باد على وجهها . أمسكت يدها فى شفقة :

ــ خيراً يا أم إبراهيم .. أحضر لك طبيباً ؟

ــ لا تشغل نفسك بى يا سى أحمد أفندى ، يكفى ما أنت فيه . هل هناك أخبار جديدة .

ــ ربنا موجود .. يشفيك .. ويرجعه بالسلامة .

صار الهم الواحد همّين . أم إبراهيم أصيبت بمرض ضغط الدم بسبب التفكير والحزن . هكذا أخبرنى الطبيب بينى وبينه . أين كان هذا كله مخبأ لى يا رب ؟! كنا أسرة سعيدة متفائلة ، نعيش فى أمان وسلام . فجأة تحول الحلم الجميل إلى كابوس مرعب . يا ربى .. ورب كل المستضعفين ، أسألك من فضلك العظيم ، وعلمك العميم ، أن تحول بينى وبين شياطين الإنس والجان ، وأن تحمينا من شرور هذا الزمان . دارت هذه الخواطر المتضاربة فى خيالى المشتت ، عندما ذهبت لإحضار الدواء من الصيدلية ، لكننى وجدتها مغلقة . فى أثناء العودة إلى البيت وقفت فى ظل الشجرة العتيقة ــ شجرة التوت .. التى لم تعد تثمر توتة ــ أفرغ عينى من الدموع ، حتى لا أبكى أمام زوجتى وابنتى فأزيد النار اشتعالا .!!

❊❊ ❊❊ ❊❊

٤ ـــ متهمون تحت الطلب

نزلت من عربة الشرطة معصوب العينين ، يمسك بى شرطى من اليمين وآخر من الشمال. مشيت متهالكاً حزيناً ، ثم صعدت حوالى ثلاثين درجة على سلم رخامى .. وبعد أن مشيت قليلا ، قذف بى الشرطيان إلى حجرة واسعة . حين رفعوا العصابة عن وجهى ، حاولت ـــ بصعوبة ـــ أن أعرف أين أنا .. ومن هم الذين أحتجز معهم . لم أكن قادراً على الرؤية بسبب تأثير العصابة السوداء ، التى ربطوها على عينى ، وبسبب شدة التعب والحزن ، وجو الرعب الذى عشته منذ جاءوا للقبض على . حجرة الحجز ضيقة ، والمحتجزون مجموعة كبيرة من الرجال والشباب ، البعض يلبس ملابس أفرنجية : بدلة كاملة أو قميص وبنطلون .. أو الزى الأزهرى والعمامة .. أو الجلباب البلدى .. بعضهم له لحية ، وبعضهم ـــ مثلى ـــ دون لحية أو شارب . الرجال كبار السن أظهروا قدراً من الثبات والتحمل ، و لم يهتزوا كثيراً لما حدث ويحدث . أما الشباب ـــ أمثالى وعددهم أقل من الكبار ـــ فكانوا أضعف مقاومة وأكثر سخطاً وخوفاً ، لأنهم اعتقلوا لأول مرة فى حياتهم . أين نحن محتجزون الآن ..؟! ليس هذا قسم شرطة المنصورة . هل ثمة واحد من الموجودين يمكن أن تكون لديه إجابة لهذا السؤال ، أم أنهم مثلى جاءوا معصوبى العيون مشتتى الأفكار ؟! بعد مدة أدركت أنه لا فائدة من البحث عن إجابة . الحبس حبس حتى لو كان فى جنة ، وعلى هذا يستوى أن يكون فى المنصورة .. أو فى العاصمة أو فى القلعة .. أو فى قلب الصحراء . نحن فى شهر سبتمبر ، وفصل الخريف أجمل الفصول مناخاً فى مصر ، لكن الجو حار خانق . حجرة الحبس مكان ضيق ، حشروا فيه ما يزيد على ستين شخصاً .

رائحة العرق تزكم الأنوف . بعض الحشرات مثل الناموس والبق والصراصير والبراغيث ، بدأت تزاحمنا الموقع ، وتساعد رجال الشرطة فى الاعتداء على آدميتنا . سعيد الحظ فى هذا المكان القذر من يجد لنفسه مسافة قدم ، ليجلس فيها ، أو ينام قاعداً إن استطاع . جو الرعب والتعب والحر والقذارة ، لم يساعد أيا من المحتجزين على أن يقيم حواراً مع الآخر . أكثر من هذا مرارة أننى شخصياً كنت أظن — فى البداية — أن كل من يتودد إلّى .. ويرغب فى الحديث معى ، ليس إلا مخبراً متنكراً ، يريد أن يستدرجنى فى الكلام ، ويأخذ منى اعترافاً بأنى مذنب ؟! أى ذنب يريدون أن أعترف به ؟ لست أدرى — حتى الآن على الأقل . بعد فترة وأخرى ينادى شرطى بصوت رعدى على واحد أو أكثر من الموجودين لإجراء تحقيق معهم . توهمتُ — فى بداية الأمر — أن من يُنادى عليه ، محظوظ ، لأنهم سوف يخلون سبيل الأبرياء — مثلى — بعد إجراء تحقيق شكلى معهم . لكنى اكتشفت أن من يذهب يعود — رغم عدم تساوى الفترة الزمنية ، التى يقضيها كل منهم عند المحقق . بينما أنا قاعد مرهق حزين مشتت الفكر ، أخذتنى سِنة من النوم .. أو هكذا هيئ لى ، رأيت فيما يرى النائم أنى أمشى — بصعوبة — فى طريق ملئ بالطين والأوحال والأشواك . كلما حاولت أن أبتعد زلت قدماى فى الطين . بعد فترة عجزت عن المقاومة ، وبركت فى الطين . توسخت ملابسى وأعضاء جسمى كلها . حاولت أن أصيح .. أو أن أنادى على أحد ، لكن صوتى كان حبيسا ولسانى عاجزاً . بدت أمى — مثل شجرة ذات ظل وماء .. فى صحراء حارقة . كنت أراها .. ولا ترانى ، وأنادى عليها وتنادى على .. لكن لم يسمع أحد منا الآخر .!!

أفقت من الكابوس على صوت خوار ثور ، يصيح :

— التعيين يا بقر .. اسمع يا شقى منك له .. كل واحد رغيف وقطعة جبن . الماء موجود فى الجردل . الشرب بحساب يا بنى آدمين ، حتى تشربوا جميعاً ..

مفهووووم ..!!

لم أكن مشغولا بما قال الشرطى ، وإنما مهموماً بما رأيت فى المنام . تذكرت أهلى .. وتألمت كثيراً لما حدث . أسرة فقيرة وضعت كل آمالها فى مستقبلى المشرق . لم تكن قد تبقت سوى سنة واحدة .. وأعين معيداً ، ثم أستاذاً فى الجامعة . وها هى الأيام السوداء تعصف بكل الأحلام الجميلة ، وتضع أنفى فى الطين ، وتصمنى بتهم حارقة . يكفيهم ذلا أن يقال :هذا أبو السجين .. وهذه أم المتهم .. وتلك أخت المقبوض عليه . E. A. SHIRIF ، الذى كان يحلم بأن يكون مثل ريتشاردز أو إليوت ، صار هشيماً تدوسه النعال الغليظة . رجل كبير فى السن — لم يكن يبدو عليه أى أثر للاعتقال أو سوء المكان ، يشع وجهه رضا وثقة — صاح بنبرات هادئة :

— انتظروا حتى نرى التعيين ونقسمه بالعدل .

كذلك طلب منا أن نقف فى طوابير ، حتى يعرف العدد ، وأمر بأن يحفظ كل منا رقمه وترتيبه ، لأننا فيما بيننا سنتعامل بهذا الرقم إلى أن يفرجها الله ، وفرج الله دائماً قريب من عباده المؤمنين . صرت رقم (٣٧) .. من مجموع المحتجزين وعددهم (٥٦) شخصاً . كان الرجل على صواب بالفعل ، فعدد الأرغفة (٥٣) .. وغير صالحة للاستعمال الآدمى ، فالرغيف كتلة من عجين أسمر ، غير تامة النضج ، والردة تشوه منظره من فوق ومن تحت . أما الجبن الذى تحدث عنه ثور الشرطة ، فهو قطعة لا تزيد بأية حال عن نصف كيلو ، وهى أقرب إلى الجبن القريش ، ذات رائحة نفاذة . الجوع كافر .. بدأ كثير من المحتجزين يبتلعون طعامهم فى أقل من لمح البصر ، فقد مضى على بعضهم يومان دون طعام . أما الماء فكان عكراً فيه تراب .. وقش .. والجردل صدئ .. والكوز الذى نشرب به ، كان فى الأصل حق سلمون . ليس المخيف فيه الصدأ .. وإنما أطرافه الحادة .. فقد يجرح يد أو فم من يمسكه ، إذا لم ينتبه إلى طريقة حذرة فى

التعامل معه . أفتى واحد من الذين سبق اعتقالهم أن أفضل طريقة للشرب من الكوز الأثرى ، هى أن تمسكه من المنتصف بيدك اليمنى — اليمين هو الخير كله .. اللّٰهم اجعلنا من أهل اليمين ، وأن تحركه بهدوء فى الجردل ، حتى لا تحمل شيئاً من العكارة مع الماء . بعد ذلك ترفعه إلى أعلى مستوى أنفك ، وتصب الماء من بعيد فى فمك ، حتى لا تجرح شفتيك . سرت بيننا إشاعة أطلقها الثور حارس الباب ، أنهم سوف يرحلوننا — قريباً — إلى مكان آخر . متى تكون (قريباً) هذه لا أحد يدرى . أين نحن ، وإلى أى مكان سوف نرحل ؟ علم ذلك عند سادتنا فى الأمن والمباحث . الذى حيرنى أن هناك قلة قليلة جداً — حوالى ستة أشخاص وأنا — لم يتم التحقيق معهم مثل بقية الزملاء . قال واحد من الذين سبق اعتقالهم أكثر من مرة :

— سواء حققوا معك أم لم يحققوا .. وسواء أتم التحقيق هنا أو هناك ، فالنتيجة واحدة .

قلت مندهشاً :

— ما هى ؟!

— أنك معتقل .. أو متهم ، حسب ما يرى سادتنا فى المباحث .

— لكن القانون .. الدستور .. حرية المواطن .

— هذا كلام جميل ، تقرأ عنه فى كتب الفكر والأدب .. لكن القول شىء .. والواقع شىء آخر مختلف تماماً ، مثل الفرق بين التين والطين .

سكت مذعوراً من سواد الحقيقة وسوء الدلالة . اقترب منى قليلا ، ووضع يده على كتفى ، سائلا :

— أول مرة تعتقل يا بنى ؟

— نعم .. و لم أفعل أى شىء فى حياتى سوى أنى طالب مجتهد .. وفى قسم الامتياز .

ــ لا تحزن يا بنى .. لست وحدك المتهم البرىء . فى فترات الظلم يكون الشعب كله متهماً تحت الطلب . عيون الحاكم والحكومة لهم حساباتهم الخاصة جداً . الحكومة والمباحث .. لا يهمهم إلا مصالحهم الخاصة . كل فئة تريد أن تأخذ قطعة أكبر من التورتة ، والشعب .. الناس الأبرياء دائماً هم الضحية .. هم الذين يدفعون الثمن .!! لكن الله منتقم جبار .. يمهل .. ولا يهمل يا بنى .!!

فى الظلام .. مثلما قبضوا علينا ، رحلونا إلى سجن ، لا أعرف له مكاناً على الخارطة . خرجنا معصوبى الأعين مثل عتاة المجرمين ، وألقوا بنا فى ناقلات سيئة ، لا تصلح إلا لنقل الروث والسماد البلدى . صندوق السيارة مشروخ من كل الاتجاهات ، لا يحمى من حر فى النهار أو برد فى الليل . وضعونا مثل الجماد الميت .. لا أكل .. لا شرب . أكثر من هذا .. ممنوع أن يقضى الإنسان حاجته ، ومن كان محصوراً فعليه أن يتصرف ..يتصرف كيف ؟ قد يصبر الإنسان على العرى والجوع والعطش والوساخة .. لكن كيف يصبر على قضاء الحاجة ؟! ثلاثون آدميا محتجزون فى صندوق خشبى .. ومحرومون من مزاولة أى حق من حقوق الكائنات الحية ، حتى حق قضاء الحاجة . مصر يا بلدنا .. ما ذنبنا ، حتى نعامل هذه المعاملة غير الإنسانية . يا مصر متى يستريح أبناؤك .. ويعاملون على أنهم أناس من لحم ودم ؟! داهمنى سؤال ملح : هل كان شعبنا يعامل هذه المعاملة فى عهد الاستعمار ؟!

أخيراً وصلنا إلى المعتقل .. سجن قديم ، لا يعرف أحد هل هو فى سيناء .. أم فى الواحات .. أم فى وادى النطرون .. أم فى الصعيد ؟! بعض الزملاء ذوو الخبرة .. رجحوا أنه سجن الواحات . فى صباح ذات يوم ــ بعد أن وصلنا بعدة أيام ــ جمعونا فى فناء المعتقل . العدد يبلغ عدة مئات .. لا .. عدة آلاف . كم على وجه التحديد ؟ لست أدرى .. لكنه عدد كبير ..كبير جداً . يبدو أنهم لم يتركوا بيتاً أو على الأقل عائلة دون أن يعتقلوا منها فرداً . معنى هذا أن مصر كلها

حاضرة ، مصر اليمين .. مصر اليسار ، مصر المسلمين .. مصر المسيحيين ، مصر الرجال .. مصر الشباب ، مصر الشمال .. مصر الجنوب ، مصر الشرق . مصر الغرب . الكل .. كل المصريين ممثلون هنا . تلك أهم خصائص مصر .. الوحدة والتجمع خاصة عند الأزمات والكوارث . مضت أكثر من ساعتين ، حتى استطاعوا أن يشكلوا من جميع المعتقلين مربعاً ناقص ضلع . بدأت الشمس تشرق حارقة . شيئاً فشيئاً أخذ الحر يهجم بوحشية . بدأ بعض كبار السن يقعون إعياء . لم يلتفت إلى الواقعين أحد من الحراس . ركل حارس أحد المغمى عليهم قائلا :

ـــ يا أولاد الكلب .. تدعون البطولة فى الخارج ، ونكتشف هنا .. أنكم أرانب .!!

بعد فترة ـــ لا أعرف مداها ـــ حضر مأمور السجن مزهواً على فرس أدهم . أخذ يستعرض الصفوف ، وهو يمسك لجام فرسه مثل الكاو ـــ بوى الأمريكى American Cow Boy . أخيراً استقر فوق منصة بفرسه فى مكان ظليل ، وأمسك مكبر صوت :

ـــ اسمع يا شقى منك له . نحن فى معتقل .. بالطبع تعرفون الفارق بين السجن والمعتقل . السجن للمجرمين ، لكن المعتقل مجرد موقع ، يحتجز فيه أصحاب الفكر السياسى المنحرف ، أو الذين يسبحون ضد تيار الحكومة .. أو الذين يدبرون مؤامرات لاغتيال أحد المسئولين . سوف تجدون ـــ هنا ـــ معاملة كريمة ، وأظنكم قد لاحظتم هذا فى اليومين ، اللذين قضيتموهما معنا . كل شىء هنا يسير بالقانون والنظام ، فنفذوا الأوامر حتى لا ...

سقط فى تلك اللحظة واحد من المعتقلين قريباً من حصان سيادة المأمور . أمر بحركة درامية أن ينقل إلى عيادة الطبيب . هناك أكثر من واحد حدث لهم ما حدث لهذا الرجل ، غير أنهم كانوا داخل الصفوف ، ولم يجرؤ أحد على أن

ينطق حرفاً . اشتدت درجة الحرارة وازداد الإعياء ، لكن سيادة المأمور لم يكن قد انتهى من إلقاء خطبته :

— حتى تعلموا حقا أننا فى عصر الحرية ، يجب أن تعرفوا أن جريمتكم بشعة حقيرة . لكن المسئولين طلبوا أن نحقق معكم ، لذلك فمن لم يحقق معه سوف يأتى عليه الدور (ارتفع صوته فجأة) : يا كلاب لقد اشتركتم فى مؤامرة لقلب نظام الحكم .. واغتيال سيادة الريس . سنكون أحسن منكم وأفضل خلقاً ، لأننا لا نقتل أحداً .. ولن نفكر فى قتل أحد . القانون سوف يأخذ مجراه بعد التحقيق مع كل واحد منكم . أرجو أن يكون ما قلته واضحاً . أنتم رجال مثقفون ، فلا تضطرونا إلى أن نعاملكم بما نعامل به الجاهلين والمجرمين .

مضى سريعاً بحصانه الأدهم .. ثم سمعنا صاحب الرتبة التالية فى قيادة المعتقل ، يقول بصوت عال :

— ضباط .. جنود .. استعدوا .. تحية سعادة البيه المأمور لضيوفنا الأعزاء .. ضباط .. جنود .. استعدوا ..

ما كاد ينهى كلامه حتى بدأ رجال الشرطة — راكبو الخيول والمشاة ، الذين يحملون العصى أو الكرابيج أو البنادق — حفل التكريم . الضرب فى كل مكان .. ومن كل اتجاه .. وفى أى مكان من الجسد . المعتقلون يجرون رغم التعب والألم ، ورجال الشرطة يتعقبونهم ضرباً بالعصى والكرابيج والبنادق أو رجماً بالطوب والزلط . سقط منا عدد أكثر من الذين استطاعوا الصمود والتحمل . ازدادت حفاوة التكريم . كانت تحية سعادة المأمور أعظم تحية رأيتها فى حياتى ، بل أكاد أشك أننى لم أقرأ عن مثيل لها فى كتب التاريخ أو الأدب . أين ما قاله سيادة المأمور المبجل : « القانون سوف يأخذ مجراه بعد التحقيق مع كل واحد منكم . أرجو أن يكون واضحا ما قلته .. أنتم رجال مثقفون فلا تضطرونا إلى أن نعاملكم بما نعامل به الجاهلين والمجرمين » .!! أين القانون الذى سيأخذ مجراه

يا سيادة المأمور .. وإذا كان هذا ما تعاملون به المثقفين ، فماذا تفعلون مع العامة والمجرمين يا رجال الشرطة ، يا إخوتنا فى الوطن والهم ..؟!

عند الظهيرة — أو قبلها .. أو بعدها .. فلم أعد أعى قدر الزمان بالساعات أو الأيام — تعب السادة الحراس من الجرى والضرب والغبار والحر ، فقرروا أن يستريحوا ، وتركوا الحيوانات الضالة مهملة فى فناء المعسكر : منهم من سقط مغشيا عليه ، ومنهم من احتمى من الحر بأن وضع وجهه فى التراب ، ومنهم من عشيت عيناه من الغبار والحر ، ومنهم من أخذ يبكى .. ومن أخذ يصرخ .. ومن ظل يناجى الله ، ومن أخذ يقول بصوت مجروح :

ولستُ أبالى حينَ أقتلُ مُسلماً   على أى جنبٍ ، كان فى اللهِ مصرعى

لم أكن أعلم — على وجه اليقين — الفروق الدقيقة بين « الإخوان المسلمين » و « الرفاق الشيوعيين » إلا بعد أن عرفت مكان تحديد إقامتى فى أحد غرف السجن . الغرفة مستطيلة الشكل ضيقة المساحة ، طولها حوالى خمسة أمتار ، وعرضها أقل من أربعة ، وارتفاعها قد يصل إلى ستة . فى كل جانب منها خمسة أسرة فوق بعضها . ثمة طرقة ضيقة فى الوسط ، يوجد فيها دلوان : واحد للبول .. والثانى به ماء للشرب ، لا تقبل الحمير فى الظروف العادية أن تضع أفواهها فيه . فى الوسط باب حديدى خشبى مبطن بطبقة من الصاج الزئبقى علاه الصدأ ، وقد ثبت بمسامير مختلفة الحجم ، قبيل نهاية النصف الأعلى من الباب ثمة فتحة ، فيها أربعة عواميد — تسمح بدخول الهواء ، وسماع همس الموجودين فى الداخل . صعب أن تحدد للجدران لوناً فى أى من الغرف أو العنابر ، وإن كان اللون الغالب هو الرمادى الباهت . على الجدران شروخ كثيرة ، تراءت لى — فى بعض ليالى الأرق والقلق والغم العظيم — حيات مرعبة . فى بعض الأركان تجد اسم مسجون سابق .. أو الحرف الأول من اسمه محفوراً بالحروف العربية أو اللاتينية وبجواره سنة اعتقاله . من الذى صمم هذا السجن المطبق !؟ قليلة هى

السجون التى يرجع عصورها إلى حكم المماليك مثل سجن القلعة .. لكن كل سجون مصر تقريباً ، شيدت فى عصر محمد على . هذا الرجل كان داهية .. لم يغب عنه شيء صغير أو كبير ، فقد بنى المدارس ، ومعسكرات الجيش ، وأقسام الشرطة ، والقناطر ، والسدود ، وشق الترع والأنهار ، وعبّد الطرق ، وخطط السكك الحديدية ، كما بنى القصور ، والحصون ، والمستشفيات ، والحدائق العامة ، والمصانع .. وأخيراً لم يفته أن يبنى السجون بجوار القناطر الخيرية وفى طرة وأبو زعبل والفيوم والواحات وسيناء وبعض محافظات الصعيد . رحم الله هذا الداهية العظيم .. فقد تعلمت فى المدرسة الثانوية العريقة ، التى أسسها فى مدينة المنصورة .. وها أنا ذا أقيم فى مكان آخر يعود له الفضل فى تشييده ، وهو سجن الواحات ...!!

لم أكن أعرف الفروق الفكرية بين الإخوان والشيوعيين .. بل لا يبدو أن إدارة السجن نفسها ، تعرف ذلك ، لأن الحجرة موجود فيها أولئك وهؤلاء ، وبعض آخر ، ليست لهم هوية عقائدية واضحة — فيما أعرف .

العشرة الذين جمعتهم غرفة السجن هم :

الشيخ عبد الله خضر .. واعظ وإمام مسجد دمياط ، وقد سبق أن التقيتُ به فى سجن القلعة . وهو رجل صالح ، متوسط الطول ، فى حوالى الثامنة والخمسين ، لذلك تنازل له جميع النزلاء طواعية عن سرير الدور الأول ، لأنه أكبرنا سناً . وقد سبق اعتقاله أكثر من مرة منذ سنة ١٩٤٩ بعد حادثة مقتل النقراشى ، وهو من رواد جماعة الإخوان المسلمين . رغم كبر سنه وامتلاء جسده النسبى .. فإنه كان صلب العود بعيد النظر ، يواسينا عند الآلام ، وينصحنا حين تشتد المواقف .. وقد أثر هذا الرجل الصالح على فكرى وحياتى ، ووجدت فيه مثيلا لأب مفتقد ، كما رأى فى صورة لمريد ، يبحث عن طريق .

الرجل الثانى : الأستاذ على شبكة ، مدرس لغة عربية من الإسماعيلية ، فى

الرابعة والخمسين من عمره تقريباً ، وهو من التلاميذ المباشرين للشهيد حسن البنا ، لذلك كان يفتخر بهذا دائما ويقول : « أنا من صحابة الأستاذ الإمام رضوان الله عليه » . وهو رجل نحيف الجسد ، حاد الطباع ، يلبس نظارة مقعرة ، لكنه رغم ضعف بصره كان مستنير البصيرة ، شديد التعصب ، لما يرى أو يريد .

الرجل الثالث : السعيد حجازى ، وهو من الإخوان أيضاً ، فى الخامسة والأربعين من عمره تقريباً ، صاحب محل بقالة فى قرية قريبة من مدينة دمنهور ، وهو إنسان طيب متدين .. متوسط القامة والضخامة ، معتدل الرأى ، بسيط الفكر ، وقد دخل الجماعة دون أن يعرف ـــ حتى لحظة اعتقاله ـــ شيئا عن فكرها السياسى ، وإنما من أجل تمسك أعضائها بشعائر الدين .

الرجل الرابع : محمد البدراوى .. من الإخوان المسلمين فى حوالى الثانية والأربعين ، يعمل مزارعا فى قرية قريبة من مدينة الزقازيق .. وهو مثل السعيد حجازى فى الطيبة والبساطة . وتتعجب كيف يمكن أن يكون أحدهما صاحب فكر سياسى أو أيديولوجية عقائدية ، بل أن يفكرا فى عمل مؤامرة أو انقلاب ؟! قلت فى نفسى : إن كثيرا مما يصدق على هذين الرجلين ، يصدق على أيضاً ، فمن يظن أننى مشارك ـــ ولو بالتضامن ـــ فى اغتيال السيد رئيس الجمهورية المبجل ؟!

خامس الإخوان : شوقى عبد الحميد ، الموظف بسنترال المنيا .. وهو شاب فى حوالى التاسعة والعشرين ، متوسط الذكاء ، شديد الحماسة لأية قضية ، تتصل بالسياسة . دراسته للاسلكى والألكترونيات جعلته عملياً فى تفكيره . تنقل وهو طالب بين فكر الوفد والشيوعية ، وانتهى به المطاف إلى الإخوان ، لأنها برأيه أقرب إلى واقعنا الحضارى . حين يدلى بفكرة صائبة فى أثناء النقاش ، يفتخر بنفسه قائلا : « أنا من ألمانيا الصعيد » .

النزيل السادس : صفوت حسنين .. موظف بإدارة زراعة بنى سويف . فى السابعة والثلاثين ، وهو شخص نحيل طيب ، يميل إلى الانطواء والعزلة . ضمه رجال المباحث إلى قائمة جماعة الإخوان ، بحجة أن اسمه مدوّن فى كشف ، وجد عند أحد زعماء الجماعة ، فقد تبرع ذات مرة بعشرة جنيهات لإصلاح مسجد . لكنهم رأوا أن هذه النقود ، جمعت لشراء أسلحة لاغتيال رئيس الجمهورية . وحين أخبروه بذلك ، عض أصبعه قائلا فى مسكنة :

ــ والله يا ناس .. أنا لا أجرؤ على ذبح أرنب .!! .

الرجل السابع : نبيل بولس حنا .. مسيحى شيوعى فى الخامسة والأربعين ، يعمل رساماً بمجلة « الجيل الجديد » . وهو رجل رقيق مثقف ممتلئ الجسد نسبياً ، أبرز جزء ضخم فى جسده هو الرقبة ، لدرجة يمكن أن تظن فيها ــ لو رأيته عن بعد ــ أن رأسه متصل بجسده مباشرة دون رقبة . لا يظهر فى تفكيره أو حديثه أى نوع من التعصب ، يبدو أنه دخل فى إطار المعسكر اليسارى من قبيل الوجاهة الثقافية .. أو التعاطف مع كثير من أصدقائه فى المجلة ، الذين ينتمون إلى بعض الجماعات الشيوعية .

الشيوعى الثانى فى الحجرة .. مدحت عبد البديع : وهو مدرس تاريخ من الإسكندرية ، عمره حوالى أربعين سنة أو دون ذلك بقليل . وهو فقير الأصل جداً ، لدرجة أ ه عمل جرسوناً فى مطعم شعبى فى أثناء دراسته ، حتى يستطيع أن يدفع مصاريف الجامعة ويشترى الكتب المطلوبة . وقد آمن ــ حينذاك ــ أن الشيوعية يمكن أن تعدل بين الفقراء والأغنياء ، وتوزع الثروة بالمساواة بين أبناء الوطن . كان ذلك فى أثناء وجوده بالجامعة ، لكنه حين عمل نسى ذلك تقريباً ، لكن اسمه ظل مدوناً فى دفاتر الأمن العام . حين قبضوا عليه قال فى أسى بالغ : « والله لقد ذكرونى بما نسيته .!! » بعد اعتقاله ازداد حدة فى مشاعره وفكره وحديثه ، وقال فى عناد مهدداً أكثر من مرة :

ـــ والله لن نتركهم يستريحون ، حتى ننشر راية الدولة الاشتراكية .. فى مصر كلها .

فرد عليه شوقى :

ـــ ليس من حقك أن تحلف بالله يا كافر .

ـــ الله .. ليس إلـٰه الإخوان المسلمين فقط لكنه رب الناس أجمعين يا أخ شوقى .

الرجل التاسع .. هو مجدى الأسيوطى : رجل وسيم فى حوالى الخامسة والأربعين تقريباً . يبدو غير واضح الانتماء ، فهو وفدى قديم ، وقد صادرت الثورة مصانع السكر ومنتجات الألبان ، التى كان يملكها فى محافظة أسيوط .

رغم ذلك لم يعادِ الثورة ، لكنه عادى السياسة كلها ، وتفرغ لتربية أولاده ولقاء أصدقائه القدامى من رجال الوفد ، الذين اعتبرهم الحكم الجديد « قوى مضادة للثورة » . وقد علق على هذا بسخرية قائلا :

ـــ نحن فى عصر حكم العسكر ، لكن لا أحد يعرف .. من العسكر .. ومن الحرامية فى مصر .؟!

النزيل العاشر فى الغرفة التاريخية هو أنا : وقد كنت أصغر الموجودين عمراً وأكثرهم فراغاً سياسياً ، لأنى لم أفكر فى يوم ما أن أعمل بالسياسة تحت ظل أى شعار ، ولم توجه إلى طوال فترة وجودى بالمعتقل تهمة سياسية محددة ، ولم يحققوا معى أبداً . حين تأملت هؤلاء المعتقلين العشرة وأنا منهم ، قلت لنفسى ساخراً : « صحيح ياما فى الحبس مظاليم !!. »

بعد أن خفتْ ـــ إلى حدٍ ما ـــ مراسيمُ حفلات الاستقبال ولقاءات مأمور السجن ، بدأت طوابير التعذيب الجماعى تقل . مرت أيام لم نخرج فيها من الحجرة ، فكنا نطالب بحقنا المشروع فى « طابور الشمس » . فى تلك الفترة كنت حين أفيق من آلام التعب الجسدى والتعذيب الجماعى ، أفكر فى أمر أهلى ،

وأعجب كيف استطاع أبى بالذات أن يصبر على فراقى ؟! وكيف لم يقدر على أن يأتى لزيارتى فى سجن القلعة أو معتقل الواحات ؟! اشتقت كثيراً إلى أمى الحبيبة ، التى لم تكن تصبر على بعدى أكثر من أسبوعين . الآن .. وقد مضى على اعتقالى ما يزيد على شهرين ، لا أستطيع أن أتخيل ماذا يمكن أن يكون قد حدث لها ..؟! وزنوبة المحبوبة ما حالها .. وماذا جرى لها .. وهل تقدر أن تواصل دراستها بنجاح فى أثناء بعدى عنها ، وعدم متابعتى لمذاكرتها .؟! سامحونى يا أهلى .. فأنا ضحية .. ضحية من .. أو ماذا .. لست أدرى . عجيب أن أكون حفيد بناة الأهرام ومؤسسى حضارة العالم ، ويحدث لى ما يجرى الآن ؟! ماذا أقول .. لست أدرى ماذا يمكن أن أقول .. أأقول إن مصر قد صارت غابة ، يفترس القوى فيها الضعيف ، ويمتص الغنى عظام الفقير ، ويعتدى الحاكم على المحكوم ، ويضطهد الرئيس المرؤوس ..؟! إيه يا مصر .. يا أم الدنيا .. لماذا تعطن ماء النيل .. وتلوث الجو .. وفسد الهواء .. واختل الميزان ..؟! أصحيح يا مصر أنك شخت وهرمت .. بعد أن صار عمر تاريخك المسجل سبعة آلاف سنة أو يزيد ، ولم تعودى قادرة على إقامة العدل ونشر الحق ونفى الظلم بين أبنائك ..؟! مر فى مخيلتى طيف عبير قنديل ، هذه الفتاة الرقيقة التى أحبتنى فى صمت ، ولفتت انتباهى فى حياء . عبير هذه الزهرة البرية الرقيقة .. كيف تفكر فىَّ الآن .. وماذا تقول عنى ؟! لم تكن تصبر على فراقى . فى فترة الإجازة الصيفية كانت تصر على أن أكلمها كل أسبوع مرة على الأقل . تقول وهى تودعنى فى نهاية كل مكالمة :

ـــ إذا لم أسمع صوتك فى الأسبوع القادم ، فسوف أموت أو أنتحر ، وأقول إنك أنت السبب .!!

عبير يا وردة حمراء .. يا مطر الربيع .. يا روح القلب المعذب .. هل يمكن أن تلتقى الألف بالياء .. وتشع الشمس بالضياء ؟!

تذكرت أيضاً سمر صبرى منافستى الحسناء ، التى تحمل جنسية مزدوجة ..

وقد صارت وحدها بلا منافس . كما تذكرت نبيلة حسنى ، ويحيى المليجى ، والدكتور فريد رشدى أستاذ الدراما ، الذى كان معجباً بى ومؤمنا بقدراتى العقلية . لكن الصورة البانورامية لقسم اللغة الإنجليزية غطى عليها شبح كائن سخيف .. هو طارق فهمى . لا أدرى لم أشعر بالأشمئزاز والتقزز ، كلما تذكرت اسم ذلك الشاب الكريه .. الحقير ..؟!

فى كل مكان بالسجن ترى كافة أنواع الحشرات والحيوانات غير الأليفة ، مثل الفئران والثعابين والسحالى والعقارب والعناكب والبرص والصراصير والدبابير والنمل والقمل والبراغيث والناموس والذباب الأزرق . جرى أمامى فأر أسود فى حجم الأرنب ، فأر جبلى متوحش ، عضته تصيب مباشرة بالطاعون وتؤدى إلى الموت ، لأن مستشفى السجن ، لم تُجهز — عمداً — لعلاج الأمراض الخطيرة والإصابات الطارئة . بالطبع كل موظفى السجون بدءاً من المأمور إلى أصغر فرفور ، يتمنون أن يموت كل المعتقلين — دون أن يكونوا هم السبب المباشر . تصور .. تخيل ..؟! أكثر من هذا أن المسئولين الكبار فى السجن ، قد يحصلون على ترقيات استثنائية ، إذا عرف أنهم غاية فى القسوة وفظاظة المعاملة مع المسجونين ، يستوى فى ذلك : القاتل .. والسارق .. والزانى .. والمرتشى .. والعميل الخائن .. والمعتقل الوطنى.!!

شرع زملاء الزنزانة — بعد أن بدأوا يألفون بعضهم بعضاً — يتناقشون فى بعض القضايا الخاصة ، وقد فتح باب الحوار الشيخ عبد الله خضر ، والأستاذ على شبكة ، لأنهما يعرفان بعضهما من قبل . وقد التقيا من قبل فى كثير من الاجتماعات القيادية ، كما تزاملا فى سجن الفيوم سنة ١٩٥٤ .

قال الشيخ عبد الله :

— اللّٰهم اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون . لست أدرى لم يعتقلون رجالا ، كل تهمتهم أنهم يقولــون ربنــا الله .. ﴿ ربنــا وسعت كل شىء رحمة

وعلما ، فاغفر للذين تابوا ، واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ﴾ .

فرد عليه الأستاذ شبكة فى حدة :

ـــ ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون ﴾ . ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ .

قال محمد البدراوى :

ـــ الله أكبر ولله الحمد ..

فأكمل السعيد حجازى :

ـــ عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نلقى الله ..

قال شوقى :

ـــ رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولا .

صاح مدحت عبد البديع :

ـــ يا جماعة نريد أن ننام .

رد على شبكة :

ـــ اخرس يا زنديق ، فإن هذا ليس من شأنك .

قال صفوت حسنين :

ـــ هذا الكافر لا يعجبه إلا كلام سيده كارل ماركس .

قال الشيخ عبد الله فى ثقة وإيمان :

ـــ لا ينبغى أن يكفر بعضنا بعضاً .

قال نبيل بولس :

ـــ صدقت يا شيخ عبد الله .. الدين لله والوطن للجميع .

قال مجدى الأسيوطى :

ـــ اهدءوا يا جماعة ، فإن معظم من تناضلون من أجلهم ، لا يعرفون عنكم

شيئاً .. ولن يدفعوا عنكم شراً .

أنهى المناقشة صوت الحارس :

ـــ اخرس يا مسجون أنت وهو . نحن فى منتصف الليل، والناس تريد أن تنام . اتهدوا .. هدَّ الله حيلكم يا أولاد الكلب .!!

نهاية ساخرة لموقف تراجيدى .. فقد قطع صوت الرقيب رجب الحوار ، وحسم الخلاف بين الإخوة والرفاق . ما فائدة الفكر والكلام ، وعصا الشرطى تحكم المواقف وتتحكم فى البشر .؟!

فى بداية أيام السجن ، لم أكن قد عرفت مَن الأخ ومَن الشيوعى ؟ شيئاً فشيئاً بدأت أفرق بينهما . أكثر من هذا استطعت ـــ بعد أن وافق بعض الإخوة وسمحوا بالحوار مع الشيوعيين الكفرة ـــ أن أميز بين أهم آليات الخطاب لدى الفريقين :

الإخوة المسلمون .. يؤمنون بنصوص القرآن والسنة ابتغاء رضا الله والجنة . ويرون أن الإسلام دين ودولة ، وبالتالى فإن من حقهم ممارسة النشاط السياسى ، وأن يكون لهم حزب يعبر عنهم . ويرون أن الشيوعيين كفرة وأصحاب فكر مستورد ، ولا فائدة من الحوار مع المرتدين الجدد . أما الرفاق اليساريون .. فهم منحازون لفكر ماركس ولنين والمنهج الجدلى ، ويرون أن المادة سابقة على الفكر ، وأن الاشتراكية سوف تنفى الشر والظلم وتحقق العدل والمساواة بين رئيس الدولة وأصغر عامل . كما يرون أن الإخوان جماعة دينية .. ليس لها فكر سياسى ، يناسب طبيعة العصر الحديث ومنهجه العلمى المادى .

كان الشيخ عبد الله خضر أقرب زملاء الزنزانة إلى قلبى ، فقد عوضنى هذا الرجل عن أبى كثيراً ، وبدأ يعلمنى بعض ما لم أكن أعلم. كانت طريقته محببة جذابة فى التعامل معى ، لأنه لم يقدم إلى أية فكرة أو معلومة إلا بعد أن أسأل عنها . لم تكن من فطرته أن يعطى النصيحة لمن لم يطلبها . النصيحة ـــ كما يرى ـــ نور .. ونور الله لا يُهدى لعاص .

قلت له ذات يوم :

ــ مضى ما يزيد عن خمسة أشهر دون أن يحققوا معى . هذا ظلم ، لقد ضيعوا مستقبلى .

ــ أول مرة تعتقل يا بنى ؟!

ــ نعم يا عمى .

ــ ما فائدة التحقيق ؟

ــ أعرف تهمتى على الأقل .

ــ علمت أنه صدر قرار جمهورى باعتقال الإخوان والشيوعيين ومن يتعاطف معهم ، أو يتواجد لحظة القبض على أى فرد منهم ، لذلك يجب أن تحمد الله .

ــ الحمد لله .. لكن على ماذا ؟

ــ على أنهم لم يقبضوا على والدك ساعة اعتقالك .

قلت وأنا أنظر إلى جدار السجن البعيد العالى :

ــ أريد أن أعرف .

ــ ألم أقل .. إنك لن تستطيع معى صبراً .

ــ لماذا يا والدى ؟

ــ أعوذ بالله أن تكون من الشيوعيين . على كل حال سواء أكنت من أهل اليمين أم من أهل اليسار ، فأسقط التدبير ، واعلم أن هذه المحنة بلاء واختبار من الله سبحانه وتعالى ، ليعلم أتصبر وتشكر أم تضل وتكفر ؟!

قلت فى عجلة :

ــ أستغفر الله العظيم .

قال فى هدوء الواثق :

ــ يا بنى لا تشغل نفسك بما لا يفيدك ، ولا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، لكن قل قدر الله وما شاء فعل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . قل ورائى

يا بنى : اللهم عندك أحتسب مصيبتى ، فأجرنى فيها ، وأبدلنى خيراً منها .

ساحة السجن تذكرك بـالأرض الخراب The Waste Land ، فالساحة رملية قاحلة ، لم يحرص موظفو السجن على زراعة شيء فيها ، حتى لا تخفف الخضرة من سوء المناخ والطبيعة ، فالسجن فى إحدى واحات الصحراء الغربية البعيدة ، حيث لا زرع ، ولا ماء ، ولا جو معتدل . ومن تسول له نفسه الهرب فسوف تغتاله صحراء المحاريق .. حتى لو نجا ، فلن يعرف طريقا يوصله ، فالطرق من وإلى هنا غير معبدة وغير واضحة المعالم . جدران السجن الرمادية ، تبدو كالحة باهتة .. والنوافذ الصغيرة الضيقة ، تزيد المنظر وحشة وكآبة . حطام الفراغ يتناثر فوق جبهتى ، ويهيل التراب على جثتى . هنا فى ساحة الأرض الخراب يموت الربيع ، وتنتحر الأشجار ، وتجف الدماء فى العروق ، وتبعد شمس المصير . كالبرق الخلب تبددتْ كل الأحلام . لا أمل فى حب .. أو عمل .. أو تجمع شمل . أرض النيل لم تعد تثمر زهراً أو قمحاً .. لكن ملحاً . يا إلٰهى .. أحس أنى قد صرت دمية محشوة بالقش .!!

ذات ليلة قارصة البرد من ليالى طوبة — تداخل كل منا فى البطانية البالية ، ووضع رأسه مع جسده ، حتى يدفئ نفسه بأنفاسه — هجم علينا الشاويش رجب . فتح الباب .. أشعل الضوء .. صاح القرد الملعون :

— استيقظوا .. قوموا يا رجال . أمر هام يخص البيه المأمور شخصياً .

رد شوقى :

— خيراً يا شاويش رجب .

أحكم ياقة البالطو الأميرى حول رقبته قائلا :

— سعادة الباشا المأمور ، يريد أذكى رجل فى العنبر .

قال نبيل بولس :

— المأمور يطلب أذكى رجل ؟

صاح مدحت عبد البديع :

ــ أنا إذن الشخص المطلوب .

رغم برودة الجو .. وسقوط المطر ــ لم نستطع أن ننام ، فقد شغلتنا قضية استدعاء المأمور لواحد منا فى هذا الوقت المتأخر من الليل .. وفى ظل هذا الجو الممطر البارد .. هل يرغب فى أن يضع عينا منا يتجسس علينا .. هل وصلته أخبار عنا ، يريد أن يتحقق منها .. هل جاءت أوامر جديدة ، أراد أن يبلغنا بها قبل أن يولد الصبح ؟! بعد ساعتين لم نستطع فيهما النوم أو الوصول إلى حل ، عاد مدحت ، يرتعش من شدة البرد ، كأنما أصابته حمى .

سأله الشيخ عبد الله :

ــ خيراً يا بنى .

ــ تصوروا يا جماعة ؟

ــ ماذا ؟

ــ سعادة المأمور طلب إنسانا متعلماً ذكياً ، حتى يسلك له بالوعة المرحاض ..؟!

مجدى الأسيوطى والسعيد حجازى وصفوت حسنين ونبيل بولس انفجروا فى موجة ضحك متواصل ، حين سمعوا هذا النبأ العجيب الغريب . صاح على شبكة فجأة :

ــ على أى شيء تضحكون ..؟ إن ما حدث يوجب البكاء لا الضحك . كما أن كثرة الضحك تميت القلب .

صاح شوقى فى تحد :

ــ لعنة الله على المأمور .. وعلى كل العسكر .

قال الشيخ عبد الله فى هدوء :

ــ بدلا من الضحك والمناقشة البيزنطية ، اصنعوا لأخيكم شاياً ساخناً ،

حتى لا يهلك من البرد .

قال صفوت :

ـــ صدقت ، فقد ورد فى قول مأثور عن بعض الصالحين « اتقوا البرد فإنه قتل أخاكم أبا الدرداء » .

أحدث هذا الموقف غير الإنسانى تأثيرات بالغة فى داخلى . أنياب خنزير تنهش أعصابى وتمزق قلبى . وضعت نفسى داخل تابوت البطانية ، وأخذت أبكى دون صوت أو دموع . كنت حزيناً من الداخل على نفسى وعلى كل المظلومين . يا أمنا يا مصر .. لقد تعبتِ .. وأتعبت أولادك .!!

ذات يوم اشتكى الرجل المهذب مجدى الأسيوطى إلى الشاويش رجب أنه أصيب بمرض جلدى ، نتيجة عدم النظافة وقلة الاستحمام ، فأبدى تعاطفا معه ، خاصة وقد رأى بعينيه بعض القروح فى يديه ورقبته غير ما هو موجود داخل جسده . وعده بنقل شكواه إلى المسئولين ، خاصة وأن ظاهرة الجرب صارت تمثل شكوى عامة لدى كثير من المعتقلين . حين كنا فى طابور الشمس صاح أحد الحراس بصوت رعدى :

ـــ مجدى الأسيوطى .. مجدى الأسيوطى ..

نهض مجدى الأسيوطى بعد أن تكرر النداء أكثر من مرة قائلا :

ـــ نعم .

جرى نحوه الحارس وقال غاضباً :

ـــ نعم هذه تقولها الحريم يا بهيم .. قل حاضر يا أفندم .

رد الرجل بانكسار :

ـــ حاضر يا فندم ..

كنا نشهد الموقف فى حزن صامت ، فهنا لا يسأل والد عن ولده ، ولا أخ عن أخيه ، وترى الناس سكارى وحيارى ، وأكثر ذلا من الإبل الضالة .!!

ــ أنت أجرب .. وتطلب العلاج ؟!

ــ أيوه يا أفندم .

ــ قبل أن أذهب بك إلى مكان العلاج ، لابد أن تقول : أنا امرأة .

رد الرجل فى حياء :

ــ لا أقدر يا أفندم .

نزل عليه ضرباً بالعصا ، وجرى وراءه صائحا :

ــ قل أنا امرأة يا ابن الكلب .

لو التقى هذا العلج ــ خارج السجن ــ مع مجدى الأسيوطى ابن حسين باشا الأسيوطى ، صهر العائلة المالكة ، وصديق كل وزراء مصر السابقين ــ لما قبل أن يوظفه خفيراً فى مزرعته أو بواباً على مدخل قصره . لكن الأيام السوداء ، جعلت عاليها واطيها ..!!

أخبرنا مجدى بعد عودته أن الحارس سار به ــ بعد أن أشبعه تأنيباً وسباً ــ مسافة بعيدة ، حتى كادت تنقطع أنفاسه . ثم دخلا من باب كبير ، لم يفتح إلا بعد أن أبرز الحارس تصريحاً رسمياً بالدخول . صحبه جندى آخر مسافة تقرب من عشرين متراً ، وفتح باباً ضخماً ، ثم قذف به فى سرعة قائلا :

ــ نظف نفسك هنا يا وسخ يابن الـ ....

هذا المكان .. اسمه « الغلاية » ، وهو أشبه بالحمام التركى ، المياه فيه تغلى ، والبخار يتصاعد ، والحراس يقذفون بالمعتقلين إلى الغلاية ، ولا يسمحون لهم بالخروج إلا بعد مدة معينة . من يخرج يرقد بلا حراك عاجزاً كسيحاً بجوار حافة الحمام . بعد أن يستريح المعذب فترة ، يلقون به مرة ثانية إلى الغلاية .. وهكذا .. إلى أن ينهد حيله ، ويفقد القدرة على الحركة . عاد الأسيوطى أشلاء جثة ، وقد أصيب بنزلة برد حادة ، حين خرجوا به من جو الماء الساخن إلى برودة الجو الخارجى . تخلى له الأستاذ شبكة عن سريره فى الدور الأول.التففنا جميعاً حوله

حزناً على ما أصابه . صاح الأستاذ شبكة وعيناه تبرقان خلف المنظار المقعر :

ـــ يا أولاد الكلب ، لا يعذب بالنار إلا خالق النار . لعنكم الله ، وشل أياديكم القذرة .

أخذ الرجل يرتعش بشدة . لم يعد يرى شيئاً . أخذ يذكر اسم زوجته وأبناءه : فايزة .. فتحية .. كمال .. فاروق ، ثم غاب عن الوعى . اقترب منه الشيخ خضر ، وأخذ يدعو له : « اللهم رب الناس ، أذهب الباس ، واشفه من بلاء الدنيا والآخرة ، أنت الشافى المعافى ، لا شفاء إلا شفاؤك » . ثم التفت إلى الموجودين :

ـــ اقرأوا الفاتحة ، حتى يشفى الله أخاكم ببركتها .

أصابنى قدر من الذهول ، حين وجدت مدحت الشيوعى يتلو الفاتحة مثل بقية الإخوان . بدأت أدرك أمراً ، لم أكن متأكداً من صحته قبل ذلك ، فقد تأكد لى أن الخلافات بين الإخوان والرفاق هشة جداً ، وأنها تتصل بالمظهر أكثر من صلتها بالجوهر ، فالجميع يناضلون من أجل الحرية ، وعلى استعداد للموت فى سبيل الوطن ، وينادون بالعدالة وكرامة الإنسان ووحدة الأمة ، ولو تأمل كل منهم ـــ بقدر من الحياد والموضوعية والمودة ـــ فيما يقوله الآخر ، لشكلوا تجمعاً ، تصعب مقاومته . لكنهم مثل كثير من الأحزاب العربية .. اتفقوا على ألا يتفقوا ..!!

ازدادت حالة الأسيوطى الصحية سوءاً وصار لا يقوى على مغادرة الفراش ، ولم يعد قادراً على تناول الطعام أو الشراب ، ولا حتى القيام لقضاء الحاجة ، وأمر الأستاذ شبكة أن نتبادل خدمته والسهر عليه ، لأنه لو نقل إلى مستشفى السجن فسوف يموت .. وإذا مات فلن يكترث أحد للأمر .. وربما لا يعرف أحد من العالمين . بدأت أعرف أن بعض المعتقلين ، يموتون من قسوة التعذيب أو سوء المعاملة ، ويرمون جثثهم فى الرمال . بعد ذلك يذكرون فى طابور المساء هذه

الجملة الغريبة : « هرب الشقى فلان من المعتقل .. وسوف توالى إدارة المعتقل البحث عنه وإبلاغ المسئولين بما حدث » . هذا إذن هو سر هذا الإعلان المتكرر أسبوعياً ، لذلك حرصنا على أن نتولى رعاية الأسيوطى وحدنا إلى أن شفاه الله بعد شهر تقريباً .

أيام السجن مثل أسنان المشط ، لا فرق فيها بين يوم وآخر ، أو بين صيف وشتاء .. كلها سوداء . بعد أن استنفدوا محاولات التعذيب داخل السجن — أخبرنا أحد الضباط الكبار ، أننا يجب أن نستصلح قطعة أرض صحراوية ، لتكون صالحة لزراعة ما يحتاجه السجن من خضروات وفاكهة طازجة . كما أن وجود الأشجار فى هذا المكان المقفر الموحش ، يؤدى إلى تخفيف كمية الغبار الرملى ، ويرطب الجو ، ويجعله صالحاً لإقامة الآدميين . سعدنا جميعاً بهذا العمل الجديد .. ورأينا فيه بدءاً لمرحلة مختلفة ، تراخت فيها قبضات الأيادى على العصى والكرابيج ، وخفتت صيحات السباب والأوامر . أخذنا نوسع دائرة التعارف فيما بيننا .. وخفت حدة الحوار والعداء الفكرى بين الإخوان والشيوعيين والوفديين والمحايدين . أدرك بعض العقلاء أن الخلافات الأيديولوجية ، لا توجب العداء والخلاف ، وإنما التشاور والائتلاف .

استأذنت العريف ربيع فى أن أقوم بعمل الشيخ عبد الله خضر ، فهو رجل عجوز مريض ، وفى عمر أبينا .. وصعب أن يرى الإنسان أباه ذليلاً مهاناً . فوافق بشرط أن يبقى الرجل جالساً وبجواره فأس ، فإذا جاء أحد الضباط فجأة ، ينبه إلى ضرورة العمل مثل بقية المعتقلين . السجن سجن .. لا فضل فيه ليمينى على يسارى إلا بطاعة الأوامر .

ازداد رصيدى الأبوى عند الشيخ خضر ، وصار لا يناديني إلا بكلمة « يا ولدى » . سعدت بصحبة الشيخ ، فقد علمنى الكثير مما لم أكن أعلم ، وفتح عينى بمشرط ساخن على بعض حقائق السياسة والفكر والحياة . كان الشيخ

فى صباه من أنصار الإمام حسن البنا ومن حوارييه المقربين . وقد رشح أكثر من مرة لشغل منصب « المرشد العام » للجماعة ، لكنه أبى ، فهو زاهد فى أعراض الدنيا ومطالب البشر . وقد اعتنق دعوة الجماعة ، لأنها تتناسب مع ثقافته الدينية ، وتتلاءم مع فطرته النقية .

ــ مازلت متعكر المزاج يا بنى ؟!

ــ بى شوق لمعرفة التهمة التى اعتقلونى بسببها .

ــ ألا تعرف شيئاً فى المنطق اسمه القياس ؟

ــ نعم .

ــ معظم المعتقلين هنا من الإخوان ، فلابد أن تكون بالضرورة متهماً بشرف الانتماء إليهم أو التعاطف معهم .

ــ لا يوجد دليل على ذلك .

ــ بل يوجد .

ــ كيف ؟

ــ ألست تصلى ، وتصوم ، وتقرأ القرآن ، وتذهب إلى المسجد مرة كل أسبوع على الأقل .

ــ نعم .

ــ هذه تهمة كل الإخوان ، فقد رجعنا إلى عصر جهالة الجاهلين ، لذلك يعاملوننا ، كما عامل كفار قريش الرسول والذين آمنوا معه .

ــ هذه حالة معظم المسلمين فى مصر ، ومع ذلك لم يقبضوا إلا علينا .

ــ يبدو يا بنى .. والله أعلم أن بعض فاسدى الضمير ، قد وشوا بك . هذا ظن .. والظن قد لا يغنى عن الحق شيئاً .

أخذت أستعيد صفحات ذاكرتى المجهدة ، لعلى أتذكر فى كل معارفى ، من يكون قد وشى بى إلى رجال المباحث . هذا الواشى لابد أن تكون كلمته مسموعة

لديهم . ترى من يكون ذلك الشيطان الرجيم ، الذى دمر حياتى ، وحطم مستقبلى ، وشوه سمعتى ؟!

تأملت جدار سور السجن من بعيد فوجدت شرخاً كبيراً ، يكاد يفلق الجدار من أوله إلى آخره . هذا الشرخ قديم ، حتى قبل أن أحضر إلى هنا ، ويسمح بدخول كثير من الحشرات التى نشكو منها . فلماذا لم أتبين حقيقة ذلك الشرخ ومدى خطورته قبل اليوم ، بعد حديثى مع الشيخ خضر ؟!

لم أعد أعرف على وجه التحديد المدة ، التى قضيتها فى المعتقل . يبدو أنها فترة طويلة ، تزيد على سنة . أدركت ذلك من طول شعر لحيتى ورأسى ، الذى أطلقته فى السجن ، لأن عملية الحلاقة تتم بقطعة صفيح ثالمة مثل منجل صدىء ، يبدو أنها وجدت فى إحدى حفائر الآثار الفرعونية . صارت هيئتى تشبه جان فالجان بطل رواية فيكتور هوجو « البؤساء » ، أو اللص العجوز فى رواية تشارلز ديكنز « أوليفر تويست » .. أو « الملك لير » فى مسرحية وليم شكسبير الشهيرة . كنت أظن أن ما تصوره كتب الأدب مجرد خيالات بشر ملهمين ، يحلقون فى أجواء بعيدة .. بعيدة جداً عن أرض الواقع بدرجات لا تعد ، فإذا بى أكتشف — من خلال الفترة القاتمة التى قضيتها فى المعتقل — أن أى عمل إبداعى مهما حلق ، لا يستطيع أن يصور ما يحدث فى واقع الحياة ، إذ لم أجد فيما قرأت عملا فنياً ، يصور المدى الحقيقى لمعاناة إنسان مظلوم . الظلم ليس داخل السجون فحسب ، ما الحياة إلا سجن كبير .!!

لم أستطع أن أتخلص من مشاعر الظلم والحزن الموحشة . انقطاع الصلة بينى وبين أسرتى يكوى أضلعى ، ويقطع نياط قلبى . لم أعد أتصورهم إلا باكين محطمين . كلما أدركت أنى سبب آلامهم وتعاستهم ، زاد اكتئابى واشتد كربى . أما عبير وقسم اللغة الإنجليزية فلم أعد أفكر فيهم . ليس فى القلب المحطم مكان لحب مستحيل

طاقة الأمل الوحيدة فى أثناء تلك الأزمة ، هى أحاديث الشيخ خضر ، فقد كانت تطهر صدرى ، وتثبت إيمانى ، وتحيى فى النفس ما ذبل من آمال ، وما جف من أحلام .

رآنى ذات مرة متجهماً عصر يوم ، وكنا نجلس فى فناء السجن ، فقال :

— يا بنى الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر . الله يعطى الدنيا لمن يحب ويكره ، لكن الآخرة لا ينالها إلا من رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لذلك يجب أن ترقى فى سلم المقامات والأحوال ، حتى تصير عبداً ربانياً . ثم تتخطى مقام المحبة إلى مقام الولاية ، وتصبح من الذين قال سبحانه وتعالى فيهم : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ﴾ .

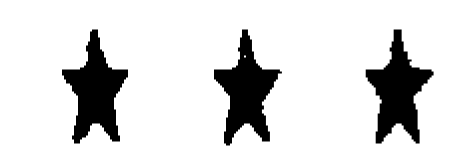
— كيف أصل إلى ذلك يا أبى ؟!

— بالصبر والإيمان ، وكثرة الدعاء ، وإياك أن تظهر خلاف ما تبطن ، فسيدتنا رابعة العدوية تقول :

تعصى الإلهَ وأنتَ تظهر حبَّه ... هذا لعمْرى فى القياسِ بديعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إن المحبَّ لمنْ يحب مطيعُ

انجذب المريد إلى القطب . كلما اقتربت ازددت شوقاً ، وكلما شربت ازددت عطشاً . أصبحت من أصحاب النفوس المطمئنة والقلوب الذكية ، وصرت أكثر قدرة على تحمل ما ألقاه من عذاب جسدى وروحى ، بل لقد رأيت فى كل ما أصابنى ابتلاء من الله سبحانه ، حتى أكون .. على الآلام أشد صبراً ، ومن الطريق أكثر قرباً .!!



٥ ــ عبير بغير شذا

ذهبت عبير قنديل إلى الكلية مبكرة فى اليوم الأول من بدء الدراسة . ارتدت فستانها الأزرق الجديد . خرجت دون إفطار . سوف تلتقى بإبراهيم ، وتتناول إفطارها معه فى بوفيه الكلية . تذكرت عند باب الشقة أنها لم تأخذ نظارتها الذهبية الإطار ، التى تعطى وجهها قدراً من الوقار والبهاء . المرأة ينبغى أن تهتم بمنظرها .. نصف الجمال تجمل . المرأة ذات الإحساس اليقظ بالأنوثة ــ يجب أن تهتم بنفسها ، حتى وهى فى حجرتها الخاصة . من لا تتجمل من أجل نفسها ، فلن تتجمل من أجل أى إنسان فى الوجود . التجمل عادة تمارسها المرأة الذكية ، التى تحترم كيانها الأنثوى . الأساطير القديمة لا تشكل ماهية الجمال إلا مجسداً فى هيئة امرأة فاتنة .!!

مرت اللحظات بطيئة .. بدأ الزملاء والزميلات يأتون فرادى .. وجماعات إلى أن امتلأ المدرج . إبراهيم لم يأت . أول مرة يتخلف عن الحضور . حدثها فى التليفون منذ أسبوع ، واتفقا على أن يقضيا اليوم الأول سوياً بعد الانتهاء من المحاضرات :

ــ وحشتينى يا عبير .

ــ انت كان يا إبراهيم .. الإجازة بطيئة .. وأنت بخيل .

ــ بخيل .. كيف ؟

ــ لا تكلمنى إلا مرة واحدة كل أسبوع أو أسبوعين .

ــ أنا فى المنصورة .. وأنت فى القاهرة . كل مصروفى أدفعه لمصلحة التليفونات من أجل خاطرك .. ماذا تقرئين هذه الأيام ؟

ـــ هل تطلبنى لنذاكر فى التليفون ؟ حدثنى حتى تخفف من حالة الاكتئاب ، التى أعانى منها .

ـــ عندى كلام كثير .. كثير جداً ، لكنى لا أقدر أن أقوله فى التليفون .

ـــ قل .. قله الآن من أجل خاطرى .

ـــ أخشى أن تحترق خطوط التليفون .. اصبرى يا حبيبتى ، بقى أسبوع واحد ، ثم نلتقى .

من يخف شيئاً يظهر على ملامحه . رأتها نبيلة حسنى جميلة أنيقة ، فأرادت أن تكشف ما بداخلها . نبيلة .. داكنة البشرة ، أقرب إلى السمرة قصيرة بدينة ، تحاول أن تغطى دمامتها بقدر من الثرثرة الطائشة ، التى تصيب فى كل الجهات ، وقد تكون جداً أو لهواً . سلمت عليها واحتضنتها فى ود مصطنع :

ـــ كل سنة وانت طيبة يا عبير .

ـــ وانت طيبة يا بلبل .

لو كان المزاج صافياً ، لضحكت ملء فيها ، إذ كيف تكون نبيلة الدبة بلبلا ؟!

ـــ أين روميو .. قصدى أبو خليل ؟

ـــ ليس بيننا ما يسمح بهذا الهزار السخيف .

فض الاشتباك دخول يحيى المليجى « المعجبانى » ، يرتدى بدلة بيضاء وكرافتة حمراء .. كأنه طاووس . قالت نبيلة ساخرة :

ـــ ما هذه الشياكة يا ابن الـ .. الـ .. إيه ؟

فرد مبتسماً :

ـــ أجنن أنا .. أليس كذلك يا عبير ؟!

قالت فى رقة :

ـــ لا أستطيع أن أجاريك . كفاية عليك نبيلة ، سوف تقوم باللازم وأكثر .

يحيى ابن ضابط سابق .. فى الجيش ، كان فى الصف الثانى من رجال ثورة ٢٣ يوليو . تولى عدة مناصب إدارية هامة فى مؤسسات اقتصادية مختلفة . الآن صار رئيس مجلس إدارة إحدى شركات المقاولات المؤممة .

قالت نبيلة :

ـــ تتزوجنى يا مستر يحيى ؟

فرد ساخراً :

ـــ أخشى أن تفسدى مستوى النسل فى عائلة المليجى .

ضحك الجميع ، بينما ظهر طارق فهمى متجهماً والسيجارة ـــ كالعادة ـــ لا تغادر فمه . حيا الجميع بابتسامة مصطنعة . حاول أن يصافح عبير ، فتجاهلت الأمر . سحب يده فى هدوء . حين رآه يحيى قادماً ، ترك الشلة ضاحكاً :

ـــ إذا جاءت العفاريت .. ذهب يحيى .

بينما جاءت سمر على مهل . حيت الجميع .. وسألت :

ـــ هل نزل الجدول ؟

رد طارق فى برود :

ـــ إذا كانت ابنة رئيس القسم لا تعرف ، فهل يعرف الغلابة أمثالنا ؟

ردت فى حدة :

ـــ اسمع يا بنى آدم .. أنا طالبة مثل أى طالب أو طالبة فيكم . ليس ذنبى أن يكون أبى رئيسا للقسم .. وأبوك ـــ رفعت شفتها السفلى استنكاراً وسخرية ـــ الله أعلم . لكن اسمع ، أنا لا أسمح لأى حشرة مثلك أن يتجرأ على . إذا لم تستح فسوف أبلغ حرس الكلية ، ليعمل لك مجلس تأديب .

قالت نبيلة فى شماتة :

ـــ صحيح .. الدنيا ليست فوضى .

تكهرب الجو فجأة . تفرقت الشلة من مكانها فى الطرقة . لم تستطع عبير أن

تتحرك . وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام طارق . رآها فرصة ليعبر عن حبه وأشواقه .. أو على الأقل يلمح بما يكنه نحوها من إعجاب ورغبة . ظنت هي الأخرى أنه قد تكون لدبه أخبار عن إبراهيم .

— إزيك يا عبير ؟

— إبراهيم لم يحضر يا طارق .

— أعرف .

أحس أنه تورط فى الإجابة ، وندم على تسرعه فى الرد ، فسكت .

— كيف عرفت ؟

استدرك قائلا :

— عرفت أنه لم يحضر ، لأنه غير موجود .. ها .. ها ..!!

أدركت بالحاسة السادسة — أنه يخبئ بعض أوراقه تحت المنضدة ، ولا يرغب فى أن يطلعها على ما يعرف . العيون — أحياناً — أكثر صراحة من الألسن . عينا طارق تعكسان معانى غريبة . وراءك شيء يا طارق .. ما هو .. ولِم تتعمد أن تخفيه ؟!

قال حتى يكسر برودة الصمت :

— معى فلوس .. يمكن أن أعزمك على شيء فى البوفيه .

— لا أريد .

أشعل سيجارة ورمى عود الكبريت بعيداً بعد أن حرق معظمه :

— إذا لم ترغبى فى الذهاب إلى البوفيه ، أحضر لك ما تطلبين .

قالت فى عصبية :

— لا أريد شيئاً .

تركته ومضت تفتش عن إبراهيم فى كل مكان ، يمكن أن تجده فيه . لما لم تجده ، عادت إلى المدرج . لمحت الدكتور فريد رشدى أستاذ الدراما من بعيد .

ابتسم لها ، فجرت نحوه مصافحة :

ــ Happy New Year يا عبير .

ــ تصور يا دكتور رشدى .. إبراهيم لم يأت حتى الآن ؟

هذا الأستاذ معجب بإبراهيم إلى درجة التبنى . المفروض أن يسألها هو عنه .. لكنها لن تستطيع أن تصبر . قال ضاحكا :

ــ إبراهيم هذا يا ابنتى من الريف ، وأبناء الريف لا يأتون إلى الجامعة إلا بعد بيع القطن .

مضى اليوم ثقيلا .. بطيئاً . لم تغادر عبير مبنى القسم إلا بعد خروج آخر طالب . لم يعد هناك أمل فى عودته . حين بدأت تتحرك خارجة ، لمحت طارق يرقبها من بعيد ، ويراها من حيث لم تكن تراه . اضطربت فى مشيتها ، وهى تسرع حتى لا يلحق بها . بينما تمضى مسرعة ، وقعت نظارتها الجميلة ، وتهشم زجاجها . كسر الزجاج فأل شؤم .. هكذا أفهمتها الأم . مشت حزينة ، تحاول أن تتلمس الطريق .!!

وصلت إلى البيت .. بعد إرهاق شديد . وجدت أباها فؤاد قنديل الصحفى بجريدة « النيل » متهالكا على كنبة الأنتريه .

ــ مساء الخير يا بابا .

ــ أهلا يا ريرى .

ــ مالك يا دادى ؟

ــ تعبت وطلعت روحى .

ــ لماذا ؟

ــ أنا أحق الموجودين فى الجريدة برئاسة التحرير ، لكنهم تجاوزونى ، لأن إدارة المباحث غير راضية عنى .. فقلت ليس مهماً ، لأن الصحفى الحقيقى صاحب قلم .. وليس صاحب مكتب أو منصب .

أول مرة تتعامل مع ما حولها بغير نظارة . كادت تتبين ملامحه بصعوبة . حالة أبيها ليست مستقرة فى الفترة الأخيرة ، لكثرة ما يلقى من اضطهاد وسوء تقدير . صارت قامته الممشوقة شجرة كافور جافة . فقد نشاطه وخفة ظله . أمست روحه عند طرف أنفه . الشعور بالظلم إحساس فظيع مدمر .. لكل ما فى البشر من معانى إنسانيته .

ـــ بعدين يا دادى ؟

ـــ تصورى يا ريرى .. يريدون أن يحددوا لصحفى قديم مثلى ، موضوعات الكتابة وطريقة التناول .

ـــ هذه صحافة ؟!

ـــ صحافة الفكر الشمولى وحكم الفرد يا عزيزتى ..

سمعت الأم الجملة الأخيرة ، فقالت :

ـــ رضينا بالهم ...

لم تكن قد رأتها عند العودة ، حين تأملتها دقت بيدها اليسرى على صدرها ، وقالت فى دهشة :

ـــ مالك يا حبيبتى ؟

ـــ لا شيء.. كسرت نظارتى .

هرولت عبير نحو الداخل ، إذ إن أباها كان يحدثها دون أن ينتبه إلى ما ظهر عليها من علامات الحزن والتعب . تمنت أن تتكلم مع أبيها ، وأن تسمع منه .. ويسمع منها ، إذ إن بينهما صداقة قوية . كل فتاة بأبيها معجبة .. لكن إعجاب عبير بأبيها ، يفوق حد الوصف ، فهو رمز جميل لكل شيء بالنسبة لها . الأمر الذى حيرها وهى تغلق باب الحجرة وراءها ، وترتمى على السرير متعبة ، هو أن لحظة الحزن عندها وعند أبيها لحظة واحدة فى الزمان والمكان . رمت الحذاء بعيداً ... كيف يمكن أن تأتى الأحزان هكذا جملة .. مرة واحدة .. بدرجة ترعب

الآباء ، وتقلق الأبناء ؟ غلبها النعاس ، فنامت بفستانها الأزرق الجديد . رأت فى المنام أنها تسير وحدها فى الظلام ، بعد أن هجرت الشمس الحزينة ، طرقات المدينة . حاولت أن تسير ، لكنها لم تستطع أن ترى شيئاً . شدها شبح من شعر رأسها .. أخذت تصيح : بابا .. بابا .. إبراهيم .. إبراهيم .. أنقذونى . غير أنها اكتشفت بعد مدة — رغم الظلام — أن الأشباح تعذب أباها وإبراهيم وغيرهما من الناس . لم يعد أحد قادراً على إنقاذ أحد . لم تستطع أن تكف عن الصراخ والبكاء .. فأخذت تبكى وتصرخ .. ازداد النشيج .. الكابوس حقيقة ..!!

سمعت الأم — حين جاءت ، تدعوها إلى الغداء — صوت نحيبها . أيقظتها فى رقة وشفقة ، وضمتها إلى صدرها ، فأحست جسدها ملتهباً ، كأنما أصابتها حمى ، فقالت حزينة :

— مالك يا روح قلب ماما ؟!

وقعت عبير فى حيرة شديدة ، فهى لا تستطيع أن تذهب إلى الكلية إلا بعد عمل نظارة جديدة ، وقد يستغرق هذا يومين على الأقل . كما لا تقدر أن تقعد فى البيت ولا ترى إبراهيم أو تطمئن عليه . بلا شك سوف يأتى اليوم . لابد من إيجاد حل . راودتها فكرة .. ترددت لحظة فى تنفيذها . لكنها وجدت فيها الحل . لم تعبأ بدلالة الأفعال : شك — ظن — حسب — وهم .... أدارت قرص التليفون . كلمت سمر .. فى البيت . لم تبال أن الوقت مبكر ، فالساعة لم تتجاوز الثامنة صباحا:

— هاللو سمر .

— هاللو عبير .

— لن أحضر إلى الكلية اليوم .

— خيراً .

— نظارتى كسرت .. وحرارتى مرتفعة .

ـــ سلامتك .. أى خدمة .

ـــ لو سمحت ، إذا جاء إبراهيم قولى له يتصل بى ، لأنه معه كتاباً من كتب بابا ، وبابا عاوزه بسرعة .

ـــ أوكى .

ـــ شكرا يا سوسو .

ـــ باى باى .

وضعت سمر سماعة التليفون . جلست بجوار التليفون بقميص النوم . لم تكن قد استعدت للخروج . سمر فتاة شقراء ، طويلة نسبياً ، ذات قوام رشيق .. ووجه أنيق . أخذت تفكر فى المكالمة المفاجأة ، التى جاءتها من عبير فى هذا الوقت المبكر . هل ما قالته صحيح ..؟! ما حكاية الكتاب المهم الذى أخذه إبراهيم ؟ تعرف أن معظم الطلبة هم الذين يستعيرون منه ، وليس العكس . كانت تتمنى أن يصبحا صديقين.استأذنت أباها فى أن يأتى للمذاكرة معها ، فنظر من خلف النظارة ، وهو يقرأ مجلة إنجليزية ، ويتناول كوباً من الشاى ، ويدخن سيجاراً قائلا :

That is your own business

جاء إبراهيم لزيارتها فى البيت أكثر من مرة ، لكنه لم يكن يبقى مدة طويلة . راوده إحساس بأنه غريب عن الديكور الأوربى ، الذى يجلس بين أركانه . كل شيء فى المنزل مستورد من أوربا أو أمريكا ـــ والدى الدكتور صبرى عبد الله أستاذ اللغويات ، تزوج من أمى الدكتورة أحلام عرفة أثناء البعثة . كانت موفدة فى بعثة لجامعة كمبردج لدراسة الدراما Drama من جامعة عين شمس ، وهو موفد من جامعة القاهرة لدراسة اللغويات الحديثة Modern Linguistics .

تعارفا .. وتزوجا فى أثناء البعثة . ولدتُ فى لندن ، لذلك فأنا أحمل جنسية مزدوجة : مصرية وإنجليزية . دادى .. ومامى .. بالإضافة إلى عمل الجامعة ،

يشتركان فى بعض مؤتمرات الترجمة الفورية . فى كل سفرية يحضر أحدهما تحفة نادرة .. أو مجموعة كتب حديثة ، لذلك كان إبراهيم على صواب حين علق بأدب عندما زارنا أول مرة :

ــ هذه شقة إنجليزية فى حى الدقى .

سكت لحظة . حبس سؤالا لم ينطقه ، لكننى أحسسته : هل أنت أيضا فتاة إنجليزية تدرس فى جامعة مصرية ؟ قلت فى نفسى طالما أنه لم يسأل ، فمن حقى أن أحتفظ بالإجابة . كنت معجبة بشخصية إبراهيم وثقافته وامتيازه . ظننت للحظة أننا لو تعاونا ، فسوف ننجح بامتياز ، ونعين معيدين ، ونسافر فى بعثة إلى إنجلترا .. ونعيد سيرة دادى ومامى . النجاح فى الدراسة ، لا يعنى النجاح فى كل شىء ، فقد نجحت عبير فيما فشلت فيه .. وفازت هى بإبراهيم .. وهذه المكالمة اعتراف صريح بأن بينهما علاقة .. علاقة ما .. قلبى يؤكد لى هذا .

نظرت إلى ساعة معلقة على الحائط ــ على شكل مفتاح أحضرها أبوها من هونج كونج ــ فوجدتها تقترب من التاسعة . أبوها لا يزال نائماً .. فهو كثير السهر ، لا ينام قبل الفجر .. ولا يصحو إلا مع الظهر . أمها سافرت للاشتراك فى مؤتمر تعمل فيه مترجمة فورية فى مدينة مدريد بأسبانيا . البيت بالنسبة لها مجرد فندق 5 Stars . لم ينجب الوالدان غيرها . كل واحد ــ حتى فى النوم ــ يتصرف بشكل فردى مستقل . فى البيت الجميع يتكلمون الإنجليزية . منذ خمس سنوات تقريباً تقضى عطلة الصيف كلها فى إنجلترا . ليس صحيحاً أن هناك مجاملة فى كونها الأولى على دفعتها ، فهى بالفعل ــ كما اعتقد إبراهيم ذات يوم ــ فتاة إنجليزية ، تدرس فى جامعة مصرية . تشعر بفراغ هائل . لكن .. كل شىء متاح وميسر ، وهذا ما يخفف كثيراً من إحساسها بالوحدة . لا تفكر فى الحب أو الزواج . تلك لعبة أولاد البلد ، بمجرد أن يصل الواحد منهم سن المراهقة ، يبحث عن الحب .. والحب معناه ــ فى بلادنا السعيدة ــ الزواج الأبدى . تتمنى

أن تنتهى هذه السنة سريعاً ، حتى تحصل على الليسانس ، وتعين معيدة ، ثم تسافر فى بعثة إلى لندن ، قد تشعر هناك بالوحدة ، لكنها لن تعانى من حالة Alienation ـــ الاغتراب .!!

لبست بسرعة القميص والبنطلون الجينز ، وشربت كوباً من الشاى دون سكر . ركبت عربتها البيضاء الصغيرة ، واتجهت نحو الجامعة . بينما تدخل من باب الكلية لمحت طارق ـــ فى نفس اللحظة ـــ يخرج من حجرة قائد حرس الكلية . نظرت إليه .. ونظر إليها . لم تكلمه .. و لم يكلمها ، لكن العيون تبادلت نظرة ازدراء وغيظ . تعمدت أن تسمعه : Prostitutor بصقت .. وأسرعت نحو قسم اللغة الإنجليزية .

ليست هذه أول مرة يرى فيها طالب من الدفعة طارق فهمى خارجاً من حجرة قائد الحرس ، كما أن معظم زملائه يعرفون أنه عضو فى منظمة الشباب الاشتراكى ، وممثل لجنة الرحلات فى اتحاد الكلية ، وأمين أسرة « الأصدكاء » ، لذلك فهو شخصية معروفة فى مدينة الطلبة وفى الكلية .. ويطمع هذا العام أن يكون ممثلا للكلية فى مجلس اتحاد طلبة الجامعة . بعد أن اختفت سمر تناسى الموقف الحرج ، الذى حدث منذ لحظة . لكن .. لم الحرج ؟ إنهم طلبة جامعيون ، ويجب أن يتصرف كل منهم حسب هواه ، لذلك فكر هو وبعض الزملاء فى أسرة « الأصدكاء » أن يشكلوا حزباً ترفيهياً ، ويسموه « حسب وداد جلبى .. يا بوى » . إنه ليس أقل من أى أحد من زملائه ذكاء أو قدرة على الدراسة ، لكنه أقل منهم فى أمر ، لا يريد أن يعرفه أحد . مات أبوه وهو صغير .. فاضطرت أمه أن تعمل خادمة فى بيت العمدة . حاول أن ينتقم من الفقر بالمذاكرة . كان ابن العمدة يأكل اللحم ويلبس الحرير ويركب الحنطور .. ويرسب أو ينجح ـــ إن نجح ـــ فى الدور الثانى . أما هو فكان يأكل العيش بالجبن ، ويلبس ملابس ابن العمدة القديمة ، ويذهب إلى المدرسة مشياً .. وينجح بتفوق . يكره النظام

والنظافة والأخلاق والمبادئ . شعاره .. إذا كلم واحداً من العامة « أصلك وقتك » ، وإذا كلم واحداً من المثقفين :

وما نيلُ المطالبِ بالتمنى ولكن تُؤخذ الدنيا غِلابا

إذا وضع شيئاً فى رأسه نفذه . وما يصنع فى رأسه دائماً يقع فى دائرة الممكن ، وهو مستعد دائماً أن يتحالف — حتى مع الشيطان — ليحقق ما يطمع فيه .!!

فى الكلية أعجب بعبير قنديل . رأى فيها نموذجاً معقولا لفتاة الأحلام ، فهى — من وجهة نظره — متوسطة البهاء والذكاء والثراء . ابنةالكلب أعطتنى بمبة ، وفضلت إبراهيم الشريف ، مع أنه يبدو أكثر منى فقراً — رغم عنايته بمظهره ونظافة حذائه . لم أدخل قسم اللغة الإنجليزية ، لأكون من أنصار شكسبير Snakespearean ، وإنما من أجل الحصول على وظيفة محترمة ومنصب مرموق ، لذلك دخلت اتحاد الكلية ومنظمة الشباب ، ووثقت علاقتى بإدارة الحرس الجامعى ورعاية الشباب . انتصرت على الفقر والقهر واليتم ، ثم تأتى الآنسة عبير فترفض حبى . لو أنها رفضت الحب فقط لكفى ، غير أنها رفضتنى واستسلمت لغيرى . المهم من يضحك أخيراً يا إبراهيم ؟! أشعل سيجارة وقذف عود الكبريت بعيداً — بعد أن احترق . نظر قريباً فرأى مجلة حائط ، فذهب ليقرأها ، وهو يطرد الدخان من صدره بعصبية .

يحيى المليجى يمشى بسرعة ، كأنه يجرى . اصطدم بطارق :

— مالك يا يحيى ؟

— اتركنى أرجوك .

— والمحاضرات ؟

— ليس مهماً .

— خذنى معك .

— قلت لك اتركنى .

— لن أتركك حتى أعرف .

— موعد غرامى مع بنت من قسم فرنسى .

— خذنى معك ولن تندم .

— اتركنى يا غشيم .

مضى يحيى مسرعا نحو باب الجامعة الرئيسى . جسمه ممتلئ ، لذلك حين وصل إلى المكان الذى توجد فيه عربته ، أحس أنه قد طلعت روحه . لعن طارق الكلب الذى عطله . أقول له موعد غرامى ، فيقول خذنى معك ولن تندم . من أي طين قذر خلق الله هذا الحلوف ؟! الحمد لله تخلصت منه بسهولة هذه المرة . مها فتاة جميلة .. متفاهمة ، تعرفت عليها فى النادى . اتفقنا .. سأعطيها درساً فى الإنجليزية ، وتساعدنى فى الفرنسية . طبعاً إذا لم تكن منها فائدة .. فنادى الصيد مملوء بالحمام واليمام . نظر من شباك العربة المرسيدس الحمراء ، فوجدها واقفة بجوار سور حديقة الأورمان . أشار إليها . فتح الباب . ارتمت على الكرسى الوثير ، وهى تقذف بالكتب والحقيبة على المقعد الخلفى :

— يا ابن الإيه .. مرسيدس فى عصر الاشتراكية ؟

— هذه سيارة بابا .. لكنه سافر فى مهمة إلى الخارج ، فقلت أمتع نفسى ، حتى يعود بالسلامة .

— حلوة قوى .

— الحلوة للجميلة يا جميلة .. لن تصدق .

— إيه ؟

— كانت سيارة وزير الخارجية فى العهد البائد .

— كيف حصل عليها أبوك ؟!

— دعك من هذا .. فقد خرجنا ، لكى ننبسط . أين نذهب ؟

ــ ألا تريد أن تأخذ درساً ؟

ــ أيوه يا أبله .. لكن أين ؟

ــ فى النادى طبعاً .

ــ النادى مكان عام .. يقاطعنا فيه كل من هب ودب . عندى اقتراح .. أرجو أن تقبليه من أجل خاطر بابا .

ــ قل يا روح ماما .

ــ بابا له شاليه خاص فى هضبة الأهرام ، يذهب إليه لحل بعض المشكلات العويصة أو قضاء أوقات سعيدة .

ــ بصراحة ، أنتم عائلة Très Bien .

مضت العربة فى طريقها إلى شارع الأهرام ، وأخذت تشق طريقها وسط الزحام . أدار مفتاح التسجيل ، فجاء صوت العندليب الأسمر مغرداً :

لـو حكينا يـا حبيبـى   نبتـدى مـنين الحكايـة
دا احنـا قصة حبنـا   ليها أكثر مـن بدايـة
عشنـا فيها يامـا عشنـا   شفنـا فيها يـا مـا شفنـا

قالت منتشية من الطرب :

ــ أغنية جميلة .. جميلة قوى يا يحيى .

كانت تلبس فستاناً صيفياً خفيفاً بنفسجى اللون .. نصف كم .. فوق الركبة .. فتحة الصدر ، تفتح النفس . الثديان بيضتا نعامة .. فوق صدر من عاج . شعرها مقصوص قصة الولد Le garçon . بهره جمالها . من لم يأكل اللحم ، يعجبه أى صنف فيه . قال منتعشاً :

ــ يا سلام يا حليم .!!

وصلت العربة إلى منطقة الأهرام . بين التوتر والرغبة .. العقل والجنون .. راوده خاطر غريب . فى تلك المنطقة كان يعيش أجدادنا الفراعنة العظام .. ترى

لو بعثهم الله فى هذا الزمان الحالى ، فهل يعجبهم ما وصلنا إليه .؟! وهل نحن الآن نمثل التطور المنطقى لأحفاد بناة الأهرام ومشيدى المعابد وصانعى الحضارة ؟!

— يحيى .. أين ذهبت ؟

أيقظته من شطحاته البعيدة . فك أحد أزرار القميص الأزرق الذى يلبسه .

— جولة فى التاريخ .

— بلا تاريخ .. بلا بطيخ !!

توقف فجأة بفرملة شديدة ، قال مبتسماً :

— وصلنا يا جميل . فتح باب الشاليه ومضى يركن السيارة فى مكان ظليل .

عندما دخلت كان الوقت بين الضحى والظهيرة : قصر فى قلب الصحراء .. يا أولاد الإيه ؟!

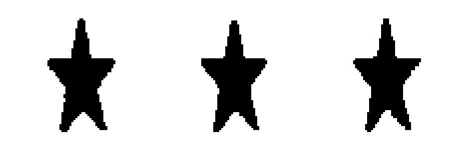
المكان غاية فى الأناقة ، كأنما أشرف على تنسيقه مهندس ديكور إيطالى . اللون الأحمر الوردى — لون دم الغزال يغلب على المكان .. الكراسى .. السجاد .. ترابيزات خشبية صغيرة .. فازات — بها ورد صناعى — من الكريستال .

أحست أن بعض أثاث الشاليه مأخوذ من قصور الأغنياء السابقين قبل يوليو ١٩٥٢ . كيف ورث الضباط الأحرار الإقطاعيين الكبار ؟! ثمة تمثال صغير لابن آوى — إله الموت عند الفراعنة جالساً على نعش خشبى . حين وقفت أمام التمثال صاحت من الأعماق :

— حتى الآثار .. يا أولاد الكلب !!

مها يوسف رزق الله .. الابنة الصغرى لرجل رأسمالى ، كان يملك عدة مصانع للغزل والنسيج فى شبرا الخيمة ، بناها بعرقه وأعصابه طوبة طوبة ، حتى يسهم فى تدعيم الاقتصاد الوطنى . كان ثرياً يقدس العمل . ربى أسرته تربية مثالية . اهتم بتعليم أولاده ، خاصة البنات ، وهو الذى اختار لها مدرسة الليسيه فرنسيه . لكن ذلك الوطنى المكافح مات بالسكتة القلبية ، بعد أن أممت الثورة المباركة

مصانعه وممتلكاته ، فعاش أهله عيشة متواضعة بعد وفاته . أكثر أبنائه معاناة من المحنة هى مها ، لأن والدها مات وهى صبية صغيرة ، ولدت فى أيام العز والهناء .. وتربت فى أيام الفقر والشقاء . لكن الأسرة كلها — بفضل حكمة الأم — استطاعت أن تواصل المسيرة دون صعوبات كبرى . اليوم يظن يحيى المليجى أنه ظفر بصيد ثمين . لا يا يحيى أنا فتاة متحررة ، لكننى غير متحللة . إنه الملل والإحساس بالضياع ، يجعلنا أحياناً نرتكب بعض حماقات صغيرة . أمور كثيرة يمكن أن تستولى عليها بالقوة أو بالمال .. أيها البرجوازى الانتهازى .. إلا .. الشرف .!!



٦ ـــ الجيــاد .. والجــراد

سبعة شهور مضت ـ كأنها سبع سنوات عجاف ـ منذ أخذ أولاد الحرام ابنى ، ورحلوا فى الظلام . إبراهيم المؤدب .. ابن الأصول ، اعتقلوه دون سبب ، وسجنوه بغير ذنب . منهم لله .. قلب الأم لا يكذب ، قلبى يقول إنه برىء .. برىء .. منهم لله ، الذين كانوا السبب . للإنسان عينان .. ولى ولدان . بعد أن فشلت كل مساعى والده فى إثبات براءته .. أو على الأقل زيارته والاطمئنان عليه ـــ بعد ذلك مرضت دون داء . المرض الحقيقى هو الهم .. واعتقال إبراهيم كان همى الكبير ، الذى أصابنى بمرض السكر وضغط الدم . حاولت أن أبدو متماسكة ، حتى أشد من أزر زوجى أحمد أفندى ، لكى لا ينهار هو الآخر ، إنه عائلنا الوحيد .. ليس لنا طين أو ثروة سوى هذا البيت المتواضع ، الذى ورثناه عن جدة إبراهيم الحاجة أميرة عليها رحمة الله . كنت أفتخر بإبراهيم وأقول للجارات ، خاصة من لديهن بنات ، ويلمحن بالرغبة فى مصاهرتنا :

ـ الدكتور إبراهيم سيكون مدرساً فى الجامعة . مدرسو الجامعة ليسوا مثل مدرسى المدارس . لا .. أستاذ الجامعة هذا ، حاجة كبيرة خالص . إذا دخل الفصل تسمع رنة الإبرة ، إبراهيم قال إنه سوف يكمل تعليمه فى بلاد برة .. من يعرف ، قد تعجبه واحدة خواجاية ، تلبس برنيطة ، وتستحم باللبن ، وتضع على وجهها الأبيض والأحمر .

قالت أم عائشة .. زوجة حامد البكرى :

ـ بنات بلاد جوه ، أحسن من بنات بلاد بره يا أم إبراهيم . على الأقل موحدات بالله .. وأنت تعرفين بالضبط ميزة المسلمة على الخواجاية .. عارفة ولا أعرفك ؟!

— هو أنا التى ستتزوج يا أختى . كان زمان ، الواحدة تخطب لابنها أو لبنتها .. لكن الآن نحن فى زمان مختلف .

بعد اعتقال إبراهيم تغير الحال .. وأصبحت الجارات هن اللاتى يتحاشين الكلام معى عنه . عينى عليك يا كبد أمك . البيت الذى كان يشف ويرف .. كل شىء فيه نظيف ومرتب ، لم أعد أبالى بنظامه أو نظافته ، بعد أن قلب حاله رجال الشرطة .. واستباحوا حرمته .. منهم لله . لم ينصلح حال البيت ، ولا حال الأسرة منذ داست أحذيتهم القذرة أرض البيت ، منهم لله ..!! لم يكن أمامى سوى زينب ألقى عليها الحمل . البنت يا عين أمها ، لا تزال صغيرة .. وهى فى الثانوية العامة . لكن أعمل إيه ؟ ربنا معانا ومعاها . غصباً عنى يا حبيبة ماما .

بعد حوالى شهر .. أو يزيد قليلا — بعد أن اعتقلوا إبراهيم — جاءت إلى الحارة سيارة مرسيدس حمراء ، يسوقها يحيى المليجى ومعه الدكتور فريد رشدى وعبير قنديل وسمر صبرى . شغلهم غياب إبراهيم فجاءوا للاطمئنان عليه . كانت عبير أكثرهم لهفة وقلقاً . استدعيت أبا إبرهيم من محكمة الاستئناف ، فأتى على عجل . بعد التحية سأل الدكتور فريد :

— أين إبراهيم ، وما سبب غيابه يا أستاذ أحمد ؟

— ما المسئول بأعلم من السائل ؟

قال يحيى :

— ماذا حدث يا عمى ؟

— البوليس جاء .. وفتش البيت .. ثم قبضوا عليه ، لماذا ؟ لا نعرف .. أين ذهبوا به ، لا نعرف .. سألت بعض المسئولين فى المحافظة ، وقسم الشرطة ، ومكتب المباحث .. لا أحد يقول كلمة ، تريح القلب .

صاحت عبير :

— هذا ظلم .. ظلم ، ومع ذلك يدعون أننا فى عصر الحرية .؟!

قالت سمر بهدوء :

ـــ هذه قضية غامضة ، يصعب على أمثالنا معرفة الحقيقة فيها .

قال أبو إبراهيم :

ـــ صدقينى يا بنتى .. الحقيقة الوحيدة هى أن ابنى مظلوم .. والله العظيم مظلوم .

قال الدكتور فريد :

ـــ ما دمت واثقاً من براءة ولدك ، فسوف يعود قريبا بإذن الله . لكن أرجو أن تكتب طلباً لتجميد قيده إلى أن يعود . وسوف أقدمه بنفسى لعميد الكلية .

أحسست أن عبير فى عينيها كلام كثير ، لم تستطع أن تبوح به . تعللت برغبتها فى دخول دورة المياه ، وطلبت من زينب أن تريها حجرة إبراهيم . وقفت فى أرجائها وقفة شاعر الطلل ، تبكى من ذكرى حبيب ومنزل . كانت تتأمل الحجرة ـــ كما ذكرت زينب ـــ كأنما تحج إلى مكان ، طال شوقها إليه . أدركت بالحاسة النسائية أن هذه الفتاة تحب ولدى .. وإن لم يصرح هو ، لى بذلك . والله كبرت يا إبراهيم ، وأصبحت لك حبيبة !!

كانت الزيارة سريعة وخاطفة ، لكنها تركت فى نفسى تأثيرات حزينة ، فقد هيجت عواطفى ، وذبحت قلبى ، وأجرت دموعى . طلب أبو إبراهيم منهم أن يقضوا اليوم معنا ، حتى نقوم بواجب الضيافة ، لكنهم أصروا على السفر بعد أن قضوا معنا حوالى ساعتين . أحسست عند وداع عبير أننى أحتضن ولدى بين ذراعى .. فحبها له ، تفضحه عيونها ووجهها وقلق حديثها . عندك حق يا إبراهيم عبير فتاة مرتوية مربربة .. ريا المخلخل ، لكن سمر هيفاء نحيلة .. يا ميت ندامة ، تلبس بنطلونا مثل الخواجات . والله عِشنا وشفنا .. بنات مصر تلبس بنطلونات . ابن بطن أمك بصحيح يا إبراهيم .. عبير هى الفتاة المناسبة .. يا رب أفرح بك وبها .

قال الدكتور فريد مودعاً :

ــ شدى حيلك يا أم إبراهيم . إن شاء الله ، لكم زيارة أخرى عند رجوعه بالسلامة .

من عادات النسوة فى حينا الشعبى .. أن المرأة إذا نزل بالأسرة مكروه ، يجب أن تهجر فراش الزوج ، وأن تنام فى مكان آخر ، غير الذى ينام فيه ، وبالتالى فإنه محرم عليها التزين بالحناء ، أو العطور ، أو تزجيج الحواجب وتكحيل العيون ، أو إزالة الشعر من أى موضع فى جسدها . سامحنى يا باشا .. غصباً عنى يا أبا إبراهيم ، بدأت أنام مع زينب بحجة أنها صارت تخاف عند النوم وحدها منذ الليلة المشئومة . كذلك فعل أبو إبراهيم ، فقد ذهب لينام فى حجرة الولد ، حتى تظل عامرة إلى أن يعود بالسلامة . اللّٰهم يا من أعدت موسى إلى أمه ، أعد إبراهيم إلى ، كى تقر عينى ، ولا أحزن .!!

فى صباح أحد أيام الاثنين ، جاءت جارتى أم عائشة بعد أن ذهب أبو إبراهيم إلى المحكمة ، وزينب إلى المدرسة الثانوية . كنت أتقلب فى الفراش .. حزينة مريضة . لم أعد أرغب فى عمل أى شىء من أعمال البيت . وضعت الطرحة السوداء على رأسى ، وجلست معها فى الشقة :

ــ مالك يا أم إبراهيم ؟

ــ تعبانة قوى يا أم عائشة .. عمرى ما تعبت هذا التعب يا أختى .

ــ يا حبيبتى شدى حيلك . إبراهيم ليس وحده ، لقد عرفت أنهم أخذوا كثيراً من الرجال والشباب . وما دامت المصيبة عامة ، فهى خفيفة بإذن الله .

ــ ربنا يخفف عنا جميعا يا أختى .

ــ لكن حالتك لا تعجبنى هذه الأيام .

ــ أعمل إيه .. ليس بيدى .

ــ يا أختى .. سيبك من الأطباء والدواء ، وتعالى معى .

ــ إلى أين ؟

ــ نزور الشيخ سيد ، ليرى أثرك ، ويكتب لك الحجاب . وبعدها لن تشكى

من شيء بإذن الله .

ـــ أقعد مع رجل غريب .. وأحكي له عن أسراري الخاصة ؟ لا .. لا .. هذا عيب .. عيب كبير يا ست أم عائشة .

ـــ من قال إن الشيخ سيد رجل ، إنه امرأة مثلي ومثلك ، اسمها الحاجة مرزوقة . لكن الجني الذي يركبها اسمه الشيخ سيد ، وهي تحضر روحه لمن يقصدها من أصحاب المشكلات والمصائب ، وتعمل له ما فيه الخير بإذن الله .. وربنا هو الشافي المعافي .

ـــ وماذا يقدر الشيخ سيد هذا أن يفعل ؟

ـــ لا تستهيني بكرامة أهل الله يا أختي ، فالله سبحانه وتعالى يكشف الحجاب عمن يشاء من عباده الصالحين .

أخذت أم عائشة تتحدث عن كرامات الشيخ سيد بطلاقة ويقين ، فقد دل واحداً على صندوق ذهب ضاع منه ، وأرشد تاجراً عمن سرق محله ، وشفى صبيا عنده صرع ، وعالج فتاة كاد شعرها يسقط كله وتصبح صلعاء ، وفك أزمة عريس كان مربوطاً .. ففك قيده ومارس حياته الزوجية وأنجب .. السحر مذكور في القرآن الكريم ، والحسد كان يا أختي .

بدأ الفأر يلعب في عبِّي . كرامات الحاجة مرزوقة .. أو الشيخ سيد ـــ لا حد لها . الغريق يتعلق بقشة .. وأنا غريقة شبعتْ غرقا في بحر الحزن .. والمرض ، المشكلة كما ظهرت لي في البداية .. كيف سأذهب إلى الشيخ سيد ؟ هل أخبر زوجي أم لا ؟ ما يقرب من ربع قرن .. لم أكذب فيها معه كذبة سوداء أو بيضاء . إذا قلت له الحقيقة فلن يوافق . إنه زوجي وأنا عجنته وخبزته ..!! أعمل إيه .. تعملي إيه يا نفيسة يا بنت الحاج عثمان موافي ؟! وجدتها .. وجدتها .. وربنا يستر ..!!

خرجت مع أم عائشة بحجة الذهاب إلى السوق لشراء بعض طلبات البيت .

رفض أحمد أفندى ، لأن صحتى لا تتحمل .. وأنه — عادة — هو الذى يحضر كل ما يريده البيت . قلت بإصرار :

— زهقت من قعدة البيت .. وصداع ضغط الدم .. كلكم تخرجون وتنسون ، وأنا محبوسة هنا مع الهم .. و ...

أحس رجلى — أطال الله عمره — أنى متضايقة وحزينة . فحاول أن يسترضينى :

— براحتك يا أم إبراهيم .. روحى إلى أى مكان . لكن لا تتعبى نفسك .

قلت وأنا أبتعد عنه ، حتى أخفى ارتباكى :

— حاضر يا أخويا .. ربنا يطول عمرك .

انطلقت عربة الحنطور من بيتنا ، وسارت مسافة طويلة ، حتى وصلت إلى أطراف المدينة ، حيث توجد منطقة شعبية ، حاراتها ضيقة ومتعرجة ، لا تخلو من أكوام زبالة .. وبعض حفر بها مياه آسنة .. كريهة الرائحة . معظم البيوت مبنية بشكل عشوائى .. على أرض زراعية ، لذلك تتداخل المبانى فى الأرض الزراعية ، والأرض الزراعية فى المبانى .

— قف عندك يا أسطى .

بيت الشيخ سيد يتكون من طابق واحد ، مبنى بالطوب الأخضر ، لأن الطوب الأحمر يحول دون دخول الأرواح . الحاجة مرزوقة تسكن هنا فى أطراف المدينة ، حيث تستطيع الأرواح أن تتصرف بسهولة . هذا ما أكدته أم عائشة فى أثناء ركوب الحنطور .

دخلنا من باب كبير .. مفتوح دائماً ، يُفضى إلى صالة كبيرة .. مقسمة إلى قواطع ، لا يفصل بينها أبواب . خلق كثير .. زحمة .. رجال .. نساء .. صبية .. من مدينة المنصورة ، ومن بعض البلاد المجاورة والبعيدة . مولد .. يا بيت الشيخ سيد . المكان واسع . كل واحد ، يفعل ما يريد .. يتوضأ ، يصلى ،

يسبح ، يتكلم مع من جاء معه ، أو مع أى شخص موجود .

جلسنا أنا وأم عائشة على استحياء فى ركن بعيد .. كنت أخشى أن يتعرف على أحد فيقول لزوجى . بينما أتأمل المكان الغريب ، وأتطلع إلى لوحة — من ورق الكرتون ، معلقة على الحائط ، مكتوب عليها « يا داخل هذا المكان .. صل على النبى العدنان » — ظهر رجل غريب الهيئة كأنما انشقت الأرض ، وخرج منها . الشيخ زغلول قامته أقرب إلى الامتلاء ، ملابسه مرقعة ، فيها من كل لون رقعة . فى رقبته مجموعة من السبح ، مختلفة الأحجام والأشكال والألوان . يطل من صدره شعر كثيف أبيض وأسود ، يلبس طاقية طويلة هرمية — مثل الطرطور — تتسع من أسفل وتضيق شيئاً فشيئاً ، كلما بعدت عن القاعدة . عمره يصعب تحديده .. لكنه — فيما يبدو — بلغ الستين إلا قليلا . دق الأرض بشمروخ طويل من شجرة كافور . ظهرت أسنانه المتآكلة ولحيته المحناة بلون أصفر باهت ، حين قال :

— سلام قولا من رب رحيم .

قالت أم عائشة :

— عليك السلام ورحمة الله .. يا شيخ زغلول .

هز رأسه وحرك عينيه الجاحظتين ، وقال كأنما يتلو ورداً أو يترنم بأغنية :

— من منكما صاحبة الحاجة المقضية ، بإذن الله من شر البلية .

قلت فى هدوء .

— أنا يا سيدنا الشيخ .

قال وهو يمد يده :

— هاتى الأثر .. وضعى القدر .. وسوف تساعدك الجن والبشر .

أعطيته منديل رأس أبيض (عصبة) ، بداخله خمسة جنيهات . حين لمست يده الورقة المالية ، انفرجت أساريره واحمر خداه ، فقال مبتسماً :

ـــ هذا لصاحبة المقام ، فأين نصيب الخدام ؟

أعطيته نصف جنيه ، فانصرف مترنما :

يـا رب بالمصطفـى ۝ حِـل الـعسير عنـا

إحنـا الغلابـة يـا بـا ۝ وأنتَ الغنـى عنـا

طال انتظارنا ، لدرجة فكرت فيها أن أقوم ، حتى لا أتأخر عن عودة زينب أو أبيها . بعد مدة طلب منا الشيخ زغلول ـــ خادم الشيخة ـــ القيام بإشارة سريعة من يده :

ـــ استعيذوا بالله من الشيطان ، وقوموا على بركة الرحمن .

مشينا خلفه .. وهو يتوكأ على عصاه .. ويغنى ، ويهز جسمه مع الإيقاع :

داستـور يـا سيـادى يـا سيـادى

دا انا جيت فى ميعـادى فى ميعـادى

فُتح الباب وأغلق فى أقل من طرفة عين . حجرة الشيخ سيد مربعة ، حوالى خمسة أمتار عرضها وطولها ، مطلية بالجير الأبيض ، الذى سقطت بعض أجزاء منه ، فظهرت طبقة من الطين تحته . شباكا الحجرة مغلقان .. وفانوس متوسط الإضاءة يتدلى من سقف خشبى . الشيخ سيد تلبس جلباباً أبيض واسعاً مثل العباءة ... له ياقة وطوق نصفه الأعلى مفتوح . الجلباب واسع يخفى تفاصيل الجسد النحيل . فى الرقبة عقد من الكهرمان الأصفر مثل المسبحة . تقعد على مرتبة قطنية .. يبدو أنها تجلس عليها ، وتنام . هذه الحجرة عالمها ، حيث تصلى .. وتذكر الله .. وتلقى مريديها .. وتقابل زوارها .. كله بإذن الله . فى ركن قريب منها منقد نحاسى ، يبلغ ارتفاعه حوالى نصف متر .. به جمرات من الفحم . دخان البخور يتصاعد فوق الجمر . كلما ضعف ، زيد البخور ، فيزداد تصاعد الدخان ، حتى يصعد إلى سطح الحجرة ، ثم يرتد فيعبئُ المكان بجو أسطورى عجيب ، بدرجة يمكن أن تحس فيها ـــ لو طالت الجلسة ،

أنه لم يعد يربطك شيء بالدنيا وما فيها . تقدمت أم عائشة فسلمت ، وعادت لتجلس بعيدة ، بعد أن سلمت وقبلت اليد الناعمة المرتوية ، التى تشع منها رائحة مسك نفاذ الرائحة . قالت فجأة :

ـــ جاءنى أمر .. تعالى قريباً يا أم الأفندى .

كيف استطاعت هذا المرأة المباركة ، التى كشف الله عنها حجب الغيب أن تعرف أنى صاحبة الأزمة .. وأن لى ابنا ؟ سبحان الله .. بشرة خير .. إن شاء الله . حين اقتربت منها وضعت كمية أكبر من البخور فى المنقد ، مع الدخان ورائحة البخور ، جاءنى صوت مشروخ :

ـــ يا قهار يا غفار .. أكرمها مع الأبرار .. واعف عن أهل الدار .. القرار .. القرار .. يا حىّ يا قهار .. يا عالم الأسرار .. فى الليل والنهار .. يا قهار يا غفار .. يا عالم الأسرار .. اكشف الأستار :

أخذت تسبح بيديها كلتيهما بمسبحة من الكهرمان ذات حبات كبيرة ، وهى تهتز وترتعش ، وتتمتم بعبارات غير مفهومة وغير واضحة النبرات .. ثم قالت :

ـــ اسمعى يا شابة .

ـــ خدامتك أم إبراهيم يا ستنا الشيخة .

ـــ جوزك راجل طيب ومبسوط .. وليس عليه نذر ولا نقوط .

ـــ الحمد لله .

ـــ وبنتك صبية ، من العين محمية .

ـــ أشكرك يا رب .. لكن ..

صاحت صارخة :

ـــ جئتِ إلى هنا لتسمعى فقط ، يا أم إبراهيم . لا تتكلمى دون إذن ، وإلا انصرفت الأسياد غاضبة ، ولم نستطع أن نخبرك بشىء . سلام قول من رب رحيم . الرضا والسماح ، يا أهل السماح . أعوذ بعزة الله وعظمته ، وبعزة الله

وقدرته ، من شر ما ذرأ وبرأ ، ومن كل ما هرج ومرج ، ومن الغرق والحرق ، ومن كيد شياطين الإنس والجان ، يا رحيم يا رحمن .. يا عزيز يا جبار ، يا عليم يا قهار ..!!

توقفت لحظة ، توقفت فيها أنفاسي . فلم تقل الآن شيئاً له علاقة بالحبيب الغالى ، ولم تذكر شيئاً عن مرضى . أمر شغلنى — فى أثناء التلاوة والدعاء .. هل هذا الصوت صوت رجل أم امرأة ؟! لم أستطع أن أحدد طبيعة الصوت . عجيب .. أول مرة يساورنى الشك .. وأول مرة أيضاً لا أستطيع أن أحل اللغز . نظرت إلى صاحبة الوجه المبارك ، لعل ذلك يؤكد يقينى .. فازددت شكا وحيرة . الوجه لا شعر فيه ، لكن به آثار جدرى قديم . أخيراً قلت فى نفسى : هؤلاء خلق مباركون ، يعلمون الغيب ، ويكشفون المستور ، بإذن الكريم الغفور ، ولهم طبيعة خاصة ، لا يحيط بها علم البشر العاديين أمثالنا . حين أحستْ أنى بعيدة عنها صاحت :

— اقتربى يا أمة الله .

وضعتْ كمية أخرى من البخور ، وطلبت أن أقترب أكثر . اقتربت حتى كادت ركبتاى تصطكان فى ركبتيها . كانت أم عائشة تنظر فى الأرض صامتة .. لا تسمع ولا ترى ، حتى لا تطردها الأرواح من المكان . وضعت الشيخ سيد يديها — فى تلقائية مصطنعة — فوق رأسى ، وأخذت تسقطهما لتمسح جسدى :

— قولى ورائى يا أمة الله .. اللّٰهم لك الحمد كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله — علانيته وسره . اللّٰهم إنى ضعيفة فقونى .. وذليلة فأعزنى .. وفقيرة فأغننى .. وبعيدة فقربنى .. ومريضة فاشفنى ، فإنه لا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مباعد لما قربت .. يا ألله يا أرحم الراحمين .

الشيخة تتلو الدعاء .. وأنا أردد بصوت ضعيف كسيف . فى بداية الأمر لم ألتفت .. لكن الحركة تكررت . يد الشيخة المباركة تتباطأ عند بعض المواقع

الحساسة فى جسدى . قلت فى نفسى إن الشيخ سيد ليس سوى الحاجة مرزوقة ، وما من امرأة ترغب فى امرأة .. إن هذا إلا وسوسة الشيطان ، اللهم أخزك يا إبليس . أيقظنى صوت الشيخة ، الذى صار أدنى إلى صوت الرجال :

ــ يا حاجة أم إبراهيم .

ــ نعم يا ستنا الشيخة .

ــ احمدى الله الذى هداك وأرسلك إلى هنا . العمل الذى عُمل لولدك ، كان سيذهب بعيداً ، ولا يمكن أن نبطله .

ــ كيف ؟

جذبتنى لأقترب منها أكثر . وضعتْ وجهى بين يديها . أخذت تتفرس فى عينى :

ــ عيناك صافيتان والصفاء من الصفو ، والصفو من الصوفى ، صافى فصوفى ، حتى سُمى الصوفى .

فى عينى الشيخة اللامعتين شيء يزعجنى .. ويهز أعماقى . قالت :

ــ يا أم إبراهيم .. سيدنا إبراهيم كان خليل الله .. وقد أنقذه من كل مكروه ، حتى إنه دخل النار ، وخرج منها دون أن تمسه ، لأن الله أمرها أن تكون برداً وسلاماً عليه . ولكن ...

توقفت لحظة ، وأنزلت يديها من على وركى ، ثم صاحت :

ــ عليك نذر يا أم إبراهيم .

أردت أن أقول .. لا ، لكنى خشيت فقلت :

ــ لا أذكر .

ــ ابنك خطا خطوة حسدها عليه كل زملائه . لكن شخصا مقطوع الأمل ، خائب الرجاء عمل له عملا ، ورماه فى البحر ، فالتقطه قرموط ، يعيش فى بحار المسلمين ، لكنه بعد قمر واحد ، سيهجر بحار المسلمين إلى بحار الكفار . وإذا

رحل فلن نستطيع إبطال العمل .. ولن تنفرج كربته — والعياذ بالله .

— ما العمل يا ستنا الشيخة ؟

— غدا أو بعد غد ، توفين بالنذر ، وتحضرينه بإذن الله ، حتى أقدمه للأسياد ، عسى أن يفكوا كربة ولدك .

— ما هو النذر المطلوب ؟

— شيء له قرنان ، بينهما غرة بيضاء .

— فسرى أكثر يا حاجة .

— التفسير .. أمر خطير .. ألا تعرفى رمز الفداء .. لابد أن تأتى به قبل الجمعة . يا أم إبراهيم لله ما أخذ ، ولله ما أعطى . يا أم إبراهيم من تصدق واتقى ، فإن الجنة هى المأوى . ألله حى .. يا أم إبراهيم افديه بذبح عظيم .

خرجت من البيت بهمّ ، وعدت بهمّين . كنت أشكو إلى الله غياب ولدى ، ومرض جسدى ، وانشغال زوجى ، وتعب ابنتى بين المذاكرة وشغل البيت . زاد فوق كل هذا هم الشيخ سيد . أم عائشة تطلب منى ضرورة أن أوفى النذر . كيف يحدث ذلك دون أن أصرح لزوجى بالموضوع ؟ الشيخ سيد تريد كبشاً بقرنين .. وفى جبهته غرة بيضاء . الكبش ثمنه على الأقل خمسون جنيها . من أين آتى بها .. وإذا أتيت بالجنيهات وبالكبش فهل يوافق أبو إبراهيم ؟! وإذا وافق أبو إبراهيم ، ورآنى أهل الحارة خارجة بالكبش .. ماذا عساهم يقولون ؟ أم إبراهيم حدث لها لطف — والعياذ بالله — بعد حبس ولدها . اللطف عند أهل بلدنا خطوة نحو الجنون . ماذا أفعل ؟ يارب .. ساعدنى ، وخذ بيدى .

عادت زينب من المدرسة ، فوجدتنى راقدة على السرير ، فقد جئت من رحلة الشيخ سيد مشتتة الذهن .. مذعورة الفواد . تركتْ حقيبة المدرسة بجوارى ، وذهبت إلى المطبخ ، حتى تعد الغداء قبل أن يصل أبوها من المحكمة .

— مالك يا ماما ؟

ــ تعبانة يا حبيبتى .

ــ كل هذا بسبب خروجك مع أم عائشة .. ليتك ما خرجت .

ــ يا ليت .

بعد أن تناول أبو إبراهيم الغداء مع زينب .. وصلى الظهر . جلس إلى جوار زوجته ، التى تبدو حزينة مرهقة .

ــ مالك يا أم إبراهيم ؟

ــ تعبانة ومشغولة البال . ألم تعرف أحداً يوصل إلى مكان إبراهيم .

ــ كل الطرق مسدودة يا حاجة .

ــ بقى طريق ، لابد أن نمشى فيه .

ــ ماذا تقولين ؟

ــ الشيخة سيد عندها حل .. نوفى النذر قبل أن يرحل القرموط إلى بحار الكفار ، ونفك ضيقة إبراهيم يا أبو إبراهيم .

ــ ماذا تقولين يا امرأة ؟

ــ ما سمعته .

ــ كيف عرفت هذا ؟

ــ سمعته بأذنى هاتين من الشيخة سيد نفسها .

ــ أول مرة ترتكبين خطأين .

ــ من أجل إبراهيم أفعل أى شىء .

ــ الإنسان العاقل ، لا يحل أزمة بمشكلة .

ــ خمسون جنيها تحل المشكلة .

ــ نفيسة .. (لأول مرة يناديني باسمى مجرداً ، وعيناه تشعان غضباً) . لولا ظروف إبراهيم ، لكان لى معك شأن آخر .

لهجة التهديد تبدو واضحة فى كلامه . أول مرة أجادله :

ـــ ألا تريد أن تطمئن على إبراهيم ؟

ـــ أريد منك شيئاً واحداً .

ـــ ما هو ؟

ـــ لا تجعلى الأزمات تفقدك عقلك .

سكت .. احترت .. هل كان ينبغى أن أعترف لرجلى .. أم أن الحكمة كانت تقتضى ألا أخبره إلا بعد أن أوفى النذر ، وأبطل العمل ؟! عينى عليك يا إبراهيم ، حتى والدك يحول دون إزالة كربك . ربى ماذا أفعل ؟! أول مرة أرى الرجل غاضباً بهذه الدرجة الحادة . ماذا جرى لك يا أبو إبراهيم ؟! ما بين الرغبة فى الاطمئنان على الولد ورضاء الزوج ، كنت مثل الفولة التى تتقلب على النار . الشيخ سيد تريد كبشاً قبل يوم الجمعة .. وأحمد أفندى لا يريد أن أذهب ، بل لا يحب أن أعيد الكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى . يا إلٰهى ألهمنى الرشد والصواب .!

زارتنى الليلة أم عائشة .. أخذت تذكرنى بضرورة الذهاب مرة أخرى للشيخ سيد ، وإحضار النذر فداء لإبراهيم . قلت :

ـــ والله أبوه غير موافق .

ردت فى دهشة :

ـــ هذا آخر ما كنت أتوقعه منه .

ـــ إنه لا يعتقد فى هؤلاء الناس ، ويعدهم نصابين .. هكذا قال لى .

ـــ لو كانوا نصابين ما ذهب إليهم أحد . قد رأيت بعينيك . هؤلاء الناس بركة .. يحاولون مساعدة الغلابة أمثالنا بما أتاهم الله من فضله .

ـــ هل الشيخة سيد رجل أم امرأة ؟

ـــ لماذا ؟

ـــ أريد أن أعرف .

ـــ العالم المباركون هؤلاء .. لا أنس ولا جن .. لا رجال ولا نساء .. لا طير

ولاحيوان ، إنهم كائنات من طراز خاص ، علمه عند المولى سبحانه وتعالى .

— لم تجيبى عن سؤالى .

— لنا الظاهر .. ولله الباطن .

فى اللحظة التى حاولت فيها الشيخة رقيتى وقراءة الدعاء ، كانت يداها وعيناها ومنظر وجهها ، توحى بأن الشيخة ليست امرأة عادية . أم عائشة ترى أن الجن الذى ركبها ، واسمه « الشيخ سيد » أحياناً يتغلب عليها ، ويجعلها تفعل ما يريد هو . أحياناً أخرى تتغلب « الحاجة مرزوقة » ، وتجعله يفعل ما تريد هى ، لذلك تتغير حالاتها من وقت لآخر .. وهذا سر من أسرار الكرامات . سألتها لم اختار « العفريت » هذه المرأة دون نساء العالمين ؟. فذكرت أنها خرجت فى ليلة قارصة البرد لقضاء الحاجة ، وكانت مستعجلة ، لأنها محصورة بسلس البول ، لذلك دخلت « بيت الراحة » دون أن تقول : « اللّهم أعوذ بك من الخبث والخبائث » . بعد خروجها من « بيت الراحة » تخفى لها جنى فى هيئة قط أسود عند الباب ، فلما اقتربت منه خافت وارتعشت .. ولم تذكر اسم الله الكريم . وهنا تطاول القط إلى أن صار فى حجم المارد . ظل يزمجر ويصيح بكلام غريب عجيب ، لا تفهمه المسكينة . بعد أن اختفى ظنت أنه راح بعيداً ، فإذا به قد ركبها ، ودخل فى أعماق جوفها ، وشاركها جسدها منذ تلك اللحظة . هذه المسكينة تعيش حياتين : واحدة مع البشر .. وأخرى مع العفاريت . وقد استطاعت بفضل إيمانها وتقواها أن تهدى العفريت .. وتجعله من عباد الله الصالحين . شئ لله يا شيخ سيد .!!

ما كادت أم عائشة تخرج إلا ودخل زوجى ، كأنما كان ينتظر ذلك بفارغ الصبر .

— لم أعد أستريح إلى هذه المرأة .

دخلت زينب .. وفى يدها كتاب تذاكر فيه . أحسست أن الموقف غير

عادى فسألت :

ـــ هل أنت متضايق يا بابا ؟

ـــ نعم .

ـــ منى .. أم من ست الحبايب ؟

ـــ لا .. قصدى ..

ثم سكت ، وهو يحرك مسبحته ، وقد لبس جلبابه الأبيض والطاقية .

قالت :

ـــ إذا كان هناك أمر خاص .. أخرج .

فرد بثقة :

ـــ لا .. لم تعودى صغيرة . ابقى واحكمى بينى وبين أمك .

ـــ خيراً يا بابا .

ـــ أعطى أمك والسيدة أم عائشة قميصاً لك ، ليحضرا لك عريساً عن طريق الشيخ سيد ، حلال العقد .

ـــ نعم .. ماذا تقول .. ماذا تقول يا بابا ؟

ـــ أمك السيدة العاقلة ، سمعت كلام المرأة ذات العقل المخروم ، وذهبت للشيخ سيد .

ـــ الشيخ سيد يا ماما ..؟!

ـــ كل القضاة والمستشارين ورجال الأمن الذين أعرفهم ، عجزوا عن معرفة ظروف إبراهيم .. ومكانه . لكن الشيخة أو الشيخ سيد هو الذى سيفك عقدته ويحل مشكلته . تصورى .. تصورى يا زينب . هل تصدقين أن ماما السيدة العاقلة تفعل هذا ؟

ـــ معقول يا ماما ؟

ـــ الأولياء جاء ذكرهم فى القرآن الكريم يا زوبة ، والحسد كان . ربنا قال :

﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ .

— صحيح يا بابا ، أولياء الله ورد ذكرهم فى كل الكتب السماوية .

— أولياء يا ابنتى .. وليس الشيخ سيد المجذوب .. أو المحتال .. الله أعلم .

— يا رجل .. حرام عليك .

بدا أبو إبراهيم منفعلا . كان متكئاً فجلس ، وأصلح وضع الشبشب فى قدميه . نظر ناحيتى .. ثم قال بنبرة حادة :

— ماذا جرى ؟ نحن فى عصر ، كل شىء فيه قابل للبيع والشراء . السياسة يتاجر بها الطغاة أكثر من الأحرار ، والدين يتاجر به الأشقياء أفضل من الأولياء . القيم لم يعد لها وجود .

— كلامك صحيح يا بابا ، كل المدرسين يكرِهون التلميذات على الدروس الخصوصية ، حتى مدرسى اللغة العربية والدين .

— يا بنتى .. الفساد ، إذا انتشر فى البلاد ، شلت الجياد ، وانتشر الجراد . الساعة اقتربت ، لأن ميزان كل شىء مقلوب .. مقلوب .

قالت زينب :

— المناقشة حامية ، لكنها لن تنتهى . لم أعمل واجب اللغة الإنجليزية .

صمتت برهة ، ثم استطردت :

— لو أبيه إبراهيم هنا ...

ثم جرت باكية نحو الصالة .

حينما جاء ذكر إبراهيم بكيت وبكيت . بكيت مرة لأنى أغضبت زوجى .. وبكيت مرات ، لأنى فقدت ولدى .. متى ستعود يا إبراهيم ؟!

لحظة رآنى الباشا باكية ، نسى ما كان يتحدث فيه .. انتقل إلى جوارى فوق السرير . أخذ يربت على كتفى . احتوانى بين ذراعيه :

— كفاية يا أم إبراهيم صحتك لا تتحمل .

أم عائشة قبل أن تخرج همست فى أذنى :لا تتأخرى .. موعدنا غداً مع الشيخ سيد . لا يا أم عائشة .. ضاع الولد غصباً عنى ، لكنى لن أضيع الزوج بإرادتى . الشيخ سيد فى أول مقابلة عمل ما عمل . الله أعلم ماذا يمكن أن يحدث فى اللقا الثانى والثالث ؟

قلت باكية :

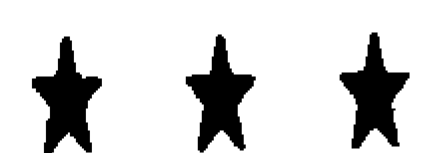
— سامحنى يا سى أحمد أفندى .. عشان خاطر إبراهيم .

فرد بجملة لم أفهم معناها بدقة :

— يبدو أن اعتقال إبراهيم مصيبته أبعد مما نظن أو نرى .!!

قلت :

— ربنا كبير ، يلطف به وبنا .!!



٧ ـــ المدينة .. والشمس الحزينة

طالت مدة الحبس . أحسست أن الزمان قد توقف .. والمكان قد تحجر . الحركة حياة ، الثبات موت بطيء ، يقتل كثيراً من معانى إنسانية البشر . سوء الطعام وخشونة المعاملة وانقطاع الصلة بالعالم ، زاد وطأة الإحساس بالقهر والظلم . أصيب بعضنا بأمراض جلدية ونفسية مزمنة مثل الربو .. التهاب الرئتين .. ضعف السمع .. عشى البصر .. الكبد .. القولون .. البروستاتا .. البواسير .. التهاب الكليتين .. الاكتئاب .. الشيزوفرينيا . السجن سفينة ضالة ، تحمل جماعات من الإخوان والشيوعيين وبعض من أسموهم القوى المضادة وغير محددى الهوية .!! بعضهم حقق معه .. وبعضهم ـــ بعد مضى ما يقرب من سنتين ـــ لم يجر معهم أى تحقيق ، ولم يعرف حتى الآن سبباً لاعتقاله ، بالإضافة إلى فئة من المسجونين ، يقضون عقوبة بعض الجنح أو الجنايات .

تعمدت إدارة السجن ألا تفرق بين اليمين واليسار ، أو بين كبار السن والصغار ، أو بين المعتقلين سياسياً وعتاة الإجرام . يبدو أنها رأت أن تلك التوليفة غير المتجانسة ، قد تسمح بالمناقشات والخلافات والصراعات على مستوى الفكر أو الأيدى أو الأقدام . وقد حدث هذا كثيراً ـــ خاصة فى أيام السجن الأولى . كان الحراس إذا علموا بذلك ، وضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وأغمضوا عيونهم ، حتى تضعف كل فئة الأخرى . أكثر من هذا أنهم نجحوا فى أن يغروا بعض الأفراد من كل طائفة ليكونوا عيوناً على الآخرين ، لذلك فقد دخل البعض السجن باعتبارهم مناضلين ، وخرجوا منه « مخبرين » . فبأى آلاء ضباطكم فى المباحث تكذبون ؟!

واحد من الأدباء أو المفكرين — لست أدرى على وجه التحديد — ذكر أن الزمان ، هو العدو الأول للإنسان .. هذا فى اعتقادى غير صحيح . عداوة الزمان معروفة وعادلة ، لأنها تسقى البشر جميعاً من كأس واحدة . العدو الحقيقى للإنسان هو الإنسان نفسه . أول دمٍ سفك على الأرض طعنة أخ لأخيه ...

﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، إذ قربا قرباناً ، فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين . إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين. فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ... ﴾(١) .

« وكلّم قايين هابيل أخاه . وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله . فقال الرب لقايين : أين هابيل أخوك . فقال لا أعلم ، أحارسٌ أنا لأخى ؟ فقال ماذا فعلتَ . صوت دم أخيك صارخٌ إلىّ من الأرض ، فالآن ملعون أنت من الأرض ، التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك »(٢) .

---

(١) القرآن الكريم : سورة المائدة ، الآيات ٢٧ — ٣٠ .

(٢) العهد القديم : سفر التكوين ، الإصحاح الرابع .

« سمعتُم أنه قيل للقدماء لا تقتل . ومن قتل يكون مستوجبَ الحكم . وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجبَ الحكم . ومن قال لأُخيه رقا ، يكون مستوجب المجمع . ومن قال يا أحمق يكون مستوجبَ نار جهنم »(١) .

***

الرجل الذى ازددت قرباً منه مع الأيام ، هو الشيخ عبد الله خضر . سألنى عصر ذات يوم ، ونحن نجلس تحت شجرة فى فناء السجن :

ـــ أنت شاب نقى ، كل ما تكتمه فى صدرك ، يظهر فى عينيك .

ـــ هذه ميزة أم عيب ؟

ـــ علامات النقاء ، تعد عيوباً فى الزمن الردىء .

ـــ الذى يقلقنى كثيراً أنه مضى على اعتقالى ما يقرب من سنتين ، و لم يحققوا معى . يبدو أنهم نسونى .

ـــ لا يا بنى .. هؤلاء لا ينسون أحداً . إنهم قوم سولت لهم أنفسهم الظن بأن أبناء مصر ، أكثر خطراً عليها من الصهيونية والاستعمار وكل قوى الشر فى العالم .

ـــ وما العمل ؟

ـــ الصبر عند القضاء ، والدعاء يخفف البلاء ، كلما اشتدت المحنة اقترب موعد الفرج . يا بنى .. إذا لم تصبر على عذاب الدنيا ، فكيف تقدر على عذاب يوم القيامة ؟ قل : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ . ﴿ ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ﴾ .

---

(١) العهد الجديد : إنجيل متى ، الإصحاح الخامس .

— لقد دمروا مستقبلى وحطموا حياتى .. كل شىء .. كل شىء ، ضاع منى .. وظيفة معيد والبعثة .. وحلم الأسرة و ..

كدت أقول : « وحب عبير » . أوه .. حتى عبير نسيتها . من يعش فى الظلام لا ير نوراً . نور البصر قد يغيب أو يضيع .. المهم نور البصيرة . ماذا تجدى الدنيا وما فيها ، إذا لم تسلك طريق السفر إلى الله ، حيث لا أين ولا زمان ، وحيث لا أنت ولا أنا ، بل أنت أنا ، والكل فى هو هو ، لأن القلب المسافر متجه بعينى البصيرة إلى الله ، ناظر إليه ، متلهف لأبواب القرب منه . فاللّهم إنى أسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب كل عمل يقربنى إلى حبك . هدأت الروح المغتربة فى الجسد المعذب بفضل ذلك الرجل الصالح .. الذى صار طبيب روحى وبلسم قلبى .

فى ليلة لا تنسى من ليالى الصيف الحزينة ، اشتدت درجة الحرارة ، وارتفعت كثافة الرطوبة . كنا نحاول النوم ، والنوم عصىّ الاستجابة ، وإذ بصوت الحراس يصيح صيحة رجل واحد فى آن واحد ، يأتى من البعد ومن القرب ، يأمرنا بالتجمع فوراً :

— مساجين .. اجمعوا بالخطوة السريعة .

هُيّئ لنا — ونحن نهرول استجابة لصوت الدعوة الصارخة بالتجمع فوراً — أن هجوماً من بعض الوحوش الضارية ، سوف يقع على المعسكر .. أو أن زلزالا على وشك الحدوث .. أو أن الحرب العالمية الثالثة قد بدأت .. أو أن عظيما قد مات — هناك أمر ما .. جليل ، جعلهم يجمعون ما يزيد عن ألف وخمسمائة معتقل وسجين .. فى هذه اللحظة الرهيبة من قلب الليل .

فى الطابور كل منا يعرف مكانه جيداً مع أفراد زنزانته وعنبره . الرجل العظيم الذى أمر بالتجمع ، ضابط صغير فى حوالى الخامسة والعشرين ، جمعنا من أجل

أن نشهد حدثاً تاريخيا ، هو ولادة إحدى كلبات السجن . ونظراً لأن ولادة الكلبة الرقيقة المسكينة الست « فلة » متعسرة ، فلابد أن نأتى جميعاً إلى مرقدها وندعو الله ، لكى يخفف عنها الآلام ، ولن نبرح أرض الطابور ، حتى تلد « فلة » هانم.. التى كانت تعوى بصوت متألم متقطع ، لا يدرى حضرة الضابط العظيم كيف لم تتأثر قلوبنا الغليظة به ؟!

عزت علينا نفوسنا ، حتى المجرمين الحقيقيين تذمروا من هذ العمل الحقير . بين الدهشة والحسرة صاح الضابط :

— تدعون أنكم من عباد الله الصالحين ، وتلك دعواتكم لم تستجب . يا حراس اضربوا أولاد الكلب ، حتى يدعوا بإخلاص لفلة المسكينة .

بين الدعاء .. والرجاء .. والبكاء .. هاج المعسكر . نجرى .. والحراس يجرون خلفنا بالعصى والكرابيج فى ليل مظلم حار مشبع بالرطوبة . خفت على الشيخ عبد الله . أمسكت يده ، حتى لا يقع . الحذر .. لا ينجى من القدر ، وقع الشيخ . وقفت أساعده ، حتى يقوم من حيث وقع . اختلط صوت الهرجلة بالصياح .. والبكاء .. والدعاء .. والعواء . أبصرنى الضابط بجوار الشيخ ، صاح :

— ماذا تفعل .

— الشيخ عبد الله وقع على الأرض .

— هو قريبك ؟

— والدى .

— لابد أن تساعده .

— هذا ما أحاوله .

— أنتم عصاة متمردون .. أعظم مساعدة لكم هى الأذى . (ازدادت حدة صوته) : اضربه حالا .. اضرب ..

تمنيت فى تلك اللحظة ألا أكون قد ولدت . كيف يضرب إنسان ضعيف مثلى ولياً من عباد الله الصالحين . ملعون فى الأرض والسماء ، من يمد يده بسوء إليه . قلت غاضباً :

— استح يا رجل ، فأنت لا تعرف من تخاطب .. ولا على من تتكلم ؟!

— قلت لك اضرب أباك ، لأنه لم يحسن تربيتك .

— لن أضرب .. ولن أسمح لأحد بأن يمس شعرة من رأسه .

— تتحدانى يا كلب ؟!

لم أعرف ماذا وقع بعد ذلك ، فقد حدثت معركة ، لا أعلم لها أبعاداً بينى وبين الضابط المتعجرف صفوت مرتضى ، لأن المعركة لم تحدث بينى أنا وهو فقط ، بل تدخل فيها بعض الجنود لمناصرة رئيسهم . حدثت لى إغماءة إثر ضربة حادة على رأسى .. كما كسر ضلع من الجانب الأيمن من صدرى . لولا استغاثة الشيخ عبد الله .. والإغماءة الطويلة التى حدثت ، لكنت قد مت .. هكذا أخبرنى بعض شهود المعركة .

أقمت فى الحجرة عدة أيام عالج فيها الزملاء بعض ما أصابنى من كدمات وجروح ظاهرية . لكن موضع الضلع ظل يؤلمنى بشدة . خشى بعض ذوى الخبرة الطبية — مثل نبيل بولس وشوقى عبد الحميد من حدوث نزيف داخلى . كنت ألمح فى عيونهم نظرة شفقة ، تؤكد أن حالتى الصحية خطيرة . حين يرانى الشيخ عبد الله يبكى بكاء حاراً ويقول :

— سامحنى يا بنى .. أنا السبب .. أنا السبب .!!

اشتكى سكان الزنزانة لكل من قابلوهم من الجنود والضباط ، لكن الجميع عملوا أذناً من طين وأخرى من عجين ، فاضطروا إلى الإضراب جميعاً عن الطعام والاعتصام فى الحجرة . قلت للأستاذ على شبكة ، وهو يقدم لى كوباً من الشاى :

ـــ لا أريد أن يحدث لأحد مكروه بسببى ، خاصة عمى الشيخ عبد الله .

ـــ لا تشغل نفسك بنا .. أنت مسجون حديث .. أما نحن فنعرف جيداً ، كيف نتعامل مع هؤلاء الكلاب .

انتشر خبر مرضى .. وإضراب سكان زنزانتنا فى السجن .. بشكل أرق المأمور نفسه ، لأن معظم المساجين أبدوا تعاطفاً معنا ، حتى المجرمين منهم قالوا : إننا أسرة واحدة على الحلوة والمرة . بالطبع لم أكن السبب فى كل هذه المظاهرة الشاملة ، لكنه الشيخ عبد الله .. وحبهم له ، وحزنهم على ما حدث هو السبب الأول والأخير ، لأن الجميع كانو يرونه رجلا مباركاً ، لا يغفر الله لمن يسئ إليه . حدثنى بعض الزملاء أيضا أن الملازم صفوت اختفى ، لأن مجرد ظهوره ، كان يثير حافظة كل المعتقلين والمسجونين .

أدى هذا الحادث العارض إلى توتر العلاقة بين النزلاء وإدارة السجن ، بعد أن كانت قد تحسنت واستراحت نوعاً ما ، ونشأت بيننا صلة فيها قدر من التعارف والتآلف ، فنحن وهم ضحية .. ضحية كل ما يحدث خارج السور ، فهم ليسوا السبب فى اعتقالنا . ما يفعلونه معنا .. إنما هو أداء لعمل رضوا أن يقوموا به منذ انضموا إلى رحاب وزارة الداخلية .

أحيط مأمور السجن ـــ الرائد أشرف زعتر ـــ علماً بتفاصيل كل ما وقع . فطلب حضورى إليه ، فأخبروه أنى لا أستطيع المشى ، فأمر بإحضارى على نقالة . لكن الزملاء خافوا على ، فقد يأخذونى ويرمونى فى أية داهية ، ويقولون إنه محجوز فى المستشفى . وأصروا على واحدة من اثنتين : إما أن يحضر المأمور والطبيب إلى الزنزانة .. أو أن يذهب الجميع معى إلى حجرة المأمور .. ذلك شرطهم لفك الإضراب عن الطعام ، وعدم تحريض بقية المعتقلين للتضامن معهم .

بعد أن جاء المأمور لعيادتى ومصالحة زملائى فى الزنزانة ، قرر نقلى للعلاج

فى أقرب مستشفى ، وهو مستشفى مدينة أسيوط . قلت فى نفسى ، وأنا أرقد على أرض العربة فوق بطانية .. فى حراسة جنديين وضابط وطبيب : رب ضارة نافعة . أول مرة أشم هواء نقياً .. بعيداً عن أسوار سجن الواحات . لم أكن هذه المرة معصوب العينين .. ولم تكن النافذة الصغيرة مغلقة ، ولم يكن الشرطى يضع حذاءه فوق صدرى . كنت أرقد فى الصندوق مع الشرطيين ، بينما الضابط والطبيب بجوار السائق . عند كل نقطة مرور أحسست أن هناك حفاوة بالغة بهذه العربة ، التى تقل شخصاً عظيم الأهمية Very Important person .. واختصارها (V. I. p.) . مع اهتزاز حركة العربة .. كنت أتأمل حياتى التعسة .. أتذكر أهلى .. كل مدينة المنصورة .. كل زملائى وأساتذتى فى قسم اللغة الإنجليزية ، تذكرت عبير قنديل وبسمتها المشعة . هل ما زالت تحبنى ؟ لا .. لا حب إيه . أقصد هل ما زالت تتذكرنى ؟ أحسست أن شوقى إلى الجميع قوى .. سمر .. نبيلة .. عبير .. يحيى ، حتى طارق فهمى نسيت حقده على وكراهيته لى . المهم أن أعود .. وأن تعود الأيام . تذكرت عبير ، لكن .. حتى إذا عدت إلى الجامعة .. فلن تكون هى إياها . نعم .. لا أنت أنت ، ولا الزمان هو الزمان ..!!

حين نزلت من السيارة ، وجدت حالة طوارئ قصوى فى المستشفى .. كأنما مسئول عظيم ، جاء لتفقد أحوال الرعية . الذى أسعدنى فى المقام الأول هو رؤية الناس والشوارع وحركة البشر .. ياه .. ياه .. من كان يصدق أن يرى مرة ثانية الناس تلبس ملابس عادية .. بيضاء .. وزرقاء .. وحمراء .. وسوداء .. هذه سيارة خاصة .. وتلك عربة أتوبيس . ما هذا ؟! آنية زهور .. مبنى عادى .. ناس تدخل ، وناس تخرج .. هكذا أحراراً ، لا يستأذنون .. ولا يمنعون ، ولا يسألون .. أين يذهبون . هذا هو البعث الحقيقى ..!!

يا أهل أسيوط الكرام .. أبشروا فقد حدثت فى مدينتكم هذه .. وفى زمانكم

هذا معجزة .. بُعث إليكم واحد من أهل الكهف . كنت محمولا على النقالة إلى حجرة العمليات ، لكننى نسيت جروحى حين بعثت من جديد . تمنيت أن أصافح كل واحد من الأهالى قائلا : إلىّ إلىّ .. فقد اعتقلتُ ظلماً من أجل الدفاع عنكم ، والنضال من أجل حقكم فى الحياة . عجيب .. عجيب أن يدافع المسجونون عن الطلقاء ، والمتهمون عن الأبرياء .!!

بعد أن أجريت عملية جبر الضلع ، زارنى مدير المستشفى ومأمور الشرطة ، لأنى استبقيت مدة ، حتى يتم شفائى . لمست حفاوة بالغة من كل الذين تعاملوا معى . أحسست أن الناس الذين اعتقلت ظلماً من أجلهم ، يستحقون كل ما يصنع لهم . بدأ يتولد داخلى إحساس أنى بطل . أليس البطل إنسانا يحب وطنه .؟! أنا أول المحبين .. وواحد من المعتقلين . أنا معتقل .. إذن أنا بطل . لم يكن هذا الإحساس الوليد ، هو الأمر الوحيد ، الذى ظفرت به خلال هذه الرحلة المباركة ، وإنما حققت أمرين آخرين يعدان نصراً مؤزراً ــ بالنسبة لسجين ضعيف مثلى :

الأول : أننى كتبت خطابا لأهلى ، وطلبت من أحد الأطباء ، الذين توسمت فيهم خيراً ، أن يرسله إلى أبى .

الثانى : استطعت أن أحمل جريدتيْن معى ، طلبت من الممرض أن يلفهما داخل الشاش الذى ربط به صدرى .

فى أثناء العودة .. رأيت من طاقة صندوق عربة الشرطة ، منظر صحراء لا متناهية الحدود . هذا هو تراب مصر يا إبراهيم .. وتلك أرض مصر ، التى لا يعرفها كثير من المصريين . متى نستطيع أن نعمر هذه الأماكن القاحلة ، وأن نقيم فى هذه الصحراوات المهجورة ، مدائن وقرى معمورة ؟! متى تخضر الصحراء .. وتشرق شمس الأمل .. ويسعد الفقراء .. ويتحرر المعتقلون ظلماً .. متى أيتها الشمس الحزينة .. متى .. متى ..؟!

نشوة الزملاء بالجريدتين ، تعدل فرحتهم بعودتى متماثلاً للشفاء . الخبر اليقين هو أن الحرب بين مصر وإسرائيل واقعة لا محالة .. قوات الجيش والاحتياط ، بدأت تغطى أرض سيناء — رغم أن الجيش ما زالت منه أعداد كبيرة ، تحارب فى اليمن الشمالى . حين يرانى الشيخ عبد الله يقول :

— أصغر واحد فينا ، هو الذى تكسر ضلوعه ، وتعمل له عملية . أليس ذلك عجيباً يا عباد الله .؟!

فيرد عليه الجميع :

— صحيح يا مولانا .

ينظر ناحيتى ويقول :

— هذا البلاء اختبار من الله ، ونجاتك منه برهان أكيد على أن الله يحبك ، وأنه راض عنك . لكن إياك أن تغرك الحياة الدنيا . قل : ﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك ، التى أنعمت على وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ .

بينما أردد الدعاء خلف الشيخ ، اضطربت نفسى حين تذكرت والدىّ .. ماذا جرى بعد رحيلى .. وكيف سيكون تأثير الخطاب عليهما ؟ عندما ذكرت ذلك للشيخ عبد الله قال :

— أبشر يا بنى ، فسوف يكون خطابك مثل قميص يوسف عليه السلام ، حين وصل أباه يعقوب . فصبر جميل والله المستعان .

قبل أن يمر على عودتى إلى المعتقل أسبوع واحد ، تغيرت .. واختلفت الحالة . إذ لم تعد هناك أوامر بالقيام مبكراً .. والعمل فى مزرعة السجن .. أو طوابير الشمس .. أو طوابير التمام المسائية . حدث بتعبير مجدى الأسيوطى : « انقلاب ليبرالى فى إدارة المعسكر » . أكثر من هذا لأول مرة .. سمعنا صوت الراديو فى مكبر صوت ، يصل إلى كل النزلاء .. خاصة فى موعد إذاعة نشرات الأخبار .

لم نكن نعلم شيئاً .. لكن إدارة المعسكر كانت تدرك أن كارثة قد حدثت ، تلك الكارثة الكبرى هى ما أسموه « النكسة » — وسواء سموها نكسة أم وكسة .. هزيمة أم كارثة .. فقد أحس بعض الزملاء أن ما حدث انتقام إلٰهى .. لما حاق بنا ظلماً ، وما وقع علينا دون ذنب .. وقالوا : « إن ربك لبالمرصاد » .!!

قال على شبك :

— هذه النكسة لم تقع مصادفة ، وإنما نتيجة حتمية .. لكل ما يحدث فى بلادنا .

قال صفوت حسنين :

— ماذا صنع الحكم الجديد بمصر ، أخرج الإنجليز من الشباك ، وأدخل اليهود من الباب .. متى يمكن أن يخرجوا بعد أن احتلوا سيناء كلها .!!

قال السعيد حجازى :

— ما حدث .. سببه أن القلوب لم تعد عامرة بذكر الله .

صاح مدحت عبد البديع :

— كل أمر أصبح اليوم علماً ، لكن حكومتنا لا شأن لها بالعلم أو الفكر المادى . العلمانية سر تقدم كل الشعوب .

علق مجدى الأسيوطى :

— لو كان الوفد يحكم ما حدثت النكسة ، ولا غابت شمس الديمقراطية .

قلت :

— ليس مهما البحث عن أسباب النكسة ، وإنما الأكثر أهمية ، هو البحث عن مخرج .. عن حل للهزيمة .

قال نبيل بولس :

— ما حدث يصعب إيجاد مخرج له .

قال الشيخ عبد الله فى أسى وحسرة :

﴿ قل اللّٰهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير ﴾ .

تأملت رفاق الزنزانة الملعونة . كأنها المرة الأولى التى أراهم منذ زمن طويل . صار الجميع أشباحاً وهياكل عظمية . لولا العيون المؤرقة ، لحسبت أنهم موتى . ما حدث لهم شبيه بما حدث للوطن . لكن من .. من يصدق أن مائة مليون عربى ، يهزمون أمام مليونى مشرد . يا إلٰهى لماذا تنتحر الأشواق .. فى الأحداق ، وتهجر الشمس الحزينة .. طرق القرية والمدينة ، ويأتى نهار أسود ملبد الغيوم ، ويقبل ليل بلا قمر ولا نجوم . وتصبح رؤوس الأسود على أجسام الكلاب ، ورؤوس الكلاب على أجساد البشر ، وتتحول الأزهار والثمار ، إلى حصى ومحار ؟! يبدو أن ما حدث يعد بداية انفراجة وتغيير ، إلا أنى حزين .. حزين .. حزين يا بلدى . أتمنى أن أستريح ، حتى لو كانت الراحة الأبدية . فقد تعبت .. تعبت . يا رب .. علمك بحالى ، يغنى عن سؤالى .!!

بدأنا نشهد ما وصفه الأسيوطى بأنه « انقلاب ليبرالى » . تحسنت معاملة الضباط والجنود . لم تعد هناك أوامر تذكر . الزنازين تفتح صباحاً ولا تغلق إلا فى ساعة متأخرة من المساء . ليس ثمة عمل فى مزرعة السجن أو فى غيرها .

زيادة ملحوظة فى تموين الشاى والسكر ، الذى يصرف لكل زنزانة . لم تعد هناك قيود على تدخين السجائر . الراديو صوته يأتى مجلجلاً طوال اليوم من خلال مكبر الصوت .

المفاجأة الكبرى .. التى تعد مفاجأة بحق ، هى أن مأمور السجن دعا إلى عقد طابور ، لأنه يريد أن يتكلم معنا . لم يكن هذه المرة يركب حصاناً . طلب منا أن نجلس ، حتى نستريح فى أثناء كلامه . بدأ يتحدث عبر مكبر صوت فى يده ، بصوت هادى وقور :

ــ أيها الإخوة .. أرجو أن تكونوا على مستوى المسئولية واللحظة التاريخية .

ليس بين إدارة المعتقل (تعمد ألا يقول السجن) وبينكم أى خلاف أو خصومة .. لكننا — مثل الكثيرين منكم — موظفون .. نؤدى عملنا . على كل حال ، أرجو أن تسامحونا ، إذا كان قد حدث تجاوز أو تقصير . هناك أمور كثيرة خارجة عن أيدينا . وسوف تشهدون فى الأيام القادمة — بإذن الله — بعض ما يرضيكم ، ويجعلكم تنسون ما حدث معكم — هل ما حدث يمكن أن ينسى يا سيادة المأمور .. كيف ينسى إنسان ضاع مستقبله .. أو رب أسرة تمزقت أسرته .. أو رجل شريف يظن أن بعض الناس أنه مسجون ، لأنهم لا يفرقون بين معتقل سياسى وبين سجين مجرم .؟! — غدا سوف توزع عليكم الأوراق والأقلام ، لتكتبوا خطابات إلى أهاليكم .

صاح بعض الإخوة .. الله أكبر ولله الحمد .. سرت همهمات .. وابتسامات .. وضحكات . وارتسم السرور على الوجوه :

— أرجو أن تسكتوا حتى أتم كلامى ..

— تفضل أكمل يا سيادة المأمور .

— بالطبع غير مسموح بالرد على خطاباتكم ، لذلك ينبغى ألا تكتبوا العنوان .. ولا تذكروا أين أنتم .. — غابت الفرحة التى ارتسمت برهة على الوجوه ..

— ولكن سوف نسمح لهم بزيارتكم هنا — حسب اللوائح والأوامر ، بعد تقديم طلب تصريح بالزيارة من مأمور قسم البوليس ، الذى يسكن فيه كل منكم .

بعد أن انتهى خطاب المأمور ، جلسنا فى حلقات نتأمل ما حدث .. ونتناقش فيه ، علق صفوت حسنين على الخطاب بقوله :

— هل كان لابد أن تحدث معجزة ، حتى يدركوا أننا أبرياء .

قال محمد البدراوى :

— الحمد لله ، الذى أمننا بعد ضعف ، وثبت قلوبنا بعد خوف .

رد على شبكة :

— هذه النكسة أوضح دليل على أن السفينة ، لا تسير فى الطريق الصحيح .

قال شوقى عبد الحميد :

— بالمناسبة .. توقفت الملاحة فى قناة السويس .

قال نبيل بولس :

— يعنى هزيمة ، وخراب خزينة .

قال مجدى الأسيوطى :

— إذا كان من الصعب أن تؤدى أى خدمة للوطن ، فمن الأفضل أن تهتم بأسرتك . أنا والله لا أعرف ماذا حدث لأولادى فى خلال هذه المدة ، التى قضيناها فى هذا المعتقل الرهيب .!!

وضع الأسيوطى دلواً من الماء البارد على سطح صفيح ساخن . شرد كل فرد ، كأنما تذكر جرحا غائراً فى قلبه . الحبس .. موت مؤقت . وقد متنا جميعاً بالنسبة لأهلنا ، فنحن لا نعرف عنهم شيئاً ، وهم لا يعلمون عنا شيئاً .. بم يمكن أن نسمى هذه الفترة الضائعة من الحياة ..؟! جزء ضائع من العمر .. ليس هذا فحسب ، بل إنها قد تؤثر فى النفس والجسد تأثيرات غائرة ، تشوه حياة المعتقل طوال حياته فيما بعد .

لست أدرى .. لم يختلف الناس فى حب الوطن ..؟ إذا كان الناس يختلفون فى عبادة الله ، فمن باب أولى أن يختلفوا أيضاً فيما عدا ذلك . المأساة أن كل فريق يدعى أنه وحده الوطنى ، ومن عداه خونة أو على الأقل عملاء . لا جدوى من التفكير فى أى شىء .. كل الطرق مغلقة . نحن — المعتقلين — بشر مع إيقاف التنفيذ . لا .. لا فائدة . أفضل طريق هو السير على هدى من رؤية الشيخ عبد الله . يجب أن نسقط التدبير ، وأن نترك كل شىء لله . من يتوكل على الله فهو حسبه ، ونعم الوكيل . أفضل شىء فى الحياة هو .. أن لا تملك شيئاً ، ولا يملكك شىء ، وأن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . أتمنى

أن يتوحد كل البشر فى الدين والسياسة والفكر .. أو على الأقل يتصالحون ويتسامحون ، ويكون شعارهم : قد أختلف معك فى الرأى أو المعتقد ، لكننى على استعداد للتضحية بروحى دفاعاً عن رأيك أو عقيدتك .!!

احترت ــ فيما بينى وبين نفسى .. وأنا أستعد للنوم فوق سرير المعتقل ، فى يوم محتشد بالمشاعر المضطرمة ــ بعد هذه العشرة الطويلة مع الفرقاء المختلفين ــ فى تحديد موقفى الأيديولوجى ، لأن كلا منهم كان يراهن علىّ .. باعتبارى شخصاً محايداً .. من يستطيع إقناعه ، فإن فى هذا دلالة على صواب الفكر السياسى الذى ينتمى إليه . بكل أسف خيبت ظن الجميع ، حتى الشيخ عبد الله نفسه ، فأنا شاب متدين ، غير أنى لست من الإخوان المسلمين ، وإنما أمسيت أقرب إلى التدين الصوفى .. أو التصوف الفلسفى ، فأنا مؤمن بكل ما يعتقدون ، ومحب للجميع بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية ، بل إننى متعاطف أيضاً مع المجرمين ، لأن هناك ــ بالضرورة ــ ظروفاً قاهرة ، جعلتهم يتجاوزون حدود ما أحل الله ــ فأنا أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى . فمن يتبعنى منكم .. من يتبعنى يا رفاق الأعزاء ؟

أخذتْنى سِنةٌ من النوم ــ رغم أن النوم يعصانى كثيراً فى الأيام الأخيرة . رأيت فيما يرى النائم .. أنى مسافر فى سفينة كبيرة ، تخوض عباب بحر لجى ، وقبطانها مثل قراصنة العصور الوسطى قوى متين ، لكنه أعور . السفينة تمضى .. موجة تحملها ، وموجة تقذفها ، إلى أن بدت صخرة وسط البحر . طلبنا من القبطان أن نتوقف لنستريح من عناء السفر . معظم ركاب السفينة من التجار . لست أدرى ما الذى جمعنى بهم ــ رغم أنى لست تاجراً . أقمنا ليلة وبعض يوم على الجزيرة . رغبنا فى طعام ساخن . أُشعلت النيران ، وُضعت القدور فوق المواقد ، سال اللعاب انتظاراً لوجبة بحرية شهية . بينما نعد الطعام تحركت الجزيرة ، وبدأت تغوص فى البحر شيئاً فشيئاً . صاح القبطان : السفينة ..

السفينة . من كان قريباً فقد نجا .. ومن صار بعيداً فقد هلك . كنت من الهالكين ، غير أن الله رزقني بقطعة خشب كبيرة ، فأمسكت بها من حلاوة الروح ، وأخذت أرفس الماء برجلى مثل المجاديف ، والأمواج تلعب بى يميناً وشمالا . أدركت أنى لا محالة من الهالكين ، فالسفينة قد بعدت ، و لم أعد أراها ، كما بدأت قواى تخور ، لولا رغبتي الشديدة فى الحياة . بقيت على ذلك يوماً وليلة .. إلى أن قذفتنى الأمواج نحو جزيرة .. على حافتها أشجار عالية مطلة على البحر . أخذت أحاول ... إلى أن تعلقت بفرع شجرة ، وتمسكت به ، حتى صعدت إلى الجزيرة . ما كدت أرقد على أرض الجزيرة تحت ظل الشجرة ، حتى أحسست بتعب شديد فى أجزاء جسمى كلها ، خاصة وقد رأيت جروحا كثيرة فى رجلى ، بسبب محاولة الأسماك أكل لحمى ، لكننى لم أشعر بذلك من فرط تعبى . نمت مدة لا يعلم حسابها إلا علام الغيوب ، ومفرج الكروب . بعد ذلك أخذت أتقلب من التعب ، لأنى لا أقدر أن أنام على أى جنب من جوانب جسدى . كما بدأت أصدر نشيجاً وتأوها ...!!

أحس بعض الزملاء بحركتى ونشيجى العالى ، فأدركوا أنى أرى كابوساً فى المنام ، فقرروا أن يوقظونى . قام بهذه المهمة السعيد حجازى ، لأن سريره قريب من سريرى . حين أفقت استعذت بالله من الشيطان الرجيم . قال محمد البدراوى :

— خيراً .. ماذا رأيت فى منامك ؟

صاح الشيخ عبد الله :

— إذا كان ما رأيته غير سار ، وهو يبدو كذلك ، فلا تحدّث به ، فإنه من الشيطان . ﴿ ومن يكن الشيطان له قريناً ، فساء قريناً ﴾ .

جيش من النمل الأبيض .. ينهش رأسى من كل اتجاه . اشتد علىّ صداع أحدُّ وطأة من تعب كسر الضلع . يا إلٰهى لم تعذبنى .. أأنا التائه الوحيد فى هذا

الوجود ؟! اللّهم إن لم يكن بك عليّ غضب ، فلن أبالى ..!!

قال على شبكة :

ـــ كان الله فى عونه .. شاب طموح مثله ، ضيعوا مستقبله .. وشوهوا نفسيته دون ذنب .

قال مدحت عبد البديع :

ـــ يبدو أن أخبار النكسة قد جرحت مشاعره .

اعتدل نبيل بولس وكان مضطجعاً :

ـــ ليست مشاعره وحده التى جرحت .

صاح الشاويش رجب من بعيد :

ـــ يا عالم ناموا ، وسيبوا الخلق تستريح .. الله يرضى عليكم .

قال الشيخ عبد الله :

ـــ ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً ، كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا .. لا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

قال شوقى عبد الحميد بصوت هامس :

ـــ تصبحون على خير .!!

عهد جديد سعيد بدأ بالزيارات العائلية ، التى أنعشت أرواحنا وبطوننا بعد ما يزيد على سنتين كاملتين من الشقاء والبلاء والانقطاع التام عن كل ما يربط المرء بالحياة . أخذنا نستعيد الثقة بالنفس ، ونبعث ميت الآمال . الأمر الذى ساعدنى عل أن أنجو من بعض الأمراض النفسية فى هذه المدة السوداء هو حالة الصفاء الروحى ، التى ثبتتها قوة الإيمان الدينى .. بالمحافظة على الشعائر من صلاة وصوم وتلاوة القرآن والدعاء جماعة ، حيث كان الإخوة المسلمون حريصين على ذلك ، بل لقد أقنعوا بعض الرفاق الشيوعيين بالعودة إلى رحاب الإيمان .

بعد أداء صلاة ظهر يوم أربعاء لا ينسى ، سمعت من ينادى اسمى فى مكبر صوت ، لأن لى زيارة .. من جاء لزيارتى .؟ جاء أبى وحده .. أم أنها العائلة كلها .؟! تحرك يا رجل ، فعلى الأقل واحد من الأسرة ، قطع كل هذه المسافة الطويلة حتى يراك . أخذت أعدو أسرع من طائر الرخ . وصلت إلى حجرة الزيارة بجوار غرفة المأمور . الحجرة مليئة بالزوار والنزلاء والحراس . وقفت عند الباب زائغ العينين ، أفتش فى الموجودين .. فجأة رأيت أبى يتوجه نحوى سريعاً :

ـــ إبراهيم .. إبراهيم .. أنا بابا يا حبيبى .

تعانقنا .. وبكينا .. لم يكن أحدنا بقادر على أن يقول كلمة . أحس أبى ـــ بلا ريب ـــ أمراً شعرت به أنا الآخر . كلانا صار هيكلا عظمياً . ماذا حدث لك يا أبى فى هذ المدة العصيبة ؟ الحمد لله أنك أنت وأنا ما زلنا على قيد الحياة . سوف تشرق الشمس من جديد .. ويبدأ عهد سعيد .. فلا تزال عندى أحلام ـــ أحلام كبيرة .!!

جلس أبى بجوارى .. وقد أحاطنى بيمناه على كتفى . أعاد إلى الأمان والرضا والسعادة . كل الأبناء يحبون آباءهم كما أحب أبى العزيز الأستاذ أحمد الشريف ؟! الأبوة هذه عاطفة نبيلة سامية .. كم هو بائس تعيس من لا أب له . قطع أبى الصمت فرحاً :

ـــ حدثنى . . حدثنى حتى أراك يا ابنى الحبيب .

ـــ أنا بخير يا بابا .. المهم كيف حالك .. وحال ماما ست الكل .. وزنوبة الحبوبة .؟

ـــ كلنا بخير .. كلنا بخير ـــ لم يشأ أن يقول أن أمى مريضة منذ اعتقالى ـــ ماما صحتها كويسة .. كويسة قوى قوى يا حبيبى ـــ أشار إلى صرة بجواره ـــ وقد أصرت على أن تعمل لك هذا الطعام بيدها .. وقالت : من أكل طعام أمه ، فسوف يعود إليها قريباً .. بإذن الله .

ـــ وحشتنى ماما .. ووحشنى أكل ماما .. وحبوبة ؟

ـــ أخذت الثانوية العامة فى العام الماضى ودخلت كلية التربية .

ـــ الحمد لله .. كنت مشغولا عليكم . رأيتك كثيراً فى المنام حزيناً ، كأنك غير راضٍ عنى . سامحنى يا بابا .. أنا والله العظيم برىء ، ولم ....

ـــ اسكت يا بنى .. هذه ساعة للفرحة ، وليست للعتاب .. أو لأى شىء .. المهم أنك بخير والحمد لله .

مرت سريعاً اللحظات التى قضيتها مع أبى . عدت فرحاً إلى الزنزانة . سلمت صرة الطعام إلى على شبكة ـــ وزير التموين . ساورتنى نفسى أن أفتحها فى الطريق ، لأرى ما أعدته ماما الحنون .. أو على الأقل أشم ريح ما صنعت . استحيت أن أخون العهد . سلمت الصرة كما استلمتها . لم يكن الزملاء فى الحجرة . كان الشيخ عبد الله مستلقيا على ظهره فى السرير ، بالقرب منه على شبكة ، وشوق عبد الحميد ، ونبيل بولس ، ومجدى الأسيوطى .

قال الشيخ عبد الله بصوت ضعيف :

ـــ كيف حال أبيك ؟

ـــ بخير .. بخير والحمد لله . لكن أنت .. ماذا بك يا عمى ..!!

ـــ كنت تقول يا أبى ، اليوم حين لقيت أبيك الحقيقى تقول يا عمى .

ـــ آسف ، زلة لسان .. لست أقصد . أنت تعلم منزلتك عندى .

تعمد الشيخ خضر ألا يجعلنا نشغل بما يحسه من آلام . صار قليل الحركة .. زاهداً فى الطعام . لم يعد قادراً حتى على الوضوء وإقامة الصلاة . أنسانا مرض الشيخ مشاعر الفرحة الطارئة . زاره منذ ثلاثة أيام ابنه الكبير محمد ، واطمأن منه على الأسرة والأقارب . ماذا حدث لك يا أبانا العزيز ..؟ المعتقل كله يرى الشيخ عبد الله الأب الروحى ، لذلك أحبه الجميع .. وشغل بمرضه كل من فى المعسكر من النزلاء والشرطة . فجأة ذوى جبل النور ، واستسلم القلب

الضعيف ، لطائر الموت الأسود . طلب أن يقول سراً لعلى شبكة ومدير السجن وأنا :

ـــ إذا مت فادفنونى هنا فى مزرعة المعتقل . الأرض .. أرض الله . لست حزيناً .. لكنى سعيد بلقاء الله . يروى أن سيدنا سليمان بن داود قال : « ثلاثة خير من ثلاثة : يوم الممات خير من يوم الولادة ، وكلب حىّ خير من سبع ميت ، والقبر خير من القصر » .

صمت لحظة ثم أكمل :

ـــ بعد أن تدفنونى .. ازرعوا على قبرى شجرة ، حتى يدعو لى بالرحمة من يأكل من ثمرها أو يستظل بظلها .

صمت برهة ونظر فى فتور إلى على شبكة :

ـــ أولادى .. أولادى أولادك ..كن لهم أباً من بعدى يا على .

صمت لحظة ونظر ناحيتى :

ـــ وأنت يا إبراهيم أريد أن أزوجك إحدى ابنتى .. خديجة أو فاطمة .

قلت محاولا حبس البكاء :

ـــ هذا شرف لى يا أبى ، سوف يمد الله فى عمرك ، حتى تعقد لنا العقد .

صمت برهة كأنما يستجمع أنفاسه ، وقال للرائد أشرف زعتر :

ـــ عامل إخوتك المعتقلين معاملة طيبة ، فأنت وهم ضحية .. فاتق الله فيهم . وأصلح مسجد السجن ، حتى يغفر الله لنا ولك .. وهو أرحم الراحمين .

صمت الشيخ برهة .. وانتفض جسده مرتعشاً . الطائر الأسود يستل الروح الضعيفة من الجسد المنهك . لم يكن واحد منا بقادر على الكلام . ماذا يمكن أن تقول فى لحظة الموت . الموت لحظة فاصلة بين عالمين . الموت طلسم الوجود ، الذى لم يستطع أحد أن يفك رموزه ، لأنه سر من الأسرار ، التى اختص بها الله ذاته ، من أجل أن يعجز مخلوقاته .

تمتم الرجل الصالح بصوت ، يأتى من وراء الغيب :

ـــ أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

أثبتنا قلباً كان على شبكة . مد يديه وأغلق العينين الجاحظتين والفم المفتوح ، وعدل استقامة اليدين والرجلين ، وشد البطانية الزرقاء ، وغطى وجهه قائلا :

ـــ ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى ﴾ .

أمر مدير السجن بنقل الجثمان الطاهر إلى حجرة مستشفى السجن ، ثم قام بإرسال سيارة خاصة بها أحد الضباط ، لإحضار محمد بن الشيخ عبد الله من دمياط . أكبرنا جميعاً هذا الموقف الإنسانى ، بل إن هذا العمل خفف عنا جميعاً كارثة موت الرجل الصالح ، الذى يعده المعتقل كله أباً روحياً له . لم يكن الشيخ عبد الله إنساناً عادياً ـــ على الأقل بالنسبة لى . تذكرت قصة النبى موسى مع الرجل الصالح ، الذى علمه الكثير مما لم يكن يعلم ؟! أكثر من هذا أنه كان القطب الذى عالج روحى .. عندما عز الأساة .!!

فى صباح اليوم التالى .. لم تكن للمعتقل سيرة إلا الحديث عن كرامات الرجل الصالح ، فكل واحد له معه موقف لا ينسى ، وحكاية لا تتكرر . لم يطلب القطب من أحد شيئا .. ولم يعان من لحظة ضعف أو قنوط . وإنما هو الذى كان يعطى الثقة ـــ دائماً ـــ ويحيى الآمال ، ويقوى الإيمان ، ويرفع الروح المعنوية . كيف لم أدرك أنه ولى من أولياء الله الصالحين ـــ الذين قال عنهم : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ؟ ثمة أناس كثيرون ، نلقاهم فى الحياة .. لكننا لا ندرك قيمتهم الحقيقية .. إلا بعد أن يمضوا فى طريق بلا عودة ، فنندم على غفلتنا .. ونسخر من خيبتنا ـــ بعد فوات الأوان .!!

صلينا صلاة الجنازة جميعاً على روح الشهيد ، حيث أمّنا على شبكة . بعد الصلاة حُمل الجسد المسجى إلى مزرعة السجن . لم يحضر لحظة الدفن إلا مدير

السجن وعلى شبكة ومحمد ابنه .. وأنا .. وبعض حراس السجن . لاحظت فى أثناء مراسيم الجنازة والدفن أننى أكثر الموجودين حزناً على الشيخ ، بل إن تأثرى بفقده أقوى من تأثر ولده الحقيقى . تعجبت من هذا الموقف .. كيف يكون المريد أكثر قرباً للإمام من ولده ، الذى جاء من صلبه ؟!

دعوت إلى فكرة ــ استجاب لها كثير من نزلاء المعتقل ــ وهى إقامة مسجد ، يضم ضريح الشيخ ، ويكون مزاراً لكل من يأتى إلى هذا المكان القفر . وقد ساعدتنا إدارة السجن على إتمام هذه المهمة ، ووفرت كافة المواد اللازمة .

هناك أمر حدث ، لم أستطع أن أكلم عنه أحداً .. وإن كلمنى الآخرون عنه فيما بعد ، فقد زرعنا بعض الأشجار حول المسجد ، فكبرت قبل أوانها ، بل إنها لم تكن فى حاجة إلى مياه كثيرة ــ كما هى الحال فى كل النباتات ، التى تزرع فى الصحراء . قلت فى نفسى : ﴿ ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً ﴾ .

أشاع موت الشيخ الفاضل جواً من الحزن والتأمل ، وأنسانا فرحة الانفراجة ، التى حدثت بعد النكسة . لكن موته حسم الموقف بيننا وبين إدارة السجن ، لأن المعاملة طرأ عليها تحسن واضح ، ولم نعد نجد أية صعوبة فى الطعام ، أو الرياضة ، أو الصلاة فى المسجد ، أو فى إرسال خطابات إلى الأهل .

حدثت بعد ذلك بمدة قصيرة .. مفاجأة سارة ــ رأيت فيها كرامة من كرامات الولى الراحل . أمر لا يصدق .. فى الشهر ذاته .. شهر سبتمبر ــ أو كما يسميه إخواننا الشوام « أيلول الأسود » ــ صدر أمر بالإفراج عن كافة المعتقلين السياسيين . كانت ليلة لا تنسى .. رفض الكثيرون النوم فى الزنازين ، وقرروا المبيت فى فناء المعتقل ، تعبيراً عن روح الحرية ، التى بدأوا يستشعرونها ..!!

قال مدحت عبد البديع :

ــ لو لم تحدث النكسة ما أفرجوا عنا.. أو حتى أحسوا بوجودنا .

رد مجدى الأسيوطى :

ــ المشكلة أنهم اعتقلوا الأبرياء فى عصر ، يدعون أنه عصر الحرية .

أكمل نبيل بولس :

ــ أيتها الحرية .. كم من الجرائم تُرتكب باسمك ؟!

قال صفوت حسنين :

ــ ليست هناك حرية سياسية دون اشتراكية حقيقية . الحرية ليست كلاماً أجوف .

قال محمد البدراوى :

ــ كفى كلاماً واشكروا الله على ما آتاكم من نعمه .

قال السعيد حجازى .

ــ الله أكبر ولله الحمد .

قال على شبكة :

ــ الكلام لم تعد له فائدة ، وسوف تثبت الأيام والسنوات القادمة ذلك .

قلت :

ــ رحم الله الشيخ عبد الله .. كنت أتمنى أن يشهد معنا هذه اللحظة .

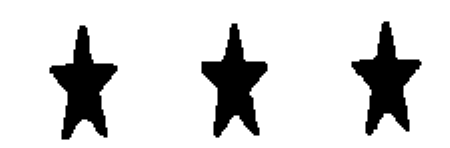
رد شوقى عبد الحميد :

ــ إن روحه الطاهرة ، تشاركنا فرحة هذه المناسبة السعيدة .

فى صباح اليوم التالى سلمت إدارة المعتقل لكل فرد منا مهماته الشخصية ، التى كانت محتجزة لديهم ، ومبلغ عشرة جنيهات . كما أخبرونا أنه نظراً لقلة العربات ، فسوف يجرى ترحيلنا على دفعات ــ حسب التوزيع الجغرافى للمحافظات .

أخيراً دنت اللحظة الحاسمة ، التى يفرق فيها بين الحرية والحبس .. بين الموت والميلاد .. بين النور والظلمة .. بين الإيمان والكفر . يا شمس الحرية طهرى رئتى من هواء المعتقل الآسن .. يا قلبى الحزين آن لك أن تصدح بالنشيد .. نشيد الحرية .

آخر شىء فعلته فى المعتقل بعد وداع الأصدقاء والزملاء والحراس ، هو زيارة قبر الشيخ عبد الله .. وصلاة ركعتين شكراً لله فى مسجده . وقفت أتأمل المسجد من الخارج ، وقد نمت ــ بشكل واضح ــ الأشجار التى زرعت بالقرب منه . أحسست أن بينى وبين ساكن القبر روابط لا يفكها الموت .. ولا يحلها البعد . قلت فى نفسى متحيراً : إلى أى مدى يتحكم الموتى فى الأحياء ..؟!



٨ ـــ الخروج .. من التيه

الأوامر التى صدرت إلى سائق العربة التى نقلتنا من الواحات إلى القاهرة .. هى أن يتركنا فى ميدان باب الحديد عند محطة قطار مصر . هناك يستطيع كل فرد أن يتوجه إلى الناحية التى يعيش فيها . اللوائح تسمح فقط بأن نسلم الأمانات الشخصية .. وعند باب السجن لا تكون ثمة علاقة بين الداخل والخارج . لكن مأمور السجن .. لسبب ما ــ لست أعرفه ــ تعاطف معنا بشكل واضح بعد وفاة الشيخ عبد الله . هذه المنحة ــ التوصيلة من الواحات إلى القاهرة ــ مبادرة خاصة منه ــ بصفة شخصية . هل أراد أن يثبت لنا ــ ونحن نغادر المعتقل ــ أنه غير مسئول عما ارتكب فى حقنا من أمور التعذيب .. أم أنه حاول أن يقول إنه رجل وطنى مثلنا ، لكن ظروف العمل لا تسمح له بأن يظهر مشاعره الفياضة . لكن .. إيه .. إيه يا إبراهيم ..؟! لست أدرى ما الذى يدفعنى إلى أن أعبر عما حدث لى .. وعما أحس .. هل هذا الاعتراف سيفيد أحداً ..؟! لا .. لا أظن .. بل لا أعتقد . الكلام لم يعد مجدياً ، لم نعد فى حاجة إلى كلام .. شبعنا من الكلام والخطب ، أيها المواطنون .. المهم الفعل .!! من يصدق .. المصرى الذى عرَّف البشرية العلم والحضارة والفن ، هُزم هزيمة ساحقة أمام العصابات الإسرائيلية . ليس هذا فقط ، بل إنه يتسول الآن فى سوق النخاسة شرقاً وغرباً ، بحثاً عن كسرة خبز .. خبز يشتريه بالجبن ، لأنه صار يؤمن ــ بسبب القهر والذل ــ أن الجبن سيد الأخلاق . خسارة وألف خسارة وخسارة يا مصر . النيل لا يزال يجرى .. لكن .. لكن .. لو بيدى لحطمت الأهرامات والمعابد وكل التراث . أصحيح أننا أحفاد الفراعنة العظام .. وهل نحن حقاً الذين كتبنا أول

سطر فى حضارة الإنسان .. وكيف أن النيل لا يزال يجرى ؟! يجرى لماذا.. نحن لا نستحق النيل .. ولا الأهرام .. ولا المعابد .!! يا مصر .. ابنك جمل صلب ، لكن علته الجمّال .. وصدق من قال :

منين أجيب خِل صادق ، يفهم المعنى
نصرف عليه فى الوسع ، فى الضيق ينفعنا
وتربة نبى زين ، وربنا اللى جمعنا
مشى الأصيل زين .. كل ما يقدم ، يزيد معنى

عينى عليك يا بلدنا .. أنتِ الآن ملكية أم جمهورية .. رأسمالية أم اشتراكية .. شرقية أم غربية .. حرة أم مستعبدة .. فقيرة أم غنية ..؟! دارت تلك الخواطر المبعثرة فى يافوخى الملتهب ، وأنا جالس على مقهى محطة القطار . آثرت أن أدخل المنصورة فى الظلام كما خرجت . لو رآنى أحد معارفى لأنكرنى . ماذا عساه يقول ؟! شاب هزيل شاحب ، يرتدى ملابس بالية مكرمشة واسعة بشكل واضح .. لا يصدق أحد أنها كانت ملابسه الأنيقة ذات يوم . حتى الساعة توقفت عن العمل ، والقلم جف فيه الحبر . خواطرى قلقة مثل البشر ، الذين يمرون وأنا جالس على الكرسى الخيزران .. فلاحين .. صعايدة .. حمالين .. بائعى سجائر وجرائد ومياه غازية .. أفندية محترمين .. نشالين محترفين .. ذاهبين .. قادمين .. مولد يا محطة مصر ...! عيناى مربوطتان إلى ساعة المحطة الضخمة ، حتى لا أتأخر عن قطار الرابعة بعد الظهر . أيقظنى من كابوس خواطرى المضطربة رجل ابن بلد ، يلبس ملابس شعبية : جلابية صوف بنية اللون وبالطو أصفر وطاقية بيضاء ، أميل إلى السمنة ، قمحى البشرة ، فى الخمسين تقريباً .

سألنى :

ـــ أنت منتظر قطار طنطا ؟

لست أدرى لم خشيت أن أقول نعم . هززت رأسى و لم أنطق . عاد للسؤال

مرة أخرى :

ـــ أليس لك أقارب فى طنطا ؟

ـــ أنا مقطوع من شجرة .

ـــ سبحان الله .. يخلق من الشبه أربعين .. لكن ما علينا . ماذا تعمل يا بنى ؟

ـــ أنا لا أعمل .. ما زلت طالباً .

ـــ تلميذ يعنى .. على كل حال ، كمل تعليمك ، وإذا لم تجد عملا ، فتعال ، أوظفك عندى .

بدأت أتخفف قليلا من مشاعر القلق إزاء ذلك الرجل الغريب . قلت :

ـــ توظفنى فى أى عمل .؟!

ـــ إذا نزلت طنطا تذهب إلى ميدان السيد البدوى .. رضى الله عنه وأرضاه ، وجعلنا من أتباعه .

ـــ وبعد ذلك ؟

ـــ تسأل عن محل الحاج حلمى أبو حسين .. تاجر القماش ..

ـــ كل شىء بإذن الله يا حاج .

ـــ ما الأخبار اليوم ؟

ـــ لا أعرف .

ـــ ألم تسمع الراديو .. أو تقرأ الجرائد ؟

ـــ لا ..

ـــ الحالة صعبة .. اليهود احتلوا سيناء كلها ، والقناة واقفة . والبلد فى نكسة .. البلد كله .. كلما حاولنا أن نستريح ، جاءوا بحرب جديدة .. منهم لله .

ـــ من هم ؟

ـــ الذين كانوا السبب .. ألا تعرفهم ؟

نظر فى ساعته فجأة .. فمضى سريعاً ، وهو يقول :

لا تنس ، سوف أنتظرك .. شيءلله يا سيد يا بلوى .. ثم مشى مسرعاً نحو رصيف القطار .

أدركت أن القطار الذى يوصله إلى طنطا ، هو نفسه الذى يحملنى إلى المنصورة . تحاشيت أن أركب معه فى عربة واحدة . كنت فى حاجة ماسة ، لأكون وحدى .. وحدى ، حتى أستعيد الذاكرة ، التى محيت من ذهنى خلال السنتين الماضيتين .

مضى القطار — بقسوة وقوة — يغتال المسافات فى ظلام الليل . عربة الدرجة الثالثة ممتلئة بأناس من قاع المجتمع ، فيهم بساطة وخشونة بسبب الفقر والقهر . شرطى بوليس يحمل كوباً من الشاى اغتصبه — كالعادة — من البائع . يجلس أمامى رجل عجوز مريض ، يتأوه فى صمت .. وبعض الأقارب ، يحاولون أن يخففوا عنه . بجوارى امرأة تحمل طفلا قذر الهيئة ، كأنه لم يغتسل منذ ولادته . تركت مكانى .. وذهبت نحو الباب . وقفت هناك — بجوار بعض الجنود — أتنفس الهواء نقيا .! كنت قلقا محيراً ، خائفاً خوف الجنين ، حين يأتى إلى الدنيا على غير انتظار . يبدو أنه لم يعد لك مكان فى هذا العالم يا إبراهيم .. ماذا تفعل فى زمن ردىء ، كل شيء فيه أصبح زبالة فى سوق روبابيكيا .؟ نحن البشر الضعفاء ، ما بأيدينا خلقنا تعساء . إن الله — جلت قدرته — قد ابتلانى بمصيبة الاعتقال ، لكن كثيرا من هموم المصيبة ، هانت بسبب لقائى بالرجل الصالح الشيخ عبد الله ، الذى قادنى — برفق — إلى طريق الإيمان والرضا . يا بنى .. إذا رأيت من يزهد فى الدنيا فادن منه ، فإنه يلقى الحكمة .. الحكمة تعنى أن تشغل نفسك بالعلم والعبادة ، وأن تتخذ لنفسك إماماً تعرف منه أصول ومناسك الحقيقة ، لأن الشيطان .. شيخُ من لا شيخَ له .!

لا أدرى .. متى .. ولا كيف وصلت إلى المنصورة . منصورة يا بلدنا .. من الذى تغير أنا .. أم أنت .. أم الزمان .؟! يا زمان النكسة .. كل شيء فيك ملوث

بالصديد والدم .. ملطخ بالعار والندم .!!

ألقيت نفسى فى أول عربة حنطور صادفتنى . خفقان قلبى أعلى من صوت إيقاع أرجل الحصان على الأسفلت . بعد لحظات ألقى أبى وأمى وأختى .. وحارة الفكهانى ، التى عشت فيها عمرى . حين تنفست هواء المنصورة النقى ، أيقنت أنى أبعث من جديد . الحمد لله ذهبت الأزمة . الأزمة ، التى لا تقتلنى تزيدنى قوة . صدقت .. صدقت يا شيخ عبد الله ..!!

طلبت من صاحب الحنطور أن ينزلنى أمام باب البيت ، حتى لا أرى أحداً .. ولا يرانى أحد . صعدت السلم إلى الطابق الثانى . أعرف طريقى جيداً رغم الظلام . طرقت طرقاً خفيفاً . الضوءشاحبٌ خلف الشراعة الزجاجية .هل ناموا .. كيف .. والساعة التاسعة تقريباً ؟ بعد برهة سمعت صوت زينب :

ـ انتظر يابابا سأفتح أنا .. عائشة جارتنا قالت .. إنها سوف تحضر لى كتاب التاريخ .

فتحت زينب الباب . أطلت برأسها ثم سكتت ، لأنها لم تستطيع أن تتبين شخصية الطارق . احتارت برهة :

ـ من أنت .. وماذا تريد ؟

حين أبصرتنى منزوياً بجوار الباب ، ساورها خوف مفاجئ . بدأت أتحرك من الظلام إلى النور .. لم تصدق عينيها :

ـ من .. من حضرتك ؟!

قلت بفرحة مشروخة ، وأنا أفتح ذراعى ، لكى أحتضنها :

ـ أنا .. أنا أخوك يا زينب ـ بدلا من أن أحتضنها ، تلقيت جسدها واقعا .. بعد أغمى عليها من هول المفاجأة .!!

أحس الأب أنها تأخرت بعض الشيء .. وأن صوتها قد ضاع ، فهم فزعاً نحو الباب ، وهو يقول :

ــ زينب .. من معك يا زينب ؟ فى مدخل الشقة التقينا .. لحظة اللقاء التى طال انتظارى لها ، حين جاءت .. لم أدر .. ماذا أفعل ؟! قال أبى :

ــ من .. من .. بسم الله الرحمن الرحيم .

وقفنا حائرين جامدين .. مثل شواهد القبور . أنا أحمل جسد زينب المغمى عليها ، وأبى يحاول أن يتأكد من صدق حواسه . بدلا من أن يحتضننى ارتمى على الأرض ، وسجد لله شاكراً ، وهو يدعو بصوت مسموع :

ــ اللّٰهم فارج الهم ، وكاشف الغم ، أحمدك حمد الشاكرين ، يا أرحم الراحمين . رب أوزعنى أن أشكر نعمتك ، التى أنعمت على وعلى أهلى . اللّٰهم لك الشكر حتى ترضى .. يا إلٰهى لك الشكر ، كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك .. لك الشكر كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .. الحمد لله رب العالمين !!.

بدأت زينب تفيق ، وقد تخشب ذراعاها حول رقبتى . حين حاول أبى أن يحتضننى .. لم يستطع أن يبعدها عنى . التقينا نحن الثلاثة فى عناق حميم ، كانت الدموع فيه أقوى أداة للتعبير عن فرحة اللقيا . كل ما حدث من مواقف منذ خروجى من المعتقل حتى هذه اللحظة .. جانب ، ومشهد لقاء أمى جانب آخر . أمى التى تركتها امرأة فى ريعان السلامة والنضارة وكمال الصحة والحلاوة ، صارت جسداً هزيلاً مريضاً ، لا يقوى على النهوض من مرقده ، حتى يحتضن فلذة كبده . ارتميت عليها ، وهى ممددة على السرير .. وقبلت كل مكان فى جسدها الطاهر ، وصلت إليه شفتاى . كنا نحن الأربعة نبكى بصوت مسموع .. وأبى يردد :

ــ الحمد لله .. الحمد لله .

لم أكن أحسن حالا من أهلى ، بل يبدو أنهم كانوا فى حالة أسوأ مما كنت عليها . من المسئول عن تحطيم أسرتنا بهذه الطريقة البشعة .. وماذا فعلنا حتى

نشكل مأساة من مآسى عصر الثورة المجيدة ؟ أى عصر .. وأى ثورة .. وأى مجد ، ذلك الذى يرفع رايات النكسة فى كل مجال ؟!! الدود .. واليهود ، هما حصاد عصر الثورة المجيد . ضاعت سيناء .. وغاب الصفاء .. والضحكة البيضاء . اليمين فى خُسر واليسار فى عُسر .. كل الألوان سواء .. والفضل لسادتنا فى المباحث « يا أبانا الذى فى المباحث ، نحن رعاياك ، باقٍ لك الجبروت ، وباق لنا الملكوت ، وباق لمن تحرس الرهبة والرهبوت » .!!

حاولت أمى أن تجلس قائلة :

ــ إبراهيم يا حبيبى .. لم أكن أصدق أنى سأعيش حتى أراك . الحمد لله .. ألف حمد وشكراً لك يا رب .

قبلت يدها قائلا :

ــ سامحينى .. يا أمى .. سامحنى يا أبى .

فرد أبى فى حنان :

ــ ما فات مات .. انس يا بنى .. الحمد لله أنك عدت بسلامة الله .

أنسى ..؟ أتقول أنسى يا بابا ؟! كيف أنسى الظلم والظلام .. وسنتين سقطتا من عمرى الجميل .. بلا ذنب . ومن يدرى .. فقد تكون هاتان السنتان سبب ضياع مستقبلى كله ..؟!

ــ تصور يابابا .. إنهم لم يحققوا معى ، ولم أعرف حتى اليوم .. لم اعتقلونى .؟!

تغير الجميع إلى الأسوأ .. أبى ذبل عوده ، وماتت البسمة من قسماته . أمى هزلت .. ومرضت . زينب صارت عجوزا فى الثامنة عشرة . أما أنا فقد صارت حالتى عدماً ، وتاهت عظامى فى الملابس المكرمشة ، التى كانت « أمانات » ، عند إدارة سجن الواحات .

ــ يا بنى اصبر على ما أصابك .. واحمد ربك ، فقضاء أخف من قضاء .

وإن شاء الله سوف ينصلح كل شيء .. كل شيء يا حبيبى .

قالت زينب :

ـــ سأعد العشاء يا ماما . ماذا تريد أن تأكل يا أبيه ؟!

ـــ كل ما أريده كوباً من الشاى المضبوط ، الذى وحشنى من يدك .. يا حبيبتى .

انتفضت أمى :

ـــ توجد دجاجة فى الثلاجة ، أخوك لازم يتعشى ظفر .. هل عندنا أعز من إبراهيم . الليلة عيد .. أحلى عيد يا حبيبى .!!

خرجت زينب متجهة نحو المطبخ ، بينما أنا جالس بجوار أمى على السرير ، وأبى فى مواجهتنا على كنبة . تلك هى حجرة نوم الأب والأم . هنا البداية يا إبراهيم ، واليوم بداية أخرى لميلاد جديد . إلى أى مدى سيكون المستقبل أسعد حالا من الماضى ؟ عندى أمل .. سوف نزيل آثار النكسة ، وتشرق الشمس من جديد يا منصورة .. يا بلدنا .!!

أخذنا نثرثر فى موضوعات شتى . أحياناً أكون معهم .. وأحياناً أخرى أكلم نفسى أكثر مما أكلمهم . وزينب حائرة بين البقاء والذهاب إلى المطبخ . فجأة قالت أمى :

ـــ أكيد فرحان بعودة إبراهيم يا أبو إبراهيم .

ـــ فرحان .. لا ، أنا الفرح كله .

ـــ إذن لابد من الوفاء بالنذر ، نشترى الخروف ...

لم تكد أمى تنطق بكلمة الخروف ، حتى انطلق أبى يضحك ويضحك ضحكاً شديداً متواصلاً ، بدرجة استثارت غريزة حب الاستطلاع عندى . ما أعرفه عن أبى أنه قليلا ما يضحك ، وإذا ما ضحك فإن ضحكه تبسم ، فما الذى جرى له هذه الليلة ؟ بالطبع ليس حضورى هو السبب .

ــ خيراً يا بابا .. أضحكتنا معك .

قال محاولا أن يخفى ضحكته :

ــ اللّٰهم اجعله خيراً .. أول مرة أضحك من قلبى من مدة طويلة ــ التفت إلىّ .. تصور يا ابنى ، أمك السيدة الأميرة هذه ، ذهبت إلى الشيخ سيد وأعطته أثرك .

ــ من الشيخ سيد هذا يا ماما ؟

ــ سيدة مبروكة من أولياء الله الصالحين ، تساعد الغلابة والمساكين .. لكن أنت عارف بابا .

دخلت زينب مبتسمة :

ــ العشاء جاهز .

خرجت من المعتقل الأصغر إلى معتقل آخر أكبر ، فقد حَرَّم علىَّ والداى الخروج من البيت إلا بعد أن أسترد عافيتى ، وأن أخضع لعملية « تسمين » ، حتى تعود الصحة الهاربة إلى الجسد الهزيل . الابن ابن .. وأنا ابن مطيع . حضر إلى الحلاق .. والطبيب . كما زارنى معظم الجيران وأسرهم . أحسست أننا شعب مترابط ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . جاءت أسرة الأستاذ حامد البكرى وزوجته وابنته عائشة أكثر من مرة . ألمحت زوجته كثيراً إلى أن عائشة ابنتها كانت حزينة جداً فى أثناء غيابى ، وحين عدت فإن فرحتها كبيرة .. لا توصف .

تعرفت على الأستاذ عطية عمران .. والصول عبد الرحيم الصاوى . بل إن من كنت أعرفهم معرفة سطحية من سكان حارة الفكهانى ، جاءوا للتسليم والتهنئة بعودتى ، وعرضوا على أبى تقديم العون والمساعدة ، بل إن بعضهم جاءوا محملين ببعض الهدايا البسيطة . الهدايا مهما عظمت ليست لها أهمية كبيرة ، وإنما أهميتها فيما ترمز إليه من مودة وإخلاص ورغبة فى العطاء . بعد مدة طلب منى

أبى أن أستعد لزيارة رجل وقف بجواره كثيراً فى أثناء محنتى ، وهو المستشار عاطف سلام . حين ذهبنا لزيارة الرجل وجدناه فى انتظارنا . سلمت عليه وعلى أسرته . فى حجرة المكتب جلسنا نحن الثلاثة . أخذ يسألنى أسئلة كثيرة عن المعاملة فى قسم البوليس ، وسجن القلعة ، ومعتقل الواحات . وحين أخبرته ببعض ما حدث من أنواع التعذيب فى كل مكان ذهبنا إليه ، استدار ناحية أبى قائلا :

ـــ سمعت يا أحمد أفندى .. كنت على حق فيما قلت لك .

ـــ ماذا قلت يا عمى ؟

ـــ السجون ينبغى أن يكون الإشراف عليها لوزارة العدل ، وليس لوزارة الداخلية .

ـــ هل تظن أن الحالة ستتغير كثيراً ؟

ـــ بلا شك .. كما أن هذا هو الوضع الطبيعى ، ووزارتنا هى التى تفرض العقاب ، وهى التى ينبغى أن تشرف على تنفيذه .. بالعدل والقانون .

ـــ هل تظن أن الكلام له فائدة فى بلادنا ؟

ـــ أنا مؤمن بهذه القضية ، وسأعمل كل جهدى ، حتى يصدر بها تشريع دستورى .. نسيت أن أسألك يا إبراهيم .

ـــ عن أى شىء يا عمى .

ـــ ماذا حدث فى التحقيق ، الذى أجروه معك ؟

ـــ لن تصدق .

ـــ ماذا ؟

ـــ لم يحدث معى أى تحقيق .!!

ـــ هذا معقول ؟

ـــ معقول .. أو غير معقول ، لا يهم . لكن .. هذا ما حدث .

ـــ فى أى عصر نحن ؟

ـــ عصر النكسة المجيدة .

توقف الرجل مبهوراً ، لا يكاد يصدق . إنه رجل قانون ، يعرف أن أبسط قواعده .. أنه لا عقوبة بغير جريمة . وهذا الشاب يعاقب بلا ذنب .. كيف .. ولماذا.. ؟! ما فائدة وزارة العدل والدستور .. ومجلس الشعب .. وقوانين الأمم المتحدة .. وغير المتحدة .. ومحكمة العدل الدولية .. وحقوق الإنسان ..؟!

ـــ أليس لك خصوم أو أعداء يا بنى ؟

ـــ أبداً يا عمى ، فأنت تعرفنى مثل بابا تماماً .. لكن ما دخل هذا فى قضية اعتقالى ؟

ـــ هذا هو المفتاح الغائب والدليل المفتقد .

ـــ كيف ؟

ـــ هناك واش وشى بك . ولابد أن يكون هذا الواشى له كلمة مسموعة فى جهاز الأمن .

ـــ هل هذا معقول ؟

ـــ مأساة النظام الحاكم فى بلادنا أنهم شجعوا من أسموهم « التنظيم الطليعى » و « منظمة الشباب » لكتابة تقارير ، كما أنهم وظفوا بعض ضعاف النفوس من أجل هذه الغاية أيضاً . كل واحد فيهم يريد أن يبرر بالحق أو بالباطل الرشوة السخية ، التى يبتلعها .. أو يقدم مهر المنصب الناعم ، الذى يشغله ـــ دون حق .

قال أبى :

ـــ أرجو أن تفيقهم النكسة .

بدأ العام الدراسى ، وبداية كل عام دراسى تشكل أزمة عند معظم الأسر المصرية المتوسطة والفقيرة . مصروفات الجامعة كانت تشكل عبئا ثقيلا بالنسبة لميزانية العائلة قبل اعتقالى . وقد تضاعف الحمل بسبب مرض الأم ، ودخول

زينب كلية التربية فى الإسكندرية . أدركت ذلك حين رأيت مصاغ أمى ، قد بيع كله بعد وصولى بأيام قليلة . فعل الأبوان هذا دون أن نعلم أنا وشقيقتى . طلبت من أبى أن تسافر زينب إلى الإسكندرية هذا الشهر ، وأذهب أنا إلى القاهرة فى الشهر التالى ، حتى أخفف العبء عنه قليلا . لقد تخلفت سنتين فما ضر لو زادت السنتان شهراً . رفض أبى بإصرار :

ـــ لا .. لا يا إبراهيم ، لن تتأخر .. هل نسيت أنت فى قسم الامتياز ؟! ينبغى أن تستعيد وضعك . ما زلت أحلم باليوم ، الذى تعين فيه معيداً بإذن الله .

ـــ من يعلم .. فقد تغيرت أمور كثيرة فى الحياة ، ومن المنطقى أن تكون قد ألقت بظلالها على الجامعة .

ـــ الظروف تتغير .. نعم ، لكن الإنسان الأصيل ، لا يتغير أبداً يا بنى .

أطرقت لحظة ، ثم قلت متحاشياً النظر فى وجه أبى :

ـــ أدركت مؤخراً أن دخولى قسم اللغة الإنجليزية كان خطأً كبيراً .

ـــ لماذا يا ابنى ؟

ـــ كان ينبغى أن أدخل قسم اللغة العربية ، حتى أفهم القرآن الكريم وسنة الرسول ، لأن من يرضى عنه الله ، يفقهه فى الدين ، الذى أنزل بلسان عربى مبين .

ـــ من قال لك هذا يا بنى ؟ العمل شىء .. والعبادة شىء آخر . لا تخلط الأوراق .. ولا تجعل المحنة ، التى مرت بك تغير من جوهرك النقى .

ـــ على أية حال .. قدر الله وما شاء فعل .

ـــ على بركة الله ، تسافر بعد غد إلى القاهرة .. يا ابنى .

جلست فى الصباح مع أمى بعد أن ذهب أبى إلى العمل ، لكى أتكلم معها وحدها قبل السفر . هالنى ما وصلت إليه من حالة صحية صعبة ، فقد ذوى جسدها ، وصارت عجوزا فى الأربعين . ما هذه أمى التى كانت تفيض نضرة

وحيوية وبهاء . ما حدث لك بل ما حدث للأسرة كلها كان بسببى . أنا المسئول عما حدث للعائلة .. لكن من المسئول عما حدث لى .. من المسئول .. من .. من المسئول يا ربى ؟ ثم أليس المسئول عما حدث لى ، هو نفسه المسئول عن الخراب الموجود فى البلد كلها . لولا بقية من إيمان زرعها فى القلب الرجل الصالح الشيخ عبد الله خضر ، لكفرت بكل شىء .. كل شىء . لكن الحمد لله ، الذى لا يحمد على مكروه سواه .!!

ـــ سأسافر غداً ، إن شاء الله يا ست الحبايب .

ـــ بالسلامة .. ألف سلامة يا حبيبى ..

خنقتها العبرات .. حاولت أن تتماسك ، لكنها عجزت . هل تبكى لأنها لم تصبح قادرة على أن تعد ما كانت تعده فى السنوات السابقة من فطائر ومأكولات ، أم لأنها صارت تخشى من السفر والغياب ، أم لأنها سوف تصبح وحيدة بعد سفرى إلى القاهرة وسفر زينب إلى الإسكندرية ، أم لأن صحتها قد اعتلت .. وذهبها قد بيع .. أهم من هذا كله أنها لم تعد قادرة حتى على خدمة زوجها ، الذى عاشت العمر مخلصة له ومحبة .. وترى أن طاعته من طاعة الله سبحانه .؟ ما أشبهك بمصر يا أمى .. لكن أى الأمَّيْن أكثرُ تعاسة ، وأشد حزناً ..؟!

انتقلت من مكانى على السرير ، لأكون بجوارها . تعمدت أن أغير مجرى تفكيرها :

ـــ أنا مُصِر أن أعرف سبب ذهابك إلى الشيخة سيد .

جففت دموعها :

ـــ اسكت يا حبيبى ، لا تذكرنى ..

ـــ لابد أن أعرف .. هل ذهبت حقاً من أجلى ، أم من أجل أن تعملى عملا لسعادة الباشا ؟

ـــ يا سلام يا إبراهيم .. هل يوجد رجل مثل بابا فى الدنيا ، التى يروى بها النيل ؟!

ـــ قولى .. اعترفى .. تعالى يا زينب .. تعلمى الحب على أصوله من أمك .

ـــ زينب لن ترد عليك يا شقى ..

ـــ لماذا ؟

ـــ عندها ضيفة طالبة القرب .

ـــ من بابا ..

ـــ فشر يا ولد .. منذ جئت ، وهى تتحجج بأى سبب لتأتى عندنا ، وأنت لست هنا .. على رأى المثل « عملت الطير حجة ، كل ساعة أسقيه ، لا الطير بيشرب ، ولا المحبوب بالاقيه » .

أثارت ماما فضولى . مرت سنتان ـــ وأنا شاب فى الخامسة والعشرين الآن ـــ لم أر .. لم أسمع .. لم أفكر فى أية واحدة من جنس الحريم . نسيت فى تلك الفترة السوداء أننى رجل ، فقد اغتالوا فينا ـــ جميعاً ـــ كثيراً من معانى الرجولة .

ـــ من هى يا ماما ؟

نجح كل منا فى إخراج الآخر من الحالة النفسية السيئة ، التى كان عليها . قالت مبتسمة :

ـــ على ماما يا ولد ، أحلف بالله أنت تعرف ، لكنك تستعبط .

ـــ وحياتك يا ماما ، لم آخذ بالى .

ـــ لا تكون من ظهر أحمد الشريف بحق ، إذا لم تعرف أن عائشة مشغولة بك ، بل إن أم عائشة وأبو عائشة .. كلهم مهتمون بحضرتك .

ـــ يعنى أنا بالنسبة لهم قضية قومية .

ـــ تكلم بجد .. وقل رأيك . هذه أمور ، لا يصح فيها الهزار .

ـــ لا هزار ولا جد يا ماما .. نحن أسرة فقيرة ، لابد أن أعمل بعد تخرجى ،

لأساعد بابا ، لن أفكر فى الزواج إلا بعد أن نفرح بزينب أولا .

نظرت إلىّ أمى متعمدة أن تقع عيناها فى عينى :

ــ لا .. لا يا حبيبى . ليس هذا هو السبب ، أنت مشغول ببنات من القاهرة .

ــ أبداً يا ماما .

ــ وعبير قنديل ؟

بدت على الدهشة والاستنكار :

ــ نعم .. ماذا قلت ؟

ــ عبير قنديل وسمر صبرى .. أتظن أمك نائمة على أذنها . لا .. لقد عرفت كل شىء .!

هناك أمر حدث . أمى تعرف شيئاً ، وتريد أن تعرف عنه أكثر . أنا أعرف أمى ، تحاول أن تشترى قبل أن تبيع .

ــ من أخبرك ؟

ــ أخبرنى .. لا .. لقد رأيت بعينى .

ــ ماذا رأيت ؟

ــ عبير وسمر .. جاءا إلى هنا .

ــ لكن أبى وزينب لم يقولا شيئاً .

ــ كان ذلك منذ فترة طويلة ، بعد اعتقالك بشهر تقريباً ، جاءا مع الدكتور فريد .. وزميل سمين بعض الشىء ..

ــ يحيى المليجى .

ــ أيوه .. اسمه يحيى ، جاء الأربعة للاطمئنان عليك .

ــ ما زال فى الدنيا خير .

ــ لكنى عرفت ..

ـ ماذا ؟

ـ عبير تحبك ، وهى التى أثرت عليهم حتى يأتوا معها .

قلت وأنا أنظر إليها مندهشاً :

ـ كيف عرفت ؟

ـ تأكدت الآن من رؤية وجهك .

لم أكن أصدق أن السجين أو المعتقل يمكن أن تحدث له حالة فقدان ذاكرة .! الآن بدأت أستعيدها شيئاً فشيئاً . يا أمى جئتك لأتسلى وأنسى .. فإذا بك تحدثين لى صدمة غير متوقعة ، تذكرنى بمشاعر العاطفة .. وزملاء الجامعة . عبير يا زهرتى الجميلة .. سامحينى ، فقد نسيتك .. ونسيت أموراً كثيرة .. كثيرة جداً . لست مسئولا عما جرى لى أو لك . لا سامحهم الله أولئك ، الذين شوهوا رؤية العالم فى مخيلتى . تذكرت فى لحظة استعادة الذاكرة المفقودة أن الشيخ عبد الله خضر فى لحظة الاحتضار ، قال أتمنى أن أزوجك إحدى ابنتى . عالم المرأة فى بلادنا عالم غريب ، لأن حياة المرأة وقضاياها أمر تحوطه كثير من العادات المتخلفة ، لذلك فالمرأة ـ عندنا ـ تعنى الزواج والحب والجنس .. وكل ما يتصل بهذا الحقل الدلالى من تداعيات معنوية .. سامية أو منحطة .!!

« اختلف اثنان فقال أحدهما للآخر : أيغضبك قول الحق ؟ فرد عليه : وهل هناك ما يغضب سوى قول الحق ؟! » . والحق ما قالت أمى حين حركت شجونى وأثارت خواطرى . استيقظ عالم الجامعة بكل عناصره داخل نفسى ، حتى طارق فهمى اشتقت إليه . صحيح .. المرء أسير لمواطن ذكرياته .!!

بينما أنا خارج من حجرة أمى كدت اصطدم بزينب ، تحمل صينية فوقها ثلاثة أكواب من الشاى ، فقالت :

ـ ابن حلال مصفى .

ـ لِم .

ــ عملت حسابك فى الشاى . عندنا ضيفة تريد أن تناقشك فى بعض الأمور .

كنت أعرف الضيفة .. وأعرف حكايتها . ليس هناك أعمق من فهم امرأة لامرأة . الست ماما وضعت النقاط على الحروف ، لذلك فسوف أحضر المقابلة ، وأنا أعرف الهدف منها . قلت دون تفكير :

ــ أوكى يا أختى العزيزة !

رأيت عائشة من قبل خلال فترة عودتى القصيرة ، لكننى لم أكن أراها على انفراد أو فى ضوء الصباح . عائشة صبية الثانوى ، التى كانت بضفيرتين وشريط أبيض ومريلة المدرسة ، أصبحت اليوم فتاة ناضجة ، فهى فى مثل سن زينب .. وهما زميلتان منذ المرحلة الابتدائية . أعجب من هذا أن كل واحدة منهما ، لا يزيد مجموع درجاتها عن الأخرى فى أية شهادة عامة عن خمس درجات على الأكثر ، لذلك تزاملتا فى كل مراحل التعليم ، وكانتا تشتريان ملابس واحدة أو متشابهة ، وهذا ما جعل الكثيرين يظنون أنهما أختان . عائشة تدخل بيتنا دون تحفظ كأنها زينب .. وأحياناً تبيت عندنا .. وزينب تفعل هذا أيضاً فى بيتهم .

فى إطار حالة استرجاع الذاكرة .. تأملت أختى وصديقتها ، فأدركت أن الاثنتين قد صارتا بالفعل عروسين . كيف لم أتنبه إلى أن عائشة قد أصبحت فتاة كاملة الأنوثة ، لكننى لم أتنبه إلى هذا الأمر فى زينب ، فكيف أكتشفه فى عائشة ، التى أعدها أيضاً أختا ثانية ؟! بعد التحية وشرب جزء من كوب الشاى ، قالت زينب ــ بقدر من الخبث الأنثوى ، الذى لم أكن أتوقع أن أختى أنا يمكن أن تمارسه :

ــ عن إذنك يا عائشة ، حتى أعطى أمى الدواء . لست غريبة .. سأعود حالا .

ــ ما أخبارك يا شوشو ؟

ـــ أخبارى أخبار زوزو ؟ أنا وهى فولة وانقسمت نصفين . تصور أختك .. أختك ـــ حاولت أن تبرز مقاطع الكلمة وهى تكررها ـــ أصرت أن أدخل معها قسم اللغة العربية ؟

ـــ هل كنت تريدين قسماً آخر ؟

ـــ قسم اللغة الإنجليزية ؟

أحسست أنها تريد أن تلمح بشىء ، لكننى استمرأت عملية الحوار :

ـــ لماذا .. إنه قسم صعب .؟!

قالت وهى تغالب حياءها :

ـــ ألا تعرف ؟!

ـــ أبداً .. تعلمين الظروف ، التى كنت أمر بها .

ـــ على كل حال ، كنت سأدخل قسم اللغة الإنجليزية من أجل شخص عزيز ، لكننى دخلت قسم اللغة العربية من أجل أخته .

قلت مبتسماً :

ـــ أول مرة أسمع فتاة تتخصص فى قسم من أجل إرضاء أصحابها .

ـــ النتيجة واحدة .. التدريس ، وهو أنسب عمل للمرأة ، خاصة بعد الزواج والإنجاب . أليس مصير البنت عندنا إلى الزواج ؟

ـــ هذا مصير البنت فى كل أنحاء العالم .

ـــ وهل بنات المنصورة جزء من هذا العالم ، أم بنات القاهرة فقط .؟!

عائشة هذه كانت مثل أختى تماماً ، وألومها وأعاتبها إذا فعلت ما لا أرضى عنه . الآن البنت كبرت ، فماذا أقول لها ؟ معقول هذه عائشة ؟ هل الدنيا تغيرت فى السنتين اللتين غبتهما فى المعتقل ، حتى الفتيات الصغيرات فى الأحياء الشعبية مثل حارة الفكهانى تغيرن بهذه السرعة ؟ يا إلٰهى .. كيف تغير كل شىء بهذه الدرجة اللعينة ؟! أول مرة .. أتأمل عائشة بعينى رجل . وجهها مشرق ..

بدأت تضع عليه المكياج والروج . زججت حواجبها . شعرها مكوى عند الكوافير . فستانها الأخضر ، له طوق واسع ، يبرز مقدمتى حقى العاج . عودها مرتو مستقيم ، والله .. كبرت واحلويت يا شوشو !!

ــ كيف تقضين وقتك فى الإسكندرية ؟

ــ هل عندنا وقت يا حسرة .. أنا وزينب من هنا إلى محطة القطار ، ومنها إلى بيت الطالبات .. ومن بيت الطالبات إلى الكلية .. ويا قلب لا تحزن .

ــ على أية حال ، اجتهدى حتى تنجحى بتفوق .

ــ أمثالنا تكفيها التقدير الشعبى ، وعندنا فى الكلية « مقبول » يتساوى مع « ممتاز » .. فوزارة التربية الموظف فيها مفقود ، وكله محصل بعضه يا أستاذ إبراهيم .

تأملتها غير مصدق أن تلك هى « شوشو » الفتاة البريئة الرقيقة ، التى كنت أعرفها منذ صغرى . المصيبة أن يكون قد حدث لزينب ما حدث لعائشة . فى هذه الدنيا كل شىء جائز .. لكن الأمر عندما يتصل بمحارمنا ، نظن أن ذلك من سابع المستحيلات .!!

تأملت مكتبتى حتى آخذ منها بعض المراجع عند سفرى ، فوجدت أن الكتب التى أخذها رجال الأمن لم ترجع ، والمتبقية لم تعد صالحة للاستعمال ، ولا حتى لباعة الروبابيكيا . دفعت دم قلبى لأشترى هذه الكتب والمراجع الإنجليزية ، ثم دمرت فى ليلة سوداء .. ليلة واحدة .. ليلة واحدة فقط ، حطموا فيها المكتبة . المكتبة ليست مجرد أوراق .. إنها فكر حى .. وتراث خالد .. لكن من يعرف الحقيقة فى زمان الكذب والزيف ..؟!

أحسست بغربة شديدة ، وأنا أدخل من بوابة قسم اللغة الإنجليزية ، كأنى أسير فى طريق لم أعهده من قبل . عرفت من الجدول مكان المدرج الذى يدرس فيه طلبة السنة الرابعة . وقفت وسطهم ، لكى أتعرف على أحد .. أو على الأقل

يتعرف علىّ أحد . لكنى لم أعرف أحداً ... ولم يعرفنى أحد .

ذهبت إلى حجرة القسم ، فاكتشفت أن الدكتور فريد رشدى قد طار فى إعارة إلى جامعة الكويت ، والدكتور صبرى عبد الله — والد سمر ، قد سافر مستشاراً ثقافياً فى أمريكا ، لكى يكون مع ابنته هناك فى أثناء البعثة . ماذا يمكن أن يحدث لو أن سمكة معتادة على أن تعيش فى مياه الأنهار العذبة ، جرفتها الأمواج إلى مياه البحر المالح ؟! الكلمة إذا عزلت عن سياقها فقدت معناها . المطر حين ينزل فى عز الصيف ، يحدث دهشة كبرى . مزيج من كل هذه المعانى دارت فى خاطرى ، حين تلقيت الصدمة — صدمة اللقاء فى اليوم الأول . غريب .. غريب .. وأنا فى مكان كنت فيه ملء العين والعقل والقلب . عبير أين أنت الآن .. بل أين أنا .. أين أنا ؟!

زاد من إحساسى بالإحباط والاكتئاب أن المدينة الجامعية أغلقت أبوابها فى وجهى . كان على — لأول مرة — أن أبحث عن سكن خارجى ، فقد أصبحت منبوذاً ، مرفوضاً ، من أصحاب السوابق . صار وجودى فى المدينة — فى رأيهم — يشكل خطراً على الطلاب الأبرياء . وقفت أنظر إلى قبة الجامعة فى سخرية ، وأنا جالس أمامها .. أتأمل الماضى والحاضر والمستقبل . لو كنت محجوب عبد الدايم بطل « القاهرة الجديدة » لقلت لكل شىء « طظ » .. طظ فى كل شىء .. وفى أى شىء . هناك ثمة أمور تغيرت .. ما هى ..؟ لست أدرى . قلت وأنا أحاول القيام قبل أن يحل الظلام : أيتها الجامعة لا أنتِ أنتِ ، ولا الزمان هو الزمان ، ولا إبراهيم أنا ..!! أنا من حطمت الأكاذيب عمره ، وقصمت ظهره .!! اقتنعت أخيراً بأن أحضر المحاضرات دون أن أشارك فى المناقشة . سكنت فى حجرة كئيبة فى إحدى الحارات السرطانية المتفرعة من شارع المحطة بالجيزة .

القشة التى قطعت ما يربطنى بالماضى .. الماضى السعيد ، الذى كنت أعيشه

منذ سنتين — هى أنى علمت أن عبير قنديل ، قد تزوجت من يحيى المليجى ، الذى سافر للعمل فى سفارة مصر فى اليونان . عرفت هذا من أبيها نفسه ، حين ذهبت إليه فى البيت لمعرفة أخبارها . البلد كله فى نكسة ويحيى المليجى أخذ عبير وطار . كيف تم هذا .. لم وافقت ؟ قرأ والدها بعض ما يدور فى داخلى ، فقال وهو ينظر إلى أمها ، التى تقدم لى كوباً من الشاى :

— يا ابنى كل شيء نصيب . عبير كانت معتزة بك ، وحزينة من أجلك . وقد حدثتنى كثيراً عنك . على كل .. اعتبر البيت بيتك ، وسوف نسعد بزيارتك فى أى وقت ، لأن بيت عبير مفتوح لكل زملائها .

لم تكن أمها فيما يبدو مستريحة لكلام الزوج ، فنظرتها تقول : لم يبق إلا أن نزوج ابنتنا الوحيدة لشخص مشبوه .. خريج سجون !!

بعد أن ودعت الأسرة خجلا مهزوم الوجدان ، أخذت ألفّ حول الدار ، كما يطوف العابد بالمحراب ، والحاج بالبيت الحرام . لكن المحراب خلا من الروح ، والدار خربت من المحبوب . أخذت أطوف حول البيت الذى كان معموراً ، وما حب البيت شغف قلبى .. ولكن حب من كانت تسكنه . عبير يا روح الروح ورمز الطموح .. أنا بغيرك ضائع غريب .. هائم .. وحيد . لقد زرعتِ فى القلب وردة ، لن تموت . سيظل حبك خالداً ، بقيت أم رحلت .. تذكرت أم نسيت .. وفيت أم خنت ؟! لا .. لا يمكن أن تكون عبير خائنة .. الخونة كائنات أخرى دنسة . لكن عبير روح خالص ومعنى مقدس ..!!

هبت على نسمة من روح الشيخ عبد الله .. أرانى متأثراً بالغائبين أكثر من الموجودين ..؟! عبير — يا ليلاى البعيدة القريبة — السر — بفضلك — يبرز وينكشف ، فالتجلى يُظهر للقلوب ، أنوار الغيوب . أنت حب ، والحب لا يتجلى إلا من وراء حجاب . الآن بدأت أدرك أن فى عذاب الجسد طهارة الروح .. الروح من أمر ربى . أرأيت يا إبراهيم كيف أن الحب يصنع المعجزات ؟!

الحب الحقيقى هو الحب المحض .. حب الروح ، حيث تصل إلى مقام الرضا ، وتصبح من أصحاب النفس المطمئنة . يا روح عبير .. يا روح الروح .. زمليني .. دثريني ، فقلبى من النور ، وإن كان جسدى من الطين . يا دار عبير بالمنيرة اشهدى .. أنك محرابى ومقصدى ..!!

لم أكن مواظباً على الحضور إلى الكلية . فى الحقيقة — لم أعد مواظباً على أية عادة من عاداتى قبل الاعتقال . الأمر الوحيد الذى كان يهبنى راحة نفسية هو أداء معظم أوقات الصلاة فى المسجد . لا أدرى لم أسعدنى قول الخطيب ذات مرة ، حين ذكر أن الله سبحانه ، يقول فى حديث قدسى : « ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته ، وإن استعاذ بى أعذته » ، لأن العبد فى تلك الحالة يصبح عبداً ربانياً . صار كل أملى أن أكون من عباد الله الصالحين ، الذين يرضى عنهم ، ويرضون عنه .

كان يوماً بارداً من أيام ديسمبر الممطرة ، حضرت فيه متأخراً ، فوجدت الأستاذ قد دخل المدرج ، فاستحييت أن أدخل بعده . خرجت أبحث عن مكان أقضى الوقت فيه ، حتى يحين موعد المحاضرة التالية . أحسست قدمين تسرعان ورائى . لم أهتم فى البداية . بعد ذلك أراد من يحاول اللحاق بى أن يلفت نظرى ، فأمسك بكتفى من الخلف . نظرت مستاء .. فما أعرف أحداً معرفة حميمة ، ولست براغب فى ذلك .. فمن هذا المتطفل .؟! وجهاً لوجه وجدت نفسى أمام طارق فهمى . ابتسم فاتحاً يديه :

— إبراهيم .. أهلا يا إبراهيم .

احتوانى بين ذراعيه . أحسست نتانة عرقه ، رغم أننا فى عز البرد . منذ كم سنة لم يستحم هذا الخنزير البليد .. وما الذى ذكره بى ؟ الشخص الوحيد

الذى لم أتمن أن ألقاه أجده . ومن أتمن لقاءه لا أجده .. معادلة صعبة . قلت دون انفعال بدهشة اللقاء :

ــ طارق ، كيف حالك ؟

ــ عظيم .. عظيم جداً . ما دامت الجامعة مفتوحة .. وسجائر البلمونت موجودة .. وبيرة الأهرام ساقعة ..

ضحك ضحكة لا مبالاة .. بشكل متكلف .

ــ لم تتخرج بعد ؟

ــ أنا مبسوط جداً جداً .. تعال أعزمك على شاى . لا تخف معى فلوس Money .. .

ــ أين ؟

ــ فى بوفيه قريب من السلم ، حتى تشرب الشاى ، وتمتع نظرك بالسيقان العارية الجميلة .. وهزّ يا وزّ .

مشينا متجاورين .. لم أدر ماذا أقول . لكنه أردف :

ــ آسف لما حدث .

ــ من أخبرك ؟

تحير لحظة وارتبك ، ثم بدا محاولا أن يغطى على أمر ما :

ــ هل توجد أسرار فى هذا الزمان يا إبراهيم .. كل شىء واضح للعيان . المهم .. فتح عينك تأكل ملبن .. أيوه تأكل ملبن بصحيح .

ــ تصور أنهم اعتقلونى دون سبب .

ــ أعرف ..

نطق بهذه الكلمة دون تفكير .

ــ من قال لك ؟

ــ إلى متى ستظل أبيض القلب يا إبراهيم ؟

قبل أن نصل إلى مكان شرب الشاى ، أحسست أنى لا أستريح . قررت أن أبتعد عنه . قلت وأنا أفر منه سريعاً :

ــ آسف .. تذكرت .. عندى موعد مهم .

لست أدرى كيف قادتنى قدماى إلى النصب التذكارى لشهداء الجامعة . كان الجو ضبابياً ، والسماء تنذر بمطر وبرد شديد . وقفت أتأمل التمثال .. أيها الحجر الصامت .. اشهدْ أن الجامعة ليست مكاناً للعلم فحسب . كثير من الشهداء .. والعلماء .. والعظماء .. والخونة .. تخرجوا من هنا . الجامعة أم المجتمع .. أيهما المسئول ؟! يا شهداء العصر الثورى ، فى الزمان النحاسى .. تعالوا واشهدوا نكسة جيل ضاع فى الزحام ، لأنه لم يسأل نفسه يوماً .. ما نهاية السكوت ، واكتفى بأن يصفق .. للسادة الأشاوس الأماجد ، أصحاب الأحذية الثقيلة ، التى مزقت التاريخ ، وقالت : الآن بداية سفر الكون .. الآن نحن مصر ، وسادة كل عصر . تعالى الله ، هذا الكون موبوء ولا برء ، ولو ينصفنا الرحمن ، عجل نحونا الموت .!!

أمطرت السماء مطراً أسود . لم أحاول أن أتحرك من مكانى . قبل أن يتوقف المطر ، سرت نحو ميدان الجيزة مشياً على الأقدام . بعدها رقدت مدة أسبوعين مصابا بنزلة برد حادة .

فى شهر مار س تقريبا من سنة الآلام فى نهاية محاضرة اللغويات Linguistics ، طلبت منى الدكتورة عصمة الشرقاوى أن أقابلها فى المكتب . حين ذهبت إليها أمرتنى بالجلوس ، ثم طلبت لى كوباً من الشاى . أخذت تشجعنى حتى أسترد مكانتى العلمية ، خاصة وأن هذه الدفعة ليس فيها طلبة امتياز Honor degree . وهذا يجعل فرصتى فى النجاح سهلة . طلبت منى أن أحضر إليها ، إذا أردت أى شىء .. أى شىء يا بنى . نظرت إلى فى مودة ثم قالت :

ــ هل اشتريت الكتاب المقرر ؟

ـــ نعم يا دكتورة .

ـــ خذ هذا المرجع ، ولا ترده إلا بعد الامتحان .. سكتت لحظة .. أقول لك ، خذه هدية بشرط ..

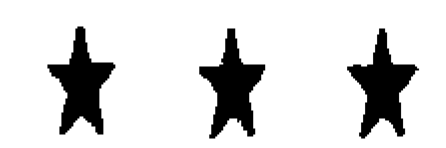
قلت غير مصدق :

ـــ ما هو ؟

ـــ أن تحافظ على امتيازك يا بنى .

ـــ سأحاول إن شاء الله ..

رغم حرص الدكتورة عصمة الشرقاوى وأبى وأمى على تشجيعى المستمر .. إلا أننى نجحت بتقدير (جيد) فقط . هكذا وئدت كل الأحلام ، وأصبحت معلماً مجهولاً للغة الإنجليزية فى وزارة التربية والتعليم . تحول الجبل الشامخ إلى فأر مهزوم . ما أصعب المساحة بين الحلم والواقع .. بين الطهر والعهر .. بين المقدس والمدنس . عوضك على الله يا بابا .. سامحنى . غصباً عنى . ما بأيدينا خلقنا تعساء .!! أيها المواطنون لقد خسرنا معركة ، لكننا لم نخسر الحرب . قفا نبك من ذكرى كل الأحباب .. وداعاً Shakespeare . يا شكسبير العظيم .. لم حكمت بالنهاية المأساوية على كل أبطالك : هاملت وقيصر وروميو وماكبث وعطيل وحتى الملك لير وهنرى الرابع ؟ المأساة Tragedy نهاية كل من يحاول أن يلعب دور البطولة .. أو يفكر فى أن يسرق النار المقدسة .!!



٩ ـــ الواحد ... والكثير

فى هذا العام كنت فى السنة الثانية فى كلية التربية ، وأخى إبراهيم فى السنة الرابعة فى كلية الآداب .. كلانا نجح بتقدير (جيد) . فرحتى بهذا التقدير لا توصف .. فأنا وعائشة ـــ مثل موظفى الحكومة ـــ نحاول أن نحصل على أعلى تقدير بأقل مجهود ، وأعلى تقدير عندنا ، هو النجاح . العمل فى التدريس نهاية الأمل ، والحصول على زوج مناسب غاية المراد من رب العباد . لكن هذا التقدير نفسه ذبح مشاعر إبراهيم وأدمى قلبه . اعتزل الحياة والناس ، وصار حزن الأسرة على إبراهيم أكبر من فرحتهم لأجلى . إبراهيم لأنه الولد الوحيد ، كان شاغل الأسرة منذ صغره .. كل شيء من أجل راحته وتحقيق ما يريد ، وما يريده إبراهيم له الأولوية على كل ما يلزم الأسرة . فى واقع الأمر .. لم يكن أخى ـــ قبل مأساة الاعتقال ـــ أنانياً مدللاً ، وإنما كان شديد الاعتدال والتواضع . شباب الحارة كانوا يغبطونه على تفوقه وأدبه . انشرخ اللوح الزجاجى .. وخشينا جميعاً أن يتحول الشرخ إلى سرطان . حبس نفسه فى حجرته ، ولم يعد يتناول طعامه معنا .. كلما حاول بابا أو ماما أن يخرجاه من عزلته أبى ورفض . أطلق لحيته .. وصار دائم العبادة كثير التلاوة .. والدعاء . عقب صلاة الفجر كنت أسمعه يتضرع إلى الله بصوت كأنه بكاء ثكلى : « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ﷺ ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين . يا حى يا قيوم ، لا إلٰه إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وتبْ على إنك أنت التواب الرحيم » .

حاول أبى أن ينتشله من عزلته ، فرفض قائلا :

ـــ الحمد لله أننى انتهيت من دراسة الجامعة ، لأنى بهذا أكون قد خرجت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

ـــ جهاد إيه يا ابنى ؟

ـــ جهاد النفس يا بابا .. أكبر عدو للمرء هو نفسه ، التى بين جنبيه ، لو تركت لها العنان ما استطعت أن تردها ، وإن جاهدتها رضيت بالقضاء خيره وشره .

أصبح إبراهيم حالة ميئوسا من علاجها . قالت أمى فى انكسار لأبى :

ـــ أكيد معمول له عمل .. يا حبة عين أمه .

قاطعها أبى متضايقاً :

ـــ استريحى ، لن نذهب إلى الشيخ سيد أو غيره من الدجالين .

أمى مريضة .. وأخى مكتئب . أشار حامد البكرى على أبى أن يأخذه إلى طبيب نفسى ، تضايق أبى من الفكرة ، ورفض الاستجابة لها .

ذات صباح جلست مع أبى قبل أن يذهب إلى العمل :

ـــ زينب .. أنت الوحيدة التى يمكن أن أتناقش معها الآن .

ـــ أمرك يا بابا .

ـــ لن يخرج إبراهيم من أزمته إلا العمل . كان يأمل أن يعين معيداً ، لكن الظروف لم تسمح . الجامعة ليست نهاية الطريق . كل ميسر لما خلق له . الله وحده هو الذى يعرف أين الخير .

ـــ ماذا ترى يا بابا ؟

ـــ تسافرين إلى القاهرة ، لسحب ملف إبراهيم من الكلية وعمل شهادات له . سوف أعطى الأوراق للأستاذ حامد ، ليقدمها فى الوزارة ليعين مدرساً .

ـــ عين العقل يا بابا .

حدث أمر خطير جعل إبراهيم يقطع عزلته ، ويمارس حياته الطبيعية بالتدريج .
ازدادت حالة ماما الصحية سوءاً بسبب حزنها على ما أصاب إبراهيم ، فهو بالنسبة لها أمل واسع عريض ، لكن الأيام تصفعه على الخد الأيمن والخد الأيسر . الفقراء مكتوب عليهم الشقاء ، يعبث بمصيرهم كل البشر ، الفقراء دواب الأرض ، تحيا حياة بيولوجية فقط ، وإذا ما طمحوا إلى المساواة بالأغنياء ، فإن القدر يسخر منهم ، ويستهزىء بهم !

لماذا فشل أخى فيما نجحت فيه سمر صبرى .. ولماذا تزوجت عبير قنديل من يحيى المليجى ، وليس من إبراهيم الشريف ؟! بابا .. هذا الرجل المثقف لم أصبح كاتب محكمة .. وليس قاضياً أو مستشاراً ؟! ماما لماذا ترقد مريضة ، لا نجد لها المال اللازم للكشف والعلاج عند طبيب متخصص ؟! لم كتب علينا الحياة فى هذا البيت العتيق فى حارة الفكهانى ؟! وأنا .. أنا . . ما الذى قتل فى نفسى الطموح وحب الحياة .؟! إنه الفقر والقهر والغلب .. الفقراء ملعونون ومطرودون من رحمة المجتمع ، سواء فى ظل الملكية أو الجمهورية أو الفاشية أو الديمقراطية .. فى الشرق أو فى الغرب . يسألوننى عن الفقر .. فأقول إنه أذى وبلاء .. فاعتزلوا الفقراء .. اعتزلوا الفقراء .. حتى لا تصيبكم عدوى الفناء ..!!

فى ليلة شديدة الحرارة والرطوبة من ليالى أغسطس ، فاجأت ماما نوبة إغماء من نوبات السكر ، كنت أرقد بجوارها ، فظننت أنها تعانى سكرة الموت ، صحت .. صرخت .. بكيت . جاء أبى ثم إبراهيم . حين رآها أبى على هذا الحال ظن ما ظننته ، غير أن أخى تقدم وأخذ يتسمع حرارة أنفاسها ودقات قلبها ونبض شرايينها . قال فى ثقة :

— إنها مغمى عليها فقط . اهدأوا ، حتى نستطيع أن نفكر ماذا ينبغى أن نصنع .

أعادت كلمات إبرهيم الطمأنينة إلى نفوسنا . أخذ يقرب قطعة قطن معطرة

إلى أنفها ، ويضع كمادات باردة على رأسها . طلب منى أن أحاول وضع قطرات من ماء حلو فى فمها .. شيئا فشيئا بدأت تفيق . تساءل أبى :

— لم لا ننقلها إلى المستشفى ؟

فرد إبراهيم :

— صعب أن تجد طبيباً خاصا فى هذه الساعة المتأخرة ، والأصعب أن تحصل على مساعدة فى أى مستشفى حكومى .

أول شيء فعلته أمى — بعد أن أفاقت — هو احتضان أخى :

— إبراهيم حبيبى .!!

أعادت هذه الحادثة الثقة إلى إبراهيم ، وبدأ يتخلص شيئاً فشيئاً من حالة الاكتئاب .. وفقدان الذاكرة الجزئى ، التى كان مصاباً بها . بدأت الأمور فى التحسن النسبى ، فقد اضطر لمقابلة العواد ، الذين جاءوا لزيارة أمى فى أثناء غياب أبى أو حضوره ، كما صحب أمى لزيارة الطبيب أكثر من مرة . كنت قريبة منه جداً فى هذه الفترة .. حمدت الله كثيراً ، فقد استرد إبراهيم ثقته بنفسه ، كما تجاوزت أمى أزمتها الصحية .

ذات مساء حضر إلينا الأستاذ حامد البكرى . سمعته يقول لأبى فى حضور إبراهيم ، وأنا أقدم لهم الشاى :

— أريد الحلاوة يا أحمد أفندى .

— خيراً يا أبو عائشة ؟

— صدر قرار تعيين الأستاذ إبراهيم مدرساً للغة الإنجليزية فى مدرسة طنطا الثانوية .

— من أخبرك ؟

— صديق .. كلفته بمتابعة قرار التعيين فى الوزارة .

قلت فرحة :

— عقبى لى أنا وعائشة يا عم حامد .

قال إبراهيم :

— شكراً يا عمى حامد . طول عمرى أحس أنك مثل والدى .

فرد عليه :

— هذه عِشرة عمر يا ابنى .

مع بدء العام الدراسى ذهبت إلى الإسكندرية .. وكان إبراهيم يسافر كل يوم بالقطار إلى طنطا ، ويعود فى المساء لرعاية الأسرة . بعد عدة شهور جاء لزيارتى فى الإسكندرية . قلت ونحن نتمشى على الكورنيش أمام حى الشاطبى :

— هذه الزيارة لى أم لعائشة ؟

— لك أنت فقط يا حبيبتى .

— هل حدث مكروه لماما أو بابا ؟

— لا إنهما بخير ، لكنى أريد أن أعرف رأيك .

— فى أى شىء ؟

— عريس يريد أن يتقدم .

— ما زلت صغيرة يا أبيه .

— اتركى دلع البنات .. وقولى رأيك .

— الرأى لبابا وماما وأنت يا أخى .

— لن أفاتح أحداً فى الموضوع إلا بعد معرفة رأيك . أنت صاحبة الشأن .

أحسست نشوة غامرة ، لأن إبراهيم استعاد ثقته بالحياة ، ولأنى مثل كل فتاة .. أحلم بالثوب الأبيض والطرحة البيضاء :

ما احلى جمالك يا عروسة   يا حلوة م العين محروسة

— لم تقل لى .. هل هو واحد من أصحابك ؟

— لم تريه أبداً .

ـ وهو رآنى ؟

ـ مطلقاً .

ـ أليست هذه مسألة محيرة يا أخى ؟!

ـ كيف ؟

ـ شخص لم أره .. ولم يرنى .. ومع ذلك يريد أن يخطبنى ، وأنت تريد أن أقول رأيى فيه .. كيف ؟ هذه فزورة يا أبيه .

ـ لا فزورة .. ولا يحزنون .

ضحكت ضحكة عالية ، فقد دار بفكرى خاطر غريب قلت :

ـ أبيه ...

ـ نعم يا حبوبة .

ـ أخشى ألا تكون قد رأيته أنت أيضاً .

انتقلت عدوى الضحك إليه ، وقال :

ـ لم أكن أعرف أنك صرت فتاة شقية هكذا

ـ أنسيت أنى طالبة جامعية ؟

قال وهو يضع يده اليسرى على كتفى الأيمن :

ـ أمرى لله ، سأعزمك على غداء سمك ، وأقول لك الحكاية من أولها إلى آخرها .

ـ أرجو ألا تكون هذه رشوة ..!

ـ لا .. هذه حلاوة صرف أول مرتب ، يأخذه أخوك من وزارة التربية .

اكتشفت من الحديث أن والد العريس هو صديق أخى ، وليس العريس نفسه . الصديق هو الحاج حلمى أبو حسين ، الذى قابله مصادفة يوم خروجه من المعتقل ، ولولا عمله فى طنطا لما فكر فى زيارته . لكن الرجل ارتاح لأخى ، لدرجة أنه عرض عليه أن يعمل معه فى التجارة بعد انتهاء عمله فى المدرسة ، وأن

هذا أشرف له من الدروس الخصوصية . لكنه رفض بسبب ظروف سفره يومياً إلى المنصورة . وقد التقى عنده بابنه الكبير الأستاذ صلاح ، وهو متخرج من كلية التجارة ، ويعمل فى البنك الأهلى بطنطا . بعد أن صارت صلته وثيقة بالرجل وابنه ، عرض عليه الحاج حلمى أن يزوجنى لابنه صلاح .. إن كان هناك قسمة ونصيب . أخذت أنا وأخى نتعجب من هذه المصادفات العجيبة .. اللقاء يوم الخروج من المعتقل .. العمل فى طنطا .. أن يكون للرجل ولد شاب .. وغير متزوج . قال أخى :

ـــ اتركى هذا التفلسف وقولى ، هل أنت موافقة على زيارتهم لنا ؟

ـــ تصور يا أبيه قلبى يحدثنى أننى سأوافق .

ـــ ألم أقل أنك أصبحتِ فتاة شقية ؟!

فى إجازة منتصف العام حضرت الأسرة : الحاج حلمى . وزوجته ، وابنه المحاسب صلاح . قضوا يوماً جميلا معنا . تقاربت الأسرتان كأنما بينهما علاقة قديمة . فى الأسبوع التالى حضر الحاج حلمى وابنه فقط ، واتفقوا مع أبى وإبراهيم على أن تكون الخطبة فى هذا الصيف ، والزواج فى الصيف التالى ، حيث أكون قد حصلت على الليسانس أيضاً . هكذا قدر لى أن أحصل على الليسانس والعريس والوظيفة فى سنة واحدة . رغم فرحتى الشديدة بكل هذا ، إلا أننى لم أستطع أن أتجاهل أحزان أبى وأمى . كانا يرغبان فى أن أتزوج فى المنصورة نفسها . أمى كررت ذلك كثيراً :

ـــ عندى بنت واحدة ، يستحيل أن أزوجها غريبة .

لكن ها هى الأقدار تعصف بأحلام أمى ، غير أن تلك مشيئة الله ، ولا راد لقضائه .

بعد زواجى بسنة .. استدعانى أخى بالتليفون ، لأن أمى مريضة . حضرت أنا وصلاح . لم أزر أمى كثيراً فى هذه السنة ، لأنى عروسة جديدة .. وموظفة

مبتدئة .. وأيضاً بعيدة عن الأسرة . أمى كانت تقول : البعيد عن العين بعيد عن القلب . صحيح يا ماما .. فقد شغلت بحياتى الجديدة ، ونسيتك .. سامحينى .
حالة أمى متأخرة جداً . معظم الوقت تكون غائبة عن الوعى . حين تفيق تقول : أقفلوا الأبواب ، اللصوص يريدون أن يسرقونى .. ابعدوا .. أبعدوهم .

مرة أخرى تقول : أمى لابسة أخضر فى أخضر ، وتنادى على . والله وحشتينى قوى يا ماما .. أنا قادمة ، سأستأذن من أحمد أفندى وأحضر إليك . كان إبراهيم وأبى يدركان أمراً ، لم أدركه إلا بعد أن رحلت العزيزة الغالية . الإنسان حين يدنو أجله ، تكون روحه أقرب إلى عالم الموتى منها إلى عالم الأحياء ، لذلك ترى أحبابها الراحلين ، كأنما اشتاقت إليهم واشتاقوا إليها ، فتكلمهم كأنما تراهم رأى العين .

أمر عجيب .. أمى عندما كانت تفيق ، كانت توصينى أنا البنت الصغرى بأخى الأكبر :

ــ خلى بالك من أخيك .. دائماً اسألى عنه وتوصى به ، ولا تحاولى أن تغضبيه . سامحنى يا أبو إبراهيم .. سامحنى يا أخى ..

كنا نشتعل بكاء عند كل كلام تقوله . طلب منى صلاح ألا أزعل من أجل الجنين الذى أحمله ، قلت له غاضبة :

ــ لو كانت أمك أنت ما طلبت منى هذا ؟!

سرعان ما خرجت الروح إلى بارئها ، قال أبى وهو يغلق عينيها :

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون .. أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله .

صرخت أم عائشة صرخة عالية :

ــ سايبة ولادك لمين يا حبيبتى يا حبيبتيى ى ى ...

قال إبراهيم باكياً :

ــ الصبر يا أم عائشة ، ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية .

إحساس مر ، ذلك الذى يشعر به الإنسان حين يفقد أمه .. مصدر حياته وسر وجوده . أكثرنا حزناً هو أبى .. كان مسلوب الفكر مشتت الفؤاد سقيم الوجدان . اصبر على ما ابتليت به يا أبى . ذهب النصف ، الذى شاركك حلو الحياة ومرها . أنت رجل بيتى . البيت جنتك ، فماذا عساك فاعلا بعد رحيل شريكة العمر ورفيقة الرحلة الصعبة .. رحلة الحياة الزوجية ؟!

يروى أن رسول الله ﷺ فى ليلة الإسراء والمعراج ، سأل عزرائيل : « كيف تقبض الأرواح وأنت فى مكانك هذا ؟ قال : إن الله أمكننى من ذلك ، وسخر لى من الملائكة خمسة آلاف ، أفرقهم فى الأرض ، فإذا بلغ العبد أجله ، واستوفى رزقه ، وانقضت مدة حياته ، أرسلت إليه أربعين ملكاً يعالجون روحه ، فينزعونها من العروق والعصب واللحم والدم ، ويقبضونها من رؤوس أظافره حتى تصل إلى الركب ، ثم يريحون الميت ساعة ، ثم يجذبونها إلى السرة ، ثم يريحونه ساعة ، ثم يجذبونها إلى الحلقوم ، فتقع فى الغرغرة ، فأتناولها وأسلها كما تسل الشعرة من العجين ، فإذا انفصلت من الجسد ، جمدت العينان وشخصتا ، لأنهما تتبعان الروح ، فأقبضها بإحدى حربتى هاتين ، وإذا بيده حربة من نور ، وحربة من سخط ، فالروح الطيبة يقبضها بحربة النور ، ويرسلها إلى عليين ، والروح الخبيثة يقبضها بحربة السخط ، ويرسلها إلى سجين ، وهى صخرة سوداء مدلهمة تحت الأرض السابعة السفلى . فيها أرواح الكفار والفجار . قلت : وكيف تعرف إذا حضر أجل العبد ؟ قال : ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب ينزل منه رزقه ، وباب يصعد إليه عمله . وهذه الشجرة التى عن يسارى ما عليها ورقة إلا وعليها اسم واحد من بنى آدم : ذكوراً وإناثاً ، فإذا قرب أجل الشخص اصفرت الورقة التى عليها اسمه ، وتسقط على الباب الذى ينزل منه رزقه ويسودّ اسمه فى اللوح ، فأعلم أنه مقبوض ، فأنظر إليه نظرة ، يرتعد منها جسده ، ويتوعك قلبه من هيبتى ، فيقع فى الفراش ، فأرسل إليه أربعين ملاكاً من

الملائكة ، يعالجون روحه » .!!

يا رب أسألك بحق وجهك الكريم ، واسمك العظيم ، أن تقبل روح أمى فى جنتك ، وأن تصبر أبى على قضائك ، وأن توفق أخى .. وتهدى زوجى إلى صالح الأعمال ، وترزقنى منه ذرية صالحة .

هزنى موت أمى هزة عنيفة .. أحسست بعده بفراغ هائل .. وشعرت أن الأب والأخ والزوج ، لا يمكن أن يعوضوا غيابها . لم أكن وحدى الحزينة ، وإنما كل من كان يعرفها حزن لفراقها حزناً شديداً . قال إبراهيم ذات صباح :

ـــ أحس أننى مسئول عما حدث لأمى .. بل عما حدث للعائلة كلها من أحزان .

قلت :

ـــ إذا كان كلامك صحيحاً .. فمن المسئول عما حدث لك ؟!

قطع دخول صلاح زوجى الحوار . سكت قليلا ونظر إلى سماء غرفة والدتى التى كنا نجلس فيها . زوجى إذا سكت فهذا يعنى أنه يريد أن يقول شيئاً ، زوجى وأنا عارفة بأحواله ـــ رغم قصر المدة التى عشتها معه ، لأنه إنسان أبيض القلب مثل أبيه . قال موجهاً كلامه لإبراهيم :

ـــ العزاء الشرعى لا يزيد على ثلاث ليال . وقد مر على وفاة المرحومة أسبوع كامل ، لذلك يجب أن يذهب كل واحد إلى عمله .

قال إبراهيم مستسلماً .

ـــ ما تراه يا أخى :

صحت فيه :

ـــ لن أغادر بيت أمى إلا بعد الأربعين . أنسيت بابا .. ماذا لو تركناه وحده .؟! كل واحد منكم حر ، لكننى لن أترك بابا إلا بعد أن أطمئن عليه ..

انفجرت باكية . قال صلاح :

ـــ أرأيت يا أستاذ إبراهيم .. أختك صارت عصبية جداً ؟!

ـــ كان الله فى عونها .. كانت أكثرنا قرباً من المرحومة .. الله يصبرها .. ويصبرنا .

قال صلاح فى سماحة :

ـــ حقك على .. افعلى ما يريحك .. ولكن المدرسة ..

ـــ سأطلب إجازة مرضية .. وأنت تذهب إلى عملك وتحضر لى كل أسبوع .. أو كل يوم كما ترى . المهم أعطنى فرصة ، حتى أعيد ترتيب الأوضاع ، وأطمئن على بابا .. وعلى إبراهيم .

اكتشفت فيما بعد أننى كنت على حق ، فلولا بقائى لانهار أبى حزناً على وفاة شريكة عمره ، وضاع إبراهيم قلقاً ، فقد بدأت تعاوده من جديد الرغبة فى العزلة والبعد عن الناس ، كما أنه بدأ يمارس عادة التدخين اللعينة . لم أكن أحسن منهما حالا ، خاصة أنى حامل فى الشهر الثامن .. وبدأ الحمل يتعبنى ، ويحد من حركتى . لكنى كنت يقظة لحالة أبى وأخى ، حاولت أن أخفف عنهما ما استطعت .. مستعينة فى ذلك بعائلة الأستاذ حامد البكرى ، خاصة عائشة التى ساعدتنى كثيرا فى إخراج إبراهيم من صومعة الحزن ، التى حاول أن يحبس نفسه فيها .

بيتنا بعد محنة وفاة أمى ، يذكرنى كثيراً بالوطن الذى يعانى من النكسة . ما أشبه هزيمة الاثنين .. وأحزانهما . الوطن ذات واحدة ، لكن أحواله كثيرة ومتغيرة . مصر هى مصر منذ الأزل .. مرت عليها عصور قوة ومجد أو ضعف واضمحلال .. نصر وفخر أو هزيمة وانكسار . الوطن واحد من حيث الذات ، وكثير من حيث الصفات ، لكن هذه الصفات المتعددة العارضة ، تخضع لطبيعة الذات نفسها . مات عبد الناصر وجاء السادات ، فهل يبقى الحال على ما هو عليه ، أم تتغير حالة الوطن ، كما تتغير الأمواج فى بحر الوجود ؟!

بيتنا لن ينصلح حاله إلا إذا تعدلت مسيرته .. لكن كيف يمكن ذلك يا زوزو ؟! فى بيتنا رجلان .. والبيت بغير امرأة صالحة قبر موحش . الرجل الأول صعب .. بل مستحيل أن أحدثه فى الأمر . منذ دخول أخى المعتقل والدهر يخرث جسده ويمزق شمله . صار أطلال إنسان مادياً ومعنوياً . الوحيد المؤهل للزواج هو إبراهيم . قد تنسيه المرأة ــ خاصة إذا ما كانت تحبه وتقدره ــ مثل عائشة ــ هموم الحياة .. ثم يأتى الأطفال ، فيملئون البيت حركة وبركة ، وينشغل بهم الأب والجد .. ويظل بيت الشريف مفتوحاً ، وذريته مستمرة إلى أبد الآبدين . على خيرة الله .. بدأت أخطط وأرتب ، وبذلت المسكينة عائشة أقصى ما يمكن أن تفعله عذراء .. لكن أبو الهول ظل صامتاً ، و لم تستطع هى أو أنا أن نعيد الكبرياء إلى أنفه المحطم .!!

فاجأتنى آلام المخاض فى ليلة باردة .. امرأة تلد ومعها رجلان ..؟! طلبت مساعدة أم عائشة ، فأرسلت فى طلب الداية .. واستمر الوضع ليلة كاملة كنت فيها بين الحياة والموت ، وسبحان من يخلص روحاً من روح . قالت أم عائشة :

ــ تحملى يا ابنتى ، البكرية دائماً ولادتها صعبة .

ــ الحمد لله .. ذهبت نفيسة الجدة ، وجاءت نفيسة الحفيدة .

هكذا قال الحاج حلمى لأبى وهو يداعب الوليدة ، ثم استطرد :

ــ اسمع يا أحمد أفندى لقد أخذت نفيسة منكم الاسم فقط ، لكنها أخذت من عائلتنا الصفات والملامح .

قال صلاح :

ــ المهم أن نفيسة عادت من جديد .

قال إبراهيم مبتسماً :

ــ ادخر مهرها من الآن .

قال الحاج حلمى :

ـــ نفيسة ستكون جميلة مثل جدتها وأمها . الجميلة مهرها الجمال .. وربنا يحرسها من العين ..!

تعجبت من قدرة الله .. قبل أن تمر ذكرى الأربعين جاءت نفيسة ، ليظل الاسم موجوداً فى عائلة الشريف . سألت إبراهيم عن سر ذلك فقال :

ـــ هناك عقيدة اسمها التناسخ ، ومعناها بالانجليزية **Rebirth** ، تدور حول الاعتقاد بتردد النفوس الباقية ، فى الأجسام البالية . ومن يدرى فلعل الله سبحانه ، قد أظهر على يديك صدق هذه الحقيقة .

ـــ لا أستطيع أن أجاريك فى آرائك الفلسفية . المهم قل متى تنطبق هذه القاعدة عليك ، وتأتينا بأحمد الصغير ، خاصة أن العروسة موجودة وموافقة ، والمرحومة كانت تعزها مثلى تماماً ؟!

ـــ لست مؤهلا لذلك الآن .

ـــ ما زلت تفكر فى عبير .

فاجأته بالرد ، فاضطرب قليلا . أنا أنثى أعرف مدى تأثير المرأة على الرجل ، فهى تقدر أن تبنيه أو تهده .. تجعله متفائلا مقبلا على الحياة ، أو متشائما لا أمل له فيها . أحسست أنى وضعت يدى على جرح غائر.. التأم ظاهره غير أن باطنه ، لا يزال ممتلئاً صديداً ودماً فاسداً . ماذا أفعل ؟ يا رب ساعدنى .. أمى أوصتنى عليه . قلت له :

ـــ صدقنى يا إبراهيم .. حكاية الحب الأول هذه خرافة كبيرة .

ـــ لم تعرفى ما كان بيننا .

ـــ قل يا حبيبى .. سأستمع إليك جيداً بعد أن أضع نفيسة فى فراشها .

عدت إليه متلهفة .. أول مرة يصرح إبراهيم بحبه لعبير ، ويتكلم عما بينهما من لقاء وحديث وصلة واتفاق . تعاهدا على الزواج .. وهربت منه عند أول

محنة . لو بقيت فى انتظاره ما فشل فى دراسته :

ــ كنت أجتهد من أجل عبير ، فلما ضاعت فقدت الرغبة فى كل شيء .

لم أكن مقتنعة برأيه .. لكن أمور العاطفة لا تُصدق ولا تكذب ، إنها حقائق نفسية راسخة ، تؤثر فى حياة المرء من وراء الحجب الكثيفة ، التى قد تتخفى وراءها . أنا المرأة الوحيدة التى عليها الآن أن تعيد التوازن إلى حياته .. أنا أمه وأخته وصديقته .. وهو كل مستقبلى .. ليس لى أخ سواه . قلت :

ــ لابد أن تكون واقعياً .

ــ كيف ؟

ــ عبير ذهبت ، الله يوفقها . وظيفة معيد ضاعت ، ربنا يعوض عليك . الإنسان يجب أن يكون مرناً ، يستجيب لما يحدث فى الحياة من تغير .. أنسيت ما كنت تقول لى ؟

ــ ماذا قلت ؟

ــ التغيير سنة الحياة وقدر الأحياء .

ــ معك حق .

ــ أود أن أخطب لك عائشة قبل سفرى .

ــ قلت لك سأحاول أن أبدأ من جديد .. أعطنى فرصة ، لأعيد حساباتى مع نفسى .

ــ موافقة بشرط .. أن تنسى الماضى .

ــ أرجو أن يساعدنى الله على ذلك .

ــ يكفى انشغالى على بابا .. حاول أن تتماسك من أجله . لقد فعل الكثير لك ، وحان موعد رد الجميل .

ــ سأكون بفضل الله ابناً باراً .

عدت إلى طنطا بعد أن تحسنت صحتى ، كنت أسكن فى بيت العائلة ، الحاج حلمى بنى عمارة كبيرة : الدور الأول والثانى لتجارة القماش التى يعمل بها . وهو يسكن الدور الثالث .. وأنا وحسين فى شقة بالدور الرابع . أصر والد زوجى أن آخذ إجازة من العمل لرعاية الطفلة ، وهو يرى ذلك خطوة تمهيدية لترك الوظيفة كلية . فهو مثل كثير من التجار ، لا يستريحون لفكرة عمل المرأة :

ـــ كل هذه البهدلة يا بنتى من أجل خمسين جنيهاً .. طظ ، إن هذه الخمسين جنيهاً مرتب أصغر خادم عندى فى المحل .

قلت له :

ـــ نحن لا نعمل من أجل المال فقط يا عمى الحاج .

ـــ أعرف كل حججك ، لكنى غير مقتنع بها .. أنا دقة قديمة . أمرك لله يا أم نفيسة . قومى جهزى لنا الغداء .. ولا تنسى الفتة . اللحمة بغير فتة لا طعم لها .

نتناول الغداء دائماً مع الأسرة .. فى شقة العائلة . صهرى رجل طيب .. وحماتى أكثر طيبة .. وزوجى رجل متفاهم ، لا يرد لى طلباً . أحببته حباً جماً مع أنى لم أكن أعرفه معرفة وثيقة ، حتى فى سنة الخطوبة . عشت طوال عمرى أحلم بالحب الرومانسى المشبوب .. والمحب الذى يعاكسنى من بعيد .. نظرة .. فابتسامة .. فسلام .. فكلام .. فموعد .. فلقاء . حب مستريح ، ينمو خلال شهور وسنين ، حتى يكون ثابتاً ويزيد . كنت أتخيل أن من أتزوجه ، يجب أن أعرفه عن قرب قبل أن يتقدم لطلب يدى . الدنيا تغيرت .. وأنا جزء من هذا التغيير . الفتاة الجامعية .. لا تعامل معاملة الشاة ، وإنما ينبغى أن يكون لها رأى فى شريك حياتها . هذا حق اكتسبته المرأة ، دفع ثمنه مفكرون أضاءوا طريق التنوير مثل رفاعة الطهطاوى وقاسم أمين وسعد زغلول وأمينة السعيد . اكتشفت أن كل هذه الأحلام الجميلة ، مجرد خواطر مثالية لمرحلة الصبا والشباب

.. نتيجة الكبت والضغط والتربية التقليدية وقراءة الشعر والقصص . سامح الله شوقى وناجى وعلى طه وعبد الحليم عبد الله وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعى ، فقد شكلوا كثيراً من خيالاتى العاطفية بالنسبة للحب والمحبوب . بعد الزواج اكتشفت أن الحياة أكبر من أى نص أدبى . أبعد من هذا وجدت أنى أحب زوجى — رغم الزواج التقليدى والحياة الروتينية والامتثال لبعض مبادئ الحاج حسين . جزء كبير مما يجعل السعادة قريبة المنال .. أن نرضى بالواقع ، ونقبل المقدر والمكتوب . هذا ما يرفع العبد إلى مقام الرضا . الرضا قائم على القناعة بما قسم الله ، والزهد عما فى أيدى الناس ، فمتاع الدنيا قليل .. ولا ينبغى أن يمد المرء عينيه إلى ما متع الله به غيره . كن راضياً تكن أغنى الناس ، وتصبح من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

رفع من قدر قامتى عند أهل زوجى أن إبراهيم أخى كان مدرساً ناجحاً فى عمله ، فهو معلم فاضل ، ونتيجة فصوله أحسن النتائج فى المدرسة .. أكثر من ذلك رفض الدروس الخصوصية — التى يسميها دعارة علمية — منطقه فى هذا كما شرحه لى ، أنه إنسان فقير .. ولن يستغل حاجة أى فقير مثله ، لذلك كان يعطى دروساً إضافية دون أجر ، وهذا ما سبب قدراً من الحرج ، بينه وبين بعض الزملاء وإدارة المدرسة .

قلت له :

— ليس كل التلاميذ فقراء .. خذ من الغنى ولا تأخذ من الفقير .

قال ساخرا :

— نحن يا أختى فى عصر الاشتراكية ، والاشتراكية فى بلاد مثل بلادنا معناها .. أن يشترك الناس جميعاً فى الفقر .!!

طلب منه الحاج حلمى أن ينقل مسكنه إلى طنطا ، فهو مدرس ناجح .. يعرف مكانته كل أهل طنطا ، وسوف يعطيه شقة فى البيت . لكنه رفض من أجل

ألا يترك بابا وحيداً ، فرد عليه :

ــ بابا بقيت له سنة أو سنتان ثم يحال إلى المعاش ، فلم لا يحيل نفسه من الآن ، ويأتى للإقامة معنا فى رحاب ولى الله السيد البدوى .. شيء لله يا سيد ..!!

رد عليه إبراهيم :

ــ يكفى أنك أخذت زهرة عائلة الشريف .

حركت هذه المحادثة فى نفس إبراهيم الرغبة فى أن ينقل نفسه إلى المنصورة ، ليكون بجوار والده .. وقد حدث ذلك فى نهاية العام الدراسى . بعد أن انتقل إلى المنصورة ، قال له بابا :

ــ أتمنى أن أحمل ولدك قبل أن ألحق بأمك .

فرد عليه .

ــ أطال الله عمرك يا أبى .. كل شيء بمشيئة الله ، له الأمر من قبل ومن بعد .

كنت سعيدة بحياتى الزوجية . صلاح يعمل صباحاً فى البنك ، وفى المساء يراجع حسابات محل أبيه . طلبت منه أن نذهب لمشاهدة الليلة الختامية لمولد السيد البدوى ، فقال :

ــ أبى لن يوافق .

فقلت :

ــ لا أدرى من تزوجت ؟ على كل حال إذا لم تأت معى ، فسآخذ إحدى صديقاتى .

فقال :

ــ لو علم أبى لطردنا من البيت .

ــ أنا فتاة متعلمة .. لى رأى .. وأعرف كيف أحافظ على نفسى .

ــ أمرى لله .. سنذهب بعد صلاة العشاء .

كانت ليلة لا تنسى .. رأيت ملاعب السيرك .. وحلقات الذكر .. « الله حى

.. الله حى » .. وأصوات المنشدين :

يا قطب جينا الحمى ، ننظر كراماتك
يا قطب دا احنا رعية من رعاياتك
وإذا كنت تلفنا بضايع من بضاعاتك
الذنب يغفر ، لكن الصفح عاداتك

أحسست فى المولد أننى طفلة لم تمارس طفولتها من قبل ، فأخذت أتفرج سعيدة بكل ما ألقاه من وسائل اللعب وأماكن العبادة . نهاية المطاف كانت زيارة ولى الله وقراءة الفاتحة . تعجبت من نفسى . رغبتى قوية فى الأخذ بمتع الحياة .. لكنى فى مواقف العبادة نقية مثل رابعة العدوية . قال صلاح :

ـــ لا رهبانية فى الإسلام ، ومتع الحياة الحلال مباحة كلها .

لم أجرؤ أن أدخل مع صلاح ، لآخذ نفيسة من شقة حماتى . من يدرى .. فقد يكون ما فعلته أمراً ، يثير غضب أى من والديه . غير أن شيئاً من هذا لم يحدث ، فقد رجع بالطفلة ، لكنه عاد على حالة غير التى ذهب بها . قلت :

ـــ أكيد حدث شىء . هل غضب أبوك أو أمك ؟

ـــ لا .. هذا أمر يخصنى أنا وأنت فقط ، وهما لا يتدخلان فيه .

ـــ يبدو عليك الحزن .

ـــ عندى صداع ، هذا كل ما فى الأمر .

حاولت أن أنام ، لكنى فى اللحظات التى أصحو فيها لرضاعة الطفلة ، كنت أحس أن زوجى يقظان .. لم ينم ، وإذا حاولت أن أكلمه تناوم ... فى الصباح طلب منى أن أجهز حقيبة السفر فقد جاءت برقية من إبراهيم تطلب سرعة حضورى .

ـــ حدث مكروه لأبى ؟

ـــ أبوك بخير .. لكن إبراهيم يطلب حضورك .

لماذا يا رب ؟! ليلة واحدة فى العمر أفرح فيها ، تكون عاقبتها هذه البرقية المخيفة .. اللّٰهم اجعله خيراً . ألف سلامة يا بابا ..!

طلبت من صلاح أن يحضر عربة تاكسى ، حتى نصل بسرعة ، قلبى يحدثنى أن فى الأمر شيئاً . قلبى لا يكذبنى خاصة فى المصائب . حسناً فعلت أم صلاح ، لأنها أصرت أن تبقى نفيسة عندهم ، لأنها لن تتحمل متاعب السفر ذهاباً وإياباً . كلما اقتربنا من المنصورة ، ازداد اضطراب قلبى .. كنت أقرأ كل ما أتذكر من آيات القرآن الكريم ومن الأدعية المأثورة . وختمت ذلك بقولى : « اللّٰهم إنى لا أسألك رد القضاء ، ولكن أسألك اللطف فيه » .

قابلتنى أم عائشة على السلم ، فقالت حزينة :

— لم تأخرت ؟.. بابا تعبان قوى يا بنتى .

كأنما كانت روحه معلقة عند الحلقوم ، انتفض حين رآنى . حاول أن يمسك بى فلم يستطع . ملت إليه فأحسست جسده بارداً :

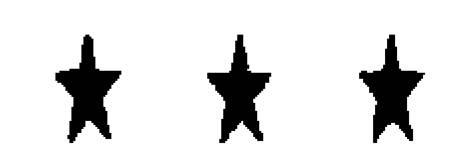
— بابا .. سلامتك يا بابا .. يا حبيبى .

قال بصوت ضعيف :

— خلى بالك من نفسك .. ومن أخيك .. ومن زوجك .. ماما تنادى على ...

أغمض عينيه إلى أبد الآبدين .. وأنا أبكى وأصرخ :

— بابا .. بابا .. يا حبيبى .. يا بابا . من لى بعدك .. لمن تتركنى يا بابا ..؟!



١٠ ــــ صندوق العجب ..!

هذه الدنيا عجيبة ، الذين تعيش معهم تحت سقف واحد ، قد لا تحبهم ولا تقدر على معاشرتهم . وفى نفس اللحظة تشتاق إلى أحباب بينك وبينهم مسافات بعيدة . باختصار تعاشر من لا تحب .. وتحب من لا تعاشر . المأساة أنه رغم وعينا بهذه المسألة ، قد لا نستطيع حلها . دارت فى خاطرى هذه الفكرة الغريبة بعد الحوار العاصف ، الذى دار بينى وبين أمى منذ لحظة . القصر من غير حب قبر يا أمى . يكفى ما أنا فيه من عذاب .. وضياع واغتراب . تأملت الحجرة مظلمة ، وأنا ممددة على السرير بملابسى مثل مومياء فرعونية . إبراهيم لماذا جعلتنى أحبك يا روح قلبى ؟! لم قدر لى أن أحب .. آلاف الفتيات يعشن بلا حب ولا يحزنون .. يرددن كلمة الحب ، ولا يعرفن لها دلالة ، وإنما يطبقن القول المأثور : « تناكحوا ، تناسلوا ... » أى نكاح .. وأى نسل .. لا يقوم على حب وتفاهم .؟! أنثى الحيوان تستجيب لأى ذكر ، لكنى أنثى الإنسان إنسانة .. لها قلب ومشاعر ووجدان وعواطف ، لذلك ينبغى ألا تتعرى إلا لمن يملك قلبها ، ويحرك وجدانها ، أمى تقول :

ــ التعليم هو السبب .. هو الذى خرم نافوخك ، وأفسد عقلك . ليتك ما تعلمتِ ..!

ــ يا ريت .!!

كيف يستطيع المبصر أن يُغمض عينيه .. وكيف يقدر العارف أن يسلك سبيل الجاهلين ؟ أمى ارحمينى أرجوك .. لقد عرفتِ الظلم يوماً فلا تظلمينى ، لأنى كنت المدافع الأول عنك .؟! إيه .. تاريخ أسود وذكرى حزينة .. يا كريمة . أنا

الابنة البكرية لوالدى الأستاذ حسين غالب ، الموظف بالشئون الاجتماعية ــ إدارة الدقهلية . تخرج فى كلية الآداب ــ قسم الاجتماع . شغل منصب وكيل الإدارة بعد أن تزوج من أمى عفاف محمد أبو الوفا ، ورزقا بثلاث بنات : كريمة ونعيمة وحليمة . لم يكن إنجاب أمى للبنات يمثل مشكلة بالنسبة لأبى ، بل كان يردد كثيراً : البنات قدم الخير .. من لم يخلف بنات لم ينجب .. ليس أحن من الفتاة على أهلها .. الولد إذا كبر تخطفه بنت ، والبنت إذا كبرتْ تأتى برجل . كنت مرتبطة بأبى أشد ما يكون الارتباط العاطفى ، يأخذنى إلى كل مكان يذهب إليه ، هو الذى يشترى معى كل ملابسى ولوازم المدرسة ، هو الذى يشرح ما غمض على من الدروس . أحياناً كثيرة أنام معه فى سريره . كانت أمى تتضايق من بعض تصرفاتى الصبيانية ، وتقول :

ــ سوف تفسد كريمة .. الدلع لا يربى البنات .

أحياناً أختلف مع ماما وندخل فى شقار ونقار ، كأننا ضرتان .. ولسنا أماً وابنتها . أبى يلقننى بعض ما يغيظها من عبارات : من تزعل تذهب إلى بيت أبيها . هذا بيت أبى ، فاذهبى إلى بيت أبيك . مضت الأيام حلوة سعيدة عندما كنت صبية . أخذت أرشّد حبى بعد أن برز ثدياى ، وبدأت تتردد على الدورة الشهرية . مع نضج أنوثتى صار الأب مثلى الأعلى فى كل شىء ، لدرجة أن أحلامى العاطفية فى هذه الأيام ، كانت تحلق حول محبوب فى مثل سن بابا .. وله كل صفاته ومواصفاته ، حتى تدخين السجائر . آمنت ــ حينئذ ــ أن علماء النفس على حق ، حين تكلموا عما أسموه « عقدة إلكترا » .

بعد أن نجحت فى السنة الأولى الثانوية بتفوق ، عشت صيفاً ساخناً .. ساخناً جداً ، هز كيانى ، وقلب حياتى رأساً على عقب ، بل كاد يدمر أسرتنا . لجأت أرملة شابة إلى أبى بحكم وظيفته فى التأمينات الاجتماعية ، حتى يساعدها فى تسهيل إجراءات معاش زوجها الراحل . الأرملة أمل عبد الفتاح صابر : ــ سيدة أنيقة

رشيقة ، زادتها ملابس الحداد وجاهة ووقاراً ، وأبرزت نقاء بشرتها البيضاء . مات المرحوم فجأة ، وترك لها طفلا واحداً ذكراً . إذن فهذه امرأة أخرى ، قادرة على إنجاب البنين .. وقد تأكد ذلك بالتجربة ، معنى هذا .. أنها امرأة جميلة ، عندها شقة ، ورثت عن المرحوم بعض الأراضى الزراعية .. غير المعاش ، بالإضافة إلى أن ولدها طفل صغير فى الخامسة من عمره . رآها أبى فرصة نادرة ، جاءته على طبق من ذهب . بدا الأمر سهلا فى البداية . سوف يترك أم البنات مع بناتها ، ويسكن مع الزوجة الجديدة فى شقتها . معنى هذا أن أمى — فى نظره الضيق — لن تضار . لكن المرأة الجميلة .. كانت جريئة ، فقد اشترطت عليه :

— أنا زى الفريك ...

— ماذا تقصدين ؟

— إذا أردت أن تتزوجنى طلق الأخرى .

— سأكون معك على طول ليلا ونهاراً ، صيفاً وشتاء . هذا رباط شكلى فقط ، حتى أدخل وأخرج فى إطار شرعى لرعاية البنات .

— أنا مقدرة عواطفك تجاه البنات ، لكن لا أقبل أن تكون لى ضرة .

المباحثات والمناقشات تمت بينهما فى السر . لكن أمى أحست بالخطر دون أن يكون لديها دليل مادى . بعض النساء لديهن حاسة خاصة ، يشممن بها رائحة الخيانة . أين تقع هذه الحاسة .. لست أدرى ، لكن خبرتى بعالم المرأة ، تؤكد أنها موجودة .. موجودة . بعد أن لعب الفأر فى عب أمى ، طلبت من أبى أن يرسل لها بعض لوازم البيت مع ساعى الإدارة العجوز .. برعى فرج ، وهو معتاد على إحضار أشياء كثيرة ، كان أبى يأتمنه على توصيلها . بالغت أمى فى إكرامه .. الغداء .. الشاى .. بعض الملابس القديمة لأولاده .. جنيه ثمن المواصلات . صار برعى — بفضل دهاء أمى — المخبر ، الذى يأتيها بكل الأخبار السرية .. الخاصة بزيارة الأرملة الجميلة للإدارة . استطاعت أمى أن تجمع كل خيوط المحنة

فى يدها ، لكنها رغم كل ذلك كانت فى ورطة ، لاتحسد عليها . الزوج الناشز هذا ، اختارته غصباً عن أهلها .. وباعت من أجله بعض ميراثها دون موافقتهم أيضاً .. ورفضت أية نصيحة منهم بالنسبة له . أحسست أنها لو شكته إلى أهلها خاصة خالى مصطفى ، فسوف يشمتون فيها ويلومونها ، لأنها لم تفتح أذنيها إلى نصائحهم الغالية . أم كريمة سيدة عاقلة وراسية وثقيلة ، لذلك بدت معاملتها مع أبى جافة — رغم أنها لم تقل له شيئاً . أحس كلاهما بمشاعر عدائية تجاه الآخر ، بيد أنهما لزما الصمت ، وعاشا حالة الهدوء التى تسبق العاصفة . فكرت أمى .. وبصرت .. وتدبرت أمرها . المعركة معركتها ، فما فائدة أن تشرك غيرها ؟! قررت أن تخوض المعركة وحدها . رغم هذا القرار الشجاع ، فإنها كانت فى حاجة إلى من تتكلم معه .. ليس شرطا أن يقول لها هذا صح .. وذاك خطأ ، المهم أن تجد متنفساً لعواصف أفكارها . أختاى نعيمة وحليمة صغيرتان . خاطرت فى الاستعانة بى ، فهى تعرف جيداً أنى فى صف أبى ظالماً أو مظلوماً ، ولا أقبل مطلقاً أن يمس أحد شخصه الشريف وذاته المقدسة بأى كلمة من هنا أو هناك . المضطر يركب الصعب .. ذلك ما فعلته أمى حين قذفتنى بالصاعقة. القارعة .. ما القارعة.. وما أدراك ما القارعة .. تذهل كل مرضعة عما أرضعت .. تكاد السماوات يتفطرن .. الأرض تبلع المياه .. كل شىء جائز إلا هذا الأمر .. قطع لسان من يقول على بابا هذا .. لكن هذا ما حدث يا كريمة . المصيبة أكبر من أن أتحملها . اهتزت صورة الدنيا وما فيها فى نظرى . سامحك الله يا بابا .. إلى هذه الدرجة هُنَّا عليك ؟! أدركت من سلوك أبى أن الإنسان إذا استسلم للعاطفة ، فسوف تعصف بحياته كلها ..!!

هبت الريح من الجهات الأربع .. المنصورة مدينة صغيرة ، إذا صاح غراب فى شمالها ، وصلت صيحته إلى جنوبها بين عشية وضحاها . عم الخبر أرجاء المدينة بعد أن طلق أمى غيابياً .. دون أن تدرى هى أو نحن ، وبدأ يستعد لإجراءات

الزواج الجديد . الغريب أنه رغم طلاق أمي .. ظل يحضر إلى البيت ، كأن شيئاً لم يكن . سمع أقارب زوج الأرملة إشاعة زواجها ، فبدأوا يهددونها بأخذ الولد ، وحرمانها من الميراث ، وطردها من الشقة . الشقة شقتها ما دامت ستظل حاضنة للولد .. أما إذا فكرت فى الزواج ـــ بالطبع من غير أقارب المرحوم ـــ فعليها أن تبحث لها ولعشيقها عن مأوى . لن تنام على فراش واحد لرجلين !

رفض كبرياء أمي الدخول مع أبى فى حوار طويل أو تفاصيل كثيرة ، تتصل بأمر زواجه . طلبت منه فقط أن يترك البيت ، ويطلقها أو .. لا ، هذا ليس مهماً ، لأنها لن تتزوج ، وإنما سوف تعيش من أجل بناتها . تحول الحمل الوديع إلى ذئب كاسر . صرت أتحداه .. قائلة :

ـــ كيف تخون امرأة ضحت بكل شيء من أجلك ؟ إذا طلقتها ، فلن نعترف بك أباً .. أنا وأخواتى .

ـــ تقولين هذا لبابا حبيبك يا كوكو ؟

ـــ بابا باع أماً وثلاث بنات قاصرات . لا .. يا بابا ، حتى الكفرة لا يفعلون هذا .!!

ـــ هناك أشياء يصعب أن أشرحها لك الآن ، ما زلت صغيرة يا حبيبتى .

ـــ لم أعد صغيرة .. ولست حبيبتك بعد اليوم . ما لها ماما .. عجوزة .. عورة .. عرجاء .. قصرت فى حقك . لا .. لا يا بابا .. أنت ظالم .

ـــ اخرسى يا بنت .

ـــ لن أخرس لقد بعت ، والبائع يجب أن يتحمل المكسب والخسارة .. وهذه أولى الخسائر .

العجلة من الشيطان .. والشيطان ، الذى وسوس لأبى ليطلق أمى بأقصى سرعة ، حتى لا تضيع عليه فرصة رآها ذهبية .. هو الذى حرض أقارب الأرملة ، وحال بينها وبين الزواج من الأستاذ حسين غالب . مأساة حارقة .. وسقطة

مدمرة .. يعلم تماماً أنه خرج من تلك الأزمة صريعاً .. خسر كل شيء .. حتى نفسه الأمارة بالسوء .!!

جن جنون أمي ذات صباح بعد أن سلمها ساعي بريد رسالة مسجلة ، تحمل ورقة طلاقها . انفجرت غاضبة :

— ابن الكلب .. أبو ذيل نجس .. رضينا بالهم .. والهم لم يرض بنا .. والله لأعرفنك أصلك يا جربوع ...!!

ثارت الثمرة الجريحة . فتحت دولاب الملابس ، وأخذت تمزقها وتدوسها بالشبشب . حاولت أنا وأخواتى أن نهدئها .. دون جدوى ، قلت :

— مافائدة تقطيع الملابس يا ماما .. كفاية خسارة ؟!

— اشتريتها بفلوسى .. فلوسى أنا ، حتى أعمل من الصعلوك رجلا محترماً . لكن أصله الوسخ غلب عليه .

لماذا يشكل الرجل فى بلادنا كل تلك الأهمية بالنسبة للمرأة ..؟! العلاقة بين الرجل والمرأة مثل أية علاقة إنسانية قابلة للاستمرار أو الانهيار . الزواج شركة جميلة إذا أفادت الطرفين ، لكنه هم .. يقصف العمر لو ساءت العلاقة من أى طرف . فجيعة أم كريمة فى زواجها ، تدخل بالدرجة الأولى فى باب نكران الجميل . فقد فضلته على كثير من الرجال ، أغنى منه وأعز مكانة . باعت من أجله معظم ميراثها . رضيت أن تكون خادمة له ولأولاده . لم تتطلع يوماً إلى أى متعة من متع الحياة . لم تفكر فى الخروج عن طاعته لحظة ، لذلك كانت مصيبتها فادحة وأحزانها غائرة .. غائرة جداً ، أعمق من بئر يوسف !!

مأساة الأستاذ حسين غالب أشد من مصيبة زوجته .. فقد خسر الأولى والثانية ، كما فقد هيبته فى الإدارة ، وتبعثرت كرامته عند من يعرف . أمسى الرجل حائراً .. بائراً ، خاصة بعد إصرار أمى — ومعها حق — على ألا يعود إلى البيت . إنه الآن رجل غريب بالنسبة لها ، فكيف يبيت معها تحت سقف

واحد ؟ تعكرت الحياة .. وتدخل أولاد الحلال والحرام .. وأخيراً علم أقارب ماما — خاصة خالى مصطفى ، الذى كان لا يحب بابا لأمر لا أعرفه .

لم يجد الزوج الخائب مكاناً يأوى إليه سوى لوكاندة شعبية فى شارع السكة القديمة ، اختبأ فيها انتظاراً لهدوء العاصفة . الشرع يجيز للزوج أن يرد زوجته قبل انقضاء فترة العدة .. وهذا ما فعله أبى — بعد أن تدخل بعض المعارف والجيران أملا فى جمع ما تفرق .. وإعادة المياه إلى مجاريها .

عاد أبى مرة ثانية إلى البيت ، لكنه خسر أهم شخصين فيه : ماما وأنا . قررت ماما أن تهجره فى المضجع ، وأقامت فى حجرة نعيمة وحليمة . أما أن فقد حدث شرخ هائل بينى وبينه . ضاع كل ما بيننا من حب ودلال وتفاهم . صار البيت فندقا ، يضم جماعة من الغرباء .. أو مصحة ، تجمع بعض المأزومين نفسياً ، الذين لا أمل يرجى من شفائهم .. قريباً .

مزقت هذه الأزمة روابط المودة بينى وبين أبى إلى الآن . لكنها فى الوقت نفسه أقامت أواصر جديدة .. وعميقة بينى وبين ماما . أصبحنا صديقتين حميمتين ، خاصة وقد صار الرجل مثالا للزوج المستعار . يذهب إلى عمله فى الصباح ، ويأتى فى الظهر ليتغدى وحده — فى معظم الأيام — ثم يخرج مع المغرب .. ويعود للنوم فى منتصف الليل تقريباً . ويمكن أن تضبط ساعتك على المواعيد التالية : الثامنة صباحاً .. ذهاب إلى الإدارة ، الثانية والربع ظهراً .. العودة من الإدارة ، السادسة مساء .. التوجه إلى المقهى ، ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة — حسب دور الطاولة أو الكوتشينة — عودة من المقهى . هكذا صار الرجل غريباً فى بيته ، وصرنا جميعاً لا نرتبط به فى أى شىء .. إلا إذا اضطرتنا الظروف لبعض المجاملات الشكلية فى الأعياد والمناسبات الرسمية . تفرق شمل الأسرة ، وأصبحت الفتيات الثلاث يتامى — رغم وجود الأب . زمن ملعون .. وحياة قلقة . انكسرت — مبكراً — قوادم الأحلام .. ومضى قارب الأسرة بلا زمام .

لكن الزمام الذى سقط من يد الأب ، حملته بجرأة وشجاعة يد أمى الحنون ، التى صارت بالنسبة لنا الأم والأب . لا أستطيع ولا أقدر أن أنسى .. سامحك الله أيها الأب النذل ، فقد محوت من حياتنا الضحكة البريئة والبسمة الرقيقة .. وجعلتنا لا نرى فى الحياة إلا الآلام والأحزان ..!! يقولون إن الأزمة التى لا تقتلك تزيدك صلابة .. لكن الأزمة دمرتنى من الداخل ، وسودت رؤيتى للحياة والناس . ومع ذلك واصلت الرحلة الشاقة — بفضل وقوف أمى بجوارى أنا وشقيقتى .

المنصورة .. مدينة الحب والجمال — ذات طعم خاص صيفاً وشتاء . حين تمشى على نهرها الملتف ، الذى يفتح ذراعيه ليحتضن المدينة ومن فيها ، تحس رغبة عارمة فى التمتع بالحياة والتأمل فى طبيعة الكون . سنحت أكثر من فرصة فى أثناء الدراسة لتكوين صداقة أو علاقة مع بعض الزملاء ، غير أنى كنت أفر قبل أن يبدأ السطر الأول . ساعدنى على هذا وجود هدى صديقتى .. فنحن فى أى مكان معا ، ويندر أن ترى واحدة منا دون الأخرى . كنا فتاتين ساذجتين بهرتهما أضواء الحياة الجامعية الساطعة ، لكن الخجل الريفى ، والحياء الأنثوى ، والتربية التقليدية المتزمتة ، وحساسية الفقر ، والخوف من عالم الرجال .. الذى لا نعلم عنه شيئاً بالمرة . كل هذا شكل سداً عالياً بيننا وبين الرغبة فى التمتع بأية متعة من متع الحياة الجامعية . نحن قوم فقراء ، جئنا من أجل التعليم ، وكل ما عدا ذلك فهو ترف لم يخلق لأمثالنا . كما أن ظروفنا الخاصة لا تسمح بممارسته . تذكرت هدى فوزى .. صديقتى العزيزة القادمة من دمياط . بدأ تعارفنا فى رحاب الكلية .. وعشنا سوياً فى قسم واحد أربع سنوات ، لا نكاد نفترق فيها لحظة واحدة ، لكن الأيام — رغم ما بيننا من حب وتفاهم واشتراك فى كثير من الصفات والعادات — فرقت بيننا ..!!

كنت أعيش فى فراغ من العدم بعد أن خرج الأب من حياتى . الإحساس

باليتم شعور مدمر ، خاصة إذا كان اليتم مجازاً .. لا حقيقة . سامحك الله يا أبى .. ما الذى يقصيك عنى .. ما الذى يشدك للضياع .. للبحر الكبير .. وسوق الزيف ؟ كنت أنا وأمى وإخوتى نعيش فى فراغ روحى ، خاصة أنا .. فقد اعتدت على الحياة به ومعه ، كذلك أمى .. فعلاقتها به أقوى من علاقتى . لكنه آثر أن يعيش فى صحراء لا ظل بها . الحزن والخيبة والخوف من المجهول والرغبة فى أن أصبح إنسانة لها كيان فى الوجود ، كل ذلك أوجد فى داخلى مشاعر متضاربة .. فأنا أحياناً شجاعة إلى درجة التهور ، وأخرى جبانة إلى درجة اللامبالاة ، وثالثة حزينة حزن ناعسة أيوب . عندما أكون فى حالة طبيعية أفضل الصمت . الصمت ليس معناه الرضا ، لكنه رفض أخرس ، لكل ما لا أقدر عليه ، ولا أرضى عنه . الحزن يفترش طريقى فى كل اتجاه ، ومع هذا حاولت أن أقهره بالطموح والكبرياء . عشت السنوات الأربع طالبة مجتهدة فى كلية التربية قسم اللغة الإنجليزية . كنت أحصل دائماً على تقدير (جيد) ، لم أكن أتخلف عن محاضرة . أعجب بعض الأساتذة بطريقتى فى المناقشة أثناء المحاضرات ، وكان لتشجيعهم فضل كبير على .

للفقير فرحتان .. فرحة يوم نجاحه .. وفرحة يوم حصوله على الوظيفة . لم تسعنا الفرحة أنا وأمى يوم ذهبت لاستلام العمل فى مدرسة المنصورة الإعدادية للبنات ، وهى نفس المدرسة التى سبق أن تعلمت فيها أيام المودة والألفة بينى وبين بابا . أيام بعيدة وذكريات حلوة ومرة . إنها الحياة مزيج من الفرح والحزن .. الرضا والسخط .. السعادة والشقاء . الحياة .. أحلام .. وآلام .. لكن لو طُلب منا أن نغادرها ، فلن نتركها بإرادتنا . جزء من مأساة الإنسان ، أنه يتمسك بالحياة رغم تعبه منها وشقائه بها . أحس اليوم أن قامتى قد ارتفعت عالية . بدأت أدرك أن الله قد عوض على .. فأهلا بالحياة ومرحباً بالشباب !!

طلبت منى ناظرة المدرسة بعد أن رحبت بى ، أن أذهب إلى المدرس الأول

الأستاذ إبراهيم الشريف ، فهو المسئول عن اللغة الإنجليزية . لم أجده فى حجرته .. فتوجهت إلى فصل ثالثة أول ، حيث كان يقوم بالتدريس . طرقت الباب فلم يستجب أحد . فتحت الباب وتوجهت إليه فى منتصف الفصل بالقرب من السبورة . التفتت معظم التلميذات إلى ، فقد اعتنيت بمظهرى فى هذا اليوم عناية فائقة من قصة الشعر إلى كعب الحذاء ، كأنى ذاهبة إلى عرس . قلت له :

ـــ أنا كريمة حسين غالب .

فرد مستنكرا :

ـــ كريمة .. كريمة من ؟

ـــ كريمة حسين غالب .

ـــ ماذا تريدين ؟

ـــ أنا .. أنا مُدرسة جديدة .

ـــ مُدرسة .. أم عروسة ؟!

انفجرت الطالبات فى الضحك ـــ دون أن يبدى اعتراضاً على ما بدر منهن . أحسست بقدر من الحرج . لم أعد أعرف ماذا أفعل . أصدر أمراً بصوت عال :

ـــ أنا فى حصة .. انتظرينى فى المكتب يا مس .

خرجت مسرعة ، وعيون البنات تشيعنى بنظرات سخرية ودهشة . صاحبات العيون البريئة فى هذه السن الخطرة على استعداد للضحك على أى شىء .. والسخرية من أى موقف ، خاصة وسط الزحام . الفرحة المتوهجة التى كنت أحسها هذا الصباح ، ألقى عليها فى الضحى وعاء من الماء البارد . لابد أن أثور لكرامتى المبعثرة . هذا هو الشعور الذى رفع دقات قلبى ودرجة حرارة جسدى ، عندما كنت أنتظره فى المكتب . لابد أن أثور لكرامتى من هذا الرجل ، الذى أضحك البنات على . إذا كان من حقه أن يعامل زوجته بهذا الشكل الجاف ، فأنا صنف آخر من النساء ، يجب أن يعرفه على حقيقته من أول

يوم ، حتى يريح ويستريح . دخل الرجل وخلفه طالبة تحمل بعض الكراسات . بينما أتميز غيظاً بدا هادئاً ، كأنما نسى ما حدث . قال مبتسماً :

ـــ أهلا يا أستاذة كريمة .

انفجرت غاضبة :

ـــ كيف تسخر منى أمام البنات ؟

رد بهدوء :

ـــ إن جئتِ للحق .. أنت غلطانة .

ـــ غلطانة .. يا أستاذ ؟

ـــ نعم غلطانة .. وقت الحصة مقدس مثل وقت العبادة . كان ينبغى أن تنتظرى حتى أنتهى من الدرس .

ـــ لست فراشة أو متطفلة .. أنا مُدرسة مثلك تماماً .

ـــ يبدو أنك فتاة غير مهذبة .. أنا فى سن أبيك ، وعندى خبرة طويلة فى التدريس ، ثم تقولين بعد هذا .. أنا مثلك تماماً .؟!

صحت بصوت عال :

ـــ احترم نفسك يا أستاذ .. واعرف مع من تتكلم ؟!

ـــ بالطبع لا أتكلم مع جيهان السادات .. أو صوفيا لورين .. أو فاتن حمامة . (انتفض واقفاً) : يا آنسة أنت مدرسة اسمها مكتوب بالرصاص ، وأستطيع بيدى هذه ـــ رفع يده اليمنى مهدداً ـــ أن أمسحه .

أثار غيظى ، فقلت بصوت عال :

ـــ أفق يا أستاذ .. أنا لست واحدة من عبيدك أو جواريك .. أنا متعلمة ، أحمل شهادة مثل شهادتك ، وأؤدى دوراً مثل دورك .. لكن اسمح لى ، حضرتك مغرور حبتين .

ـــ أنا مغرور يا هانم .. إذا كانت هذه طريقة معاملتك فى أول يوم ، فماذا

سوف تصنعين بعد عشر سنوات ؟

تجمع بعض المدرسين والمدرسات حولنا . لم يكن أحد فيهم يعرفنى ، لذلك كانوا جميعاً مهتمين باسترضاء الأستاذ إبراهيم وتهدئته :

— صبرك يا أستاذ .. أنت رجل حليم .. نحن نعتبرك أخاً أكبر لنا جميعاً .

ضاعف من غيظى أن مدرسة عانس اسمها .. فوقية عبد العزيز ، قالت :

— كيف تخطئين فى حق هذا الرجل الأمير ، اعتذرى له يا مس .

— من يعتذر لمن يا أستاذة .. كيف تحكمين بغير علم ؟

— كلنا نعلم أخلاق الأستاذ إبراهيم .. منذ عرفناه لم يخطئ حتى فى حق تلميذة ، ومن غير المعقول أن يخطئ فى حق زميله .

وجدت نفسى فريسة جريحة محاصرة ، الكل على .. لا أحد معى . هذا هو اليوم الذى انتظرته بفارغ الصبر ، ليكون بدء فرحى وانتصارى . لم .. لماذا يا رب يحدث كل هذا ..؟ إنى حزينة حزناً ، لا تطفئه المياه ، ولا تطهره الصلاة ، ولا يمحوه النسيان . سمعت كثيراً أن التدريس مهنة صعبة ، لكننى لم أتخيل أنها بمثل هذه القسوة . أحسست أنى مثل مريم العذراء بين اليهود ، حين جاءت إليهم تحمل وليدها ، فالتفوا حولها ، يريدون رجمها .. رجماً بالغيب .!!

عدت إلى اليت وإحساس حار بالخيبة يحتوينى ، ويعصف بأحلامى .. أحلام .. ليست هناك أحلام ، بل أوهام سرطانية ، تتوالد من بعضها .. وهما بعد وهم . ارتميت باكية فى أحضان أمى بعد أن تحاملت كثيراً على نفسى ، حتى لا أنهار فى أية لحظة من اللحظات الكئيبة التى مرت بى طوال اليوم :

— مالك يا بنتى .. كفانا الله الشر .؟!

أخذت أبكى .. وأبكى ، حتى لم يبق فى عينى دموع ، قالت أمى بحنان :

— تمالكى أعصابك .. واحكى ما حدث ، حتى نستطيع أن نبحث عن حل للمشكلة .

إذا أمكن حل الأزمة السكانية فى مصر ، فإنه من الجائز أن تحل مشكلتى .. مشكلتى فى حقيقتها مشكلة نفسية . أحس أن على أن أواجه الكون وحدى . كل من فى الوجود يتحدانى .. وأنا وحيدة .. وحيدة يا أمى .

حاولت أن تخفف عنى فقالت :

— هل تبكى العروس يوم زفافها ؟

— قليل البخت يا أمى يلقى العظم فى الكبدة .

بعد أن هدأت مشاعرى ، أخذت أقص الحكاية من طقطق إلى سلام عليكم .

ختمت كلامى قائلة :

— لن أدخل هذه المدرسة مرة ثانية ، قولى لبابا يبحث عمن يساعدنى فى النقل إلى مدرسة أخرى .

— هل لنا أب يا حبيبتى .. نحن أيتام . لو كان هذا البنى آدم يعرف معنى المسئولية ، لتغيرت أمور كثيرة فى حياتنا . لكنه ثور ، يأكل ويلعب ، ويعبث بمصير أربع ولايا .. ربنا يريحنا منه ، قادر يا كريم .

— اهدئى يا ماما .. يكفى ما نحن فيه .

لم أنم تلك الليلة .. و لم أصل إلى حل .. هل كنت على صواب أم على خطأ .؟ لو كنت على صواب لما وقف الجميع بجوار هذا المدرس الأول المتعجرف ؟ لم أخطئ . أنا واثقة من ذلك . نحن فى عصر النفاق .. وفى بلاد النفاق . النفاق سيد الأخلاق . إذا أمكن أن تصعد المياه إلى أعلى ، فإنه يمكن أن يقف موظف مع زميله ضد رئيسه . الرئيس .. أى رئيس فى أية مصلحة — دائماً على حق ، هذا شعار كل مواطن صالح فى دولة نفاقستان ..!!

مع مولد الفجر .. بدأ النوم يداعب أجفانى المسهدة . رأيت فيما أتذكر

رؤيا غريبة : سرقنى مجموعة من اللصوص وحبسونى فى مغارة ، ربطونى فى جذع شجرة وأخذوا يتناوبون ضربى بالسوط . حاولت أن أتعرف عليهم .. ملامحهم جميعاً واحدة ، وملابسهم متقاربة ، كلهم يشبهون بابا .. الأربعون لصاً كلهم على هيئة بابا . قال كبيرهم الأعور :

ــــ أين الكنز المفقود يا زمردة ؟

ــــ أى كنز ؟

ــــ الكنز الذى خبأه أبوك الأمير وردشاه .

ــــ أنا فتاة مسكينة .. ارحمونى .. ارحمونى .. أنقذينى يا ماما .. يا ماما .. أخذت أصرخ .. أصرخ إلى أن أفقت ، والعرق يتصبب من كل خلايا جسدى . بصقت فى طوق جلبابى قائلة :

ــــ اللّٰهم اجعله خيراً .. اللّٰهم اجعله خيراً .

ذهبت إلى المدرسة متأخرة بعض الشىء . لم ألحق طابور الصباح . من حسن الحظ لم آخذ جدولا حتى الآن ، فما حدث بالأمس حال دون ذلك . استدعتنى الناظرة . أغلقت الباب علينا وحدنا . الأستاذة فريدة حسان .. أو أبلة فريدة ، سيدة رشيقة وبسيطة فى آن واحد . جميلة دون مكياج .. ملابسها أنيقة ذات ألوان هادئة . تجاوزت الخمسين فيما يبدو . لا تزال أمارات الحسن بادية على كل أعضاء جسدها . قالت من خلف المكتب :

ــــ اسمعى يا كريمة أنا أم ، وأريد أن أنصحك مثلما أفعل مع ابنتى . العمل فى وزارة التربية والتعليم مثل الخدمة فى الجيش .. كل شىء هنا بنظام ، والأقدمية لها اعتبار كبير . المدرسة كلها أنا مسئولة عنها .. وكل مادة مسئول عنها المدرس الأول .. وكل فصل مسئول عنه رائده .. فاهمة يا كريمة ؟

ــــ أيوه يا أبلة فريدة .

— لو أنك مُدرسة قديمة ، لكان لى معك كلام آخر ، بخصوص ما حدث بالأمس .

— لكنك لم تستمعى إلى .

— لقد عرفت كل شىء .

— أنا صاحبة القضية .

— لى طرق خاصة أعرف بها كل ما يدور فى مدرستى . لا أريد تحقيقاً فيما حدث كما قلت . هذه جلسة عائلية بين أم وابنتها .

لست أدرى كيف امتصت هذه السيدة الحكيمة غضبى . حاولت أن أقترب أكثر :

— نحن فى هذه المدرسة أسرة واحدة ، نتعاون .. ونتفاهم من أجل المصلحة العامة ، لذلك فالكل هنا إخوة ، والتلميذات بناتنا وأخواتنا الصغيرات . لم يحدث أن وقع خطأ .. أو حدثت مشكلة .. أو مخالفة .. أو خصومة منذ جئت إلى هنا من ثلاث سنوات .

— كل هذا بفضلك يا حضرة الناظرة .

— قولى .. يا ماما فريدة . ليس معنى هذا أن المدرسة لا توجد فيها مشكلات ، لا .. المشكلات كثيرة ، لكنى بمساعدة الزملاء جميعاً ، أحاول أن أحلها بالتفاهم والمودة . فهل عرفت الآن سياسة المدرسة يا ابنتى ؟

— نعم يا ماما فريدة .

— إذا حدثت معك أى مشكلة تعالى .. إلى مكتبى أو إلى بيتى .. وسوف نتعاون فى حلها .

— شكراً ياماما .

— بالمناسبة ماما هذه بينى وبينك فقط ، وأمام الكل أبلة فريدة .

— حاضر يا أبلة .

(الكهف السحرى)

ــ كلمة أخيرة .. الرجل الذى اختلفت معه بالأمس ، أفضل أستاذ عندى فى المدرسة . صحيح أنه رجل أعزب ، لكنه فى نقاء الأولياء وعفة الزاهدين ، وإخلاص العارفين .

ــ معنى هذا أنك تطلبين منى أن أقدم له اعتذاراً ؟

ــ هذه الأمور الشكلية لا تهمنى ، ولا أظنه يهتم بها . أرجو أن تستفيدى من خبرته ومعلوماته . ثقى أنه من حسن حظك أن تعملى مع مثل هذا الرجل فى بدء حياتك الوظيفية .

عانقتها مودعة .. وقد صفت نفسى ، وتطهرت روحى ، وتفاءلت خيراً بهذه البداية السعيدة . هذه الحياة أمرها عجيب .كلنا بشر .. لكن ماذا يصنع الإنسان فى الإنسان ؟ هناك إنسان حين تدخل فى حوار معه ، تحس أنه يريد أن يشعل فى العالم كله ناراً .. الجميع على خطأ ، وهو وحده المصيب . منطقه .. أنا ومن بعدى الطوفان . وهناك أيضاً من تكلمه ، فتحس أنه يزيدك بالحياة ثقة وبالواقع رضا ، وأنه على استعداد أن يضحى من أجلك بما يقدر عليه .. حتى لو لم يقدر إلا على الكلمة الطيبة . الكلمة ليست أمراً هيناً .. الله كلمة .. الحق كلمة .. الحب كلمة .. وفى البدء كانت الكلمة ..!!

عدت إلى البيت فوجدت أبى جالساً فى انتظارى . قال بلهفة :

ــ ماذا حدث مع المدرس الأول ؟

ــ لا شىء .

ــ أمك تقول غير هذا ؟

ــ اعتدت أن أحل مشاكلى بنفسى .. والحمد لله ، الناظرة حلت الأزمة .

كنت على استعداد لأن أذهب ... تركته ، وذهبت إلى حجرتى ..

أغلقت الباب ورائى . دخلت ماما وأنا أغير ملابسى ، كأنما لم تصدق ما قلت ، فسألت :

ــ هل صحيح المشكلة حلت ؟

ــ نعم يا ماما .. بفضل دعائك وطيبة قلبك .

قبلتنى ، وخرجت تعد الغداء . أخذت أتأمل ذاتى فى المرآة .. كأنى أراها لأول مرة ..!!

جزء كبير من الأزمة حُل بحديثى مع أبلة فريدة . الأستاذ إبراهيم لم يحضر ، لأنه أخذ إجازة عارضة . رغم أنى لم أقابله ، فإنى لم أعد أخشى لقاءه . الرجل كان على حق ، وأنا المخطئة .

فى صباح اليوم التالى .. ذهبت مبكرة عن عمد ، لكى أعتذر له . حين رآنى ابتسم ابتسامة عريضة ، تعكس بعض ما يحويه قلبه الأبيض من نقاء وحب لجميع البشر . صافحنى مرحباً :

ــ أهلا يا أستاذة كريمة . كنت مشغولا على أختى . تصورى أنا مقطوع من شجرة ، ليس لى فى الدنيا إلا زينب ...

ــ من زينب ؟

ــ قلت لك أختى الوحيدة .. رأيتها فى المنام مريضة ، فذهبت إليها .. ووجدتها مريضة بالفعل .

ــ قلب المؤمن ...

ــ المهم أنا آسف .. أرجوك . إذا أحسست أنى ظلمت أحداً ، لا أستطيع أن أريح رأسى على الوسادة .

ــ أنا التى أريد السماح .

ــ ربنا يسامحنا جميعاً . ويحمينا من شرور أنفسنا . اسمحى لى أن أرحب بك اليوم .. سأطلب كوبين من الينسون .. مشروب صحى ومهدئ .

ــ موافقة .

نادى على العاملة وطلب الينسون . كم عمر هذا الرجل على وجه التحديد

.. وما الذى حال دون زواجه حتى الآن ؟ ما دام مقطوعاً من شجرة ، فمعنى هذا أن ليس هناك ما يمنع .. لكن أنا مالى .. يكفى ما أنت فيه يا كريمة .!!

دخلت الأستاذة فوقية ، فوجدتنا نتحدث فى الجدول .. وكيفية تحضير الدروس .. وأمامنا كوبا الينسون ، فبدا على وجهها قدر من علامات الاستياء . هذه المرأة تبدو مهتمة بالأستاذ إبراهيم أكثر من اللازم . والله يليقان لبعض ، فهما من سن متقاربة .. ومن جيل واحد .. لكن أنا مالى ..!!

من خلال التعامل بدا الرجل رقيقاً وديعاً Gentleman .. لا يعرف لسانه كلمة « لا » مطلقاً . يحاول دائماً أن يساعد ويسعد الآخرين . يبتسم إذا طلبت منه شيئاً ، كأنك تعطيه الذى أنت سائله . بعض المدرسين يسمونه الأب الروحى The Good Father ، وبعض الطالبات يطلقن عليه لقب « بابا نويل » . أما بالنسبة لى فهو حلال عقد المهنة تدريساً وتصحيحاً وامتحانات ، فقد تعلمت منه كل أسرار الوظيفة ، وبفضله أصبحت مدرسة ممتازة . طلبت منى إحدى التلميذات أن أعطيها درساً خصوصياً . ذهبت أعرف رأيه ، فهذه أول تجربة لى . قال بحكمة الأب :

ــ اسمعى يا بنتى ..

ــ لم تصر على أن تجعل نفسك عجوزاً ؟

ــ لأنى هكذا بالفعل .. على كل ، لى فلسفة خاصة فى الدروس الخصوصية ، كما أنى لست محتاجاً والحمد لله . طبعاً لن أجبرك على الأخذ برأيى ، فقد أصبحت الدروس ظاهرة شبه مشروعة فى هذه الأيام الصعبة .. وكل مدرسى المدرسة تقريباً يزاولونها .

ــ لم تقل رأيك صراحة .

القاعدة موجودة فى القرآن الكريم ﴿ من كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ . إذا طلب الدرس بإلحاح وكرامة فاقبلى ، فأنت تأخذين أجراً على جهد حقيقى ، تقومين به .. هكذا يفعل المحامون والأطباء .. والشاعر يقول :

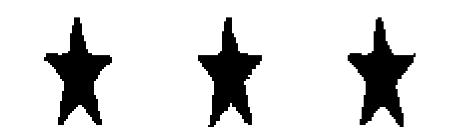
إن المعلم والطبيبَ كلاهما   لا ينصحان إذا لم يُرزقا

لكن .. إذا علمت أن هناك تلميذة مسكينة ، فلا تأخذى منها .. أو خذى أجراً رمزياً . لكل شيء صدقة يا مس كريمة ، والصدقة تمحو الذنوب ، كما يطفئ الماء نار الحطب .

لم تسعنى الدنيا يوم استلمت أول مرتب فى حياتى . لم يكن يتجاوز العشرين جنيها بعد الخصومات ، التى لا أعرف لها سبباً ، لكن الصراف طمأننى ، وقال :

ـــ من الشهر القادم بإذن الله يكون المرتب أربعة وأربعين جنيها يا أبلة كريمة .

احترت ماذا أصنع بهذه العشرين جنيها ؟ اكتشفت بعد تفكير ، أنها لا تشترى حذاء وحقيبة يد . هذا المبلغ البسيط فى قيمته المادية ، الكبير فى دلالته المعنوية ، رمز لبدء مرحلة جديدة فى حياتى . ما دام الأمر كذلك لم لا أعطيه لأمى فهى الجديرة به ، حتى تدرك أن جهدها قد أثمر .. وتربيتها قد نجحت ، وأن البنات الثلاث اللائى وقفت حياتها على رعايتهن ، قادرات على أن يعوضنها بعض ما فقدت من راحة بيتية وسعادة زوجية ..!



١١ ـــ حديث من سيرة إبراهيم

ثلاثة أيام لا أستطيع نسيانها : يوم اعتقالى ، ويوم وفاة أمى ، ويوم عدت من الجنازة بغير أبى . كنت رجلاً فى الثلاثين يوم فقدته . شعرت أنى وحيد فى بحر عاصف الأمواج . المطر .. الضباب .. الضياع .. الخراب .. يعم الكون . الدمع غائر فى مقلتى . ليس فى الدنيا أب مثل أبى .. عطاء وقدرة ومعرفة . لم تمر عاصفة إلا وهو بجوارى ، يرعى زورقى ويشد عضدى . يا أبى .. لم تركتنى فى فراغ كالعدم ..؟! أحسست أنى ما زلت ذلك الطفل ، الذى لا يقدر أن يعيش دون رعاية الأب .!

صبيحة اليوم التالى للمأتم قال الحاج حلمى :

ـــ لم يبق لك شىء فى المنصورة .. ألا ترغب فى الانتقال معنا إلى طنطا ؟

صدقت زينب على رأيه قائلة :

ـــ والنبى توافق يا أبيه . قلبى لا يطاوعنى على أن أتركك وحدك .

قال صلاح :

ـــ ستكون واحداً منا ، ونعيش جميعاً فى بيت واحد . يد الله مع الجماعة يا أخى .

ـــ لا أقدر أن أترك بلدى .

قالت زينب :

ـــ لماذا يا حبيبى ؟

ـــ من أجل عظام المقبرة .

لم تجف أحزانى ، لكن الدنيا تمضى .. وهل يستطيع أحد أن يوقف مسيرتها ؟

ميلاد .. موت .. فرح .. حزن .. نصر .. هزيمة .. عدل .. ظلم .. لا شيء يوقف مسيرة الحياة . سُنَّة الكون ، التحول والتغير . ما كان فهو ما يكون . وما يكون فهو ما سوف يكون . كم تسخر الملائكة منا .. وكم يرانا الله أطفالا ، نتعارك من أجل جناح بعوضة ..!!

أصبحت وحيداً .. فى البيت .. والعمل .. والحياة . رغم الوحدة .. لم أكن أحس وحشة أو حزناً . عائشة جارتنا تزوجت منذ مدة — بالطبع بعد أن يئست منى هى وأهلها . ليتها ما تزوجت .. لو كانت موجودة ..!! لكن « لو » هذه لا فائدة منها ، كما أنها تفتح باب الشيطان . أعطيت نفسى كاملة للعمل وخدمة الناس ، خاصة بعد أن ذهبت لزيارة أسرة المرحوم الشيخ عبد الله خضر فى دمياط . كانت وصيته عند الاحتضار أن أتزوج إحدى ابنتيه . قابلنى ابنه محمد بترحاب بالغ . سألته عن الأسرة فعلمت أن أختيه قد تزوجتا . قلت فى نفسى : قدر الله وما شاء فعل .. لم يحن الوقت بعد لكى أتزوج . ضاعت عبير .. وعائشة .. وابنتا الشيخ عبد الله .. لو كان الله سبحانه يريد لى الزواج لهيأ لى واحدة من هؤلاء الأربعة . فلسفت العزوبية بعد أن فاتنى قطار الزواج . أبو العلاء المعرى كان على حق .. المرء إذا لم يستطع أن يضمن لنفسه حياة كريمة فى هذا العالم المجنون .. فلم يأتى بأطفال أبرياء ، لا يقدر أن يربيهم تربية صالحة ، ويحقق لهم الحد الأدنى لحياة إنسانية معقولة ؟! نذر الحرب القادمة مع إسرائيل ، جعلت الحياة صعبة .. فكل شيء مؤجل بسبب المعركة . متى تنتهى معاركنا .. لست أدرى ؟!

مضت ست سنوات أو أكثر على النكسة ، والبلاد تتململ من حالة اللاسلم واللاحرب . الأحكام العرفية معلنة . الاقتصاد خربان . الغلاء شديد . كثر عدد المجندين خاصة من المؤهلات . الحكومة لا يعرف لها أحد موقفاً ، فقد خسرت صداقة الاتحاد السوفيتى ، ولم تستطع أن تكسب ثقة الولايات المتحدة . إسرائيل

استراحت خلف خط بارليف . اشتعلت الحرب فجأة ظهر يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . لم يصدق أحد المفاجأة . الدهشة الكبرى لم تكن فى قيام الحرب فجأة ، وإنما فى أخبار النصر التى تذاع عنها . لقد حاربنا فى سنوات ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، كانت النتيجة هى الهزيمة الساحقة ، فكيف يمكن أن ننتصر هذه المرة ؟! سرت روح النصر بين جميع المواطنين . لم أستطع أن أقف صامتا بعد أن توقفت الدراسة فى جميع المدارس . لابد أن أعمل شيئاً . أنا أحق الناس بالجهاد .. لا أسرة ، ولا أهل ، فلم أخاف الموت ؟ لقد عُذبت من أجل مصر دون سبب ، فلماذا لا أضحى من أجلها بسبب .. وأى سبب أشرف من تطهير أرض الوطن من رجس الأعداء ؟! ماذا أفعل .. أنا لست مجنداً فكيف أشارك فى المعركة ؟! ضع نفسك فى خضم المعركة ، وستجد أكثر من دور فى انتظارك . تذكرت .. أوه .. كيف نسيت ؟ الأستاذ على شبكة من الإسماعيلية .. إذا وصلت ، فسوف أضمن شرف الإسهام فى المعركة . طريق القاهرة ـــ الإسماعيلية صار طريقاً حربياً . العربات المسافرة فيه قليلة ، تخضع لتفتيش دقيق . وصلت بعد جهد وتعب إلى منزل الأستاذ شبكة . لم يكن فى البيت كما توقعت ، وإنما كان يعمل مع قوات الدفاع المدنى . التقيت به فى مبنى قريب من المحافظة . استقبلنى الرجل بفرحة غامرة ، وعرفنى بقائد الدفاع المدنى النقيب محمد طه .. ضابط مجند ممتلئ حماسة ووطنية . رحب بانضمامى إلى الفريق ، وسعدت بالعمل مع مجموعة الأستاذ شبكة . كنا نتولى المساعدة فى تنفيذ أوامر الإضاءة وعدم السير فى الشوارع أثناء الحرب ، ونقل المصابين من عربات الإسعاف إلى المستشفيات .

شوارع الإسماعيلية ـــ رغم مناخ الحرب ـــ مازالت تدل على هدوء وجمال طبيعة . الخضرة فى كل مكان . الشوارع جميلة ومستقيمة . البيوت منسقة وغير مرتفعة . هذه المدينة كانت مقراً لقيادة هيئة القناة والعاملين بها من الجاليات الأجنبية . بدأنا نسمع من المصابين القادمين من شرق القناة أوصافاً أسطورية عن خط بارليف ،

الذى دمرته القوات المصرية فى ساعات . هناك موقع مواجه للإسماعيلية مباشرة اسمه « تبة الشجرة » ، قررت أن أعبر أنا وبعض الزملاء المتطوعين لمشاهدته . حين سمع الأستاذ شبكة الخبر ، حذرنا من عواقب المخاطرة . لكنى لم أقدر أن أطهر نفسى من رغبة حب الاستطلاع . أخذت أتحين الفرصة لتحقيق هذه الزيارة فى موقع « تبة الشجرة » . لكن الرغبة لم تتحقق إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بسنوات عديدة .

فى صباح اليوم التالى ذكرت قيادة الدفاع المدنى أن اليهود استطاعوا عمل ثغرة جنوبى مدينة الإسماعيلية ، ومطلوب مجموعة من المتطوعين لتوعية المواطنين وإبعادهم عن المنطقة الزراعية المحاصرة . فرحتى كانت غامرة ، لأنى سوف أشارك مشاركة فعلية فى المعركة . رغم كل ما نالنى من الوطن من أذى ومصائب ، فإنى لا أستطيع أن أخونه .. أو أتقاعس عن القيام بأى عمل ، يحقق تقدمه وانتصاره . الخيانة شبح مرعب ، صعب أن تمارسه مع البشر ، فكيف تقدر أن تفعله مع الوطن ؟ أيخون إنسان بلاده .. إن خان معنى أن يكون ، فكيف يمكن أن يكون ..؟!

اليهود .. جن .. عفاريت .. شياطين .. فيهم شيء غير عادى ، يختلفون تماماً عن سائر البشر ، بالطبع يستحيل أن يكونوا ملائكة . ويصعب أن يكونوا بشراً ، مثل بقية الآدميين الذين نعرفهم ، فمن يكونون ..؟! اليهود شياطين الإنس .

أيها البشر فى كل مكان .. احذروا السرطان المدمر . إذا دخلوا بلدة أفسدوها ، أو وضعوا أنفهم فى شأن خربوه ، أو لمست أيديهم الماء الزلال عكروه . لا أمان لهم فى أى مكان أو زمان . إن تعادهم فأنت خسران .. وإن تصادقهم فأنت أكثر خسارة . ملعونون أينما وجدوا . إن لقيتهم فتغذ بهم قبل أن يتعشوا بك .. وبالكون أجمعه ..!!

اليهود اكتشفوا — بالتعاون مع طائرات التجسس الأمريكية — أضيق مساحة

فى عرض القناة ، وصنعوا حجارة خرسانية فى إسرائيل ، ردموا بها هذه المسافة الضيقة . عبروا من فوق الحجارة ، التى نقلوها بطائرات الهليوكابتر إلى منطقة الدفرسوار ، وهى منطقة زراعية فيها حدائق وأشجار كثيفة ، مما يساعد على سهولة الحركة والاختفاء . وقد انتشروا وسط قرى سكنية صغيرة ، واحتموا بها ، حتى لا يتعرضوا لنيران مصرية من الجو أو الأرض . فكرة شيطانية ، توصل إليها ضابط ملعون فى جيش صهيون ، وقد صدر عن ذلك بلاغ عسكرى صباح يوم الثلاثاء ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، جاء فيه : « نجحت جماعات صغيرة من العدو فى العبور إلى الضفة الغربية للقناة ، ويقوم الجيش باتخاذ الإجراءات اللازمة للقضاء عليه » . أحدثت أنباء هذه الثغرة حسرة فى قلوب كثير من المواطنين ، وأفقدتهم بعض مشاعر فرحة العبور والنصر .

انتشرتُ فى المنطقة أنا وبعض الزملاء مدة يومين ، قمنا فيها بواجب التوعية للمواطنين ومحاولة إبعادهم عن الأماكن ، التى يحتمل وجود قوات للأعداء بها . فى مساء اليوم الثانى جلست أستريح مع بعض الزملاء تحت ستار مجموعة من الشجر الكثيف . فجأة انفتحت علينا نيران الجحيم . المفاجأة لم تساعد معظمنا على الهرب أو الانبطاح أرضاً . الموت فوق رؤوسنا .. أمام أعيننا .. بين أيدينا وأرجلنا . الموت الغادر يحصد النفوس البريئة . حفرت لوجهى مكاناً فى الطين . أحكمت وضع الخوذة الحديدية على رأسى . نطقت الشهادتين فى انتظار موت نبيل .

ماذ حدث ؟! من مات ..
من بقى ؟! كيف وصلت إلى
هنا .. أين أنا .. بل من أنا ..؟!
لا .. لا أدرى .. لا .. لا أدرى .

.. ..

.. ..

اكتشفت بعد مدة ، لا أعرف مداها — على وجه اليقين — أنى أرقد فى المستشفى العسكرى بالقاهرة . حين بدأت أحاول تحريك العينين وبعض الأعضاء ، كان أول ما تفتحت عيناى عليه هو الطبيب المعالج ، الذى قال مبتسماً :

— حمداً لله على سلامتك .

قلت :

— أين أنا ؟

فرد :

— المهم . أنك لا زلت على قيد الحياة .

حاولت أن أتبين على وجه الطبيب مدى صدق الكلام الذى يقوله ، فشعرت بقدر من التفاؤل والثقة . علمت أنى أصبت .. وبقيت ليلة كاملة أنزف . ظهر من الكشف الطبى أن هناك عدة شظايا فى أجزاء مختلفة من الرجلين والظهر ، وجروحاً متعددة فى كافة أنحاء جسدى . أخطر ما أتعبهم فى جروحى — كما علمت بعد شفائى — هو محاولة الإمساك بالشظايا التى دخلت جسدى ، لأن بعضها لا يستقر فى مكان واحد ، وإنما يتحرك مع الدم . قالت الممرضة مبتسمة ابتسامة ذات معنى :

— من زينب التى رددت اسمها كثيراً ، تحت تأثير البنج ؟!

— أختى .. أختى الوحيدة .

— أتود أن نستدعيها ؟

— لا .. وشكراً ، لا أريد إزعاجها .

فى المستشفى لم أشعر بالوحدة مطلقاً ، فمن كان يأتى لزيارة قريب

أو صديق ، يمر على كل من فى العنبر . كما أن بعض الشخصيات العامة حضرت لزيارتنا ، وأرسلت بعض المؤسسات هدايا رمزية . رغم الجروح والآلام كنت سعيداً ، لأنى شاركت فى معركة التحرير والنصر . تمنيت أن أكون شهيداً ، ينال رضا الله والجنة . لكن الله لم يمن على بمنزلة الشهيد . صدق من قال : أعطنى عمراً وارمنى فى البحر . دخلت المعتقل .. وخرجت — بفضل الله — صحيح البدن سليم النفس ، ثم دخلت الحرب وتعرضت للموت ، فما فى جسمى مكان إلا به أثر جرح أو شظية .. وأخيراً دخلت غرفة العمليات ، لكن الله سلم ، وأنقذنى من كل سوء ، لدرجة أن الطبيب المعالج دهش عندما عادت الروح إلى ، ودبت الحركة فى أعضائى . وقال :

— الحمد لله أنك ما زلت على قيد الحياة .!!

من قال إن عصر المعجزات قد انتهى ؟! لو صدق ذلك ، فبم أفسر ما حدث لى .. وكيف نجوت من تلك المنعطفات الخطرة ، التى مرت بى فى أثناء عمرى القصير ، الذى لم يتخط الثلاثين خريفاً ؟!

بدأت أتماثل للشفاء . أصبحت أفضل قضاء مدة طويلة فى حديقة المستشفى ، ولا سيما قبيل شروق الشمس وطلوع النهار . لحظة جميلة رائعة أن تشهد مولد يوم جديد ، فتحس بقدر من التفاؤل والراحة النفسية . ستظل الأحلام فى القلب عامرة .. ما دامت الشمس تشرق كل يوم ، والزهور تتفتح كل صباح ؟! أنا متفائل .. أنا متفائل ، لأنى إنسان مؤمن ، بكل الديانات والرسل وبكل الفلسفات والقيم . قلبى كبير ، يضم الكون أجمعه . لا أحمل حقداً حتى لمن ظلمونى ، ولا أضمر شراً حتى لمن أساءوا إلى . أنا مؤمن بوحدة الوجود ، وقدسية المعبود . أنا مؤمن ، لأنى لا أملك شيئاً ، ولا أقبل أن يملكنى شىء . أنا إنسان متعفف ، صاف متصوف ، أدين بدين الحب ، فالحب يكشف ظلام الأشياء ويطهرها ، ويمحو مرارة البغضاء ويبددها . الحب طريق القلب ، إلى

مفاتيح الغيب . الحب أداة الخيال ، إلى عالم المثال . الحب صلة الوجود ، بسر الموجود . الحب نهر عظيم ، يحيى القلوب وهى رميم . الحب أمان من الخوف والحزن ، والعجز والكسل . لولا الحب ما كانت حياة ، ولولاه ما خلقنا الإلٰه . أنا بالحب عرفت نفسى .. وبالحب عرفت الله . فطوبى لمن أحب الله ، وأحب عباد الله ، وأحبه الله . من أحب الله أحب عباده .

حين تحركت فى القلب هذه المعانى السامية ، تذكرت الرجل الصالح ، الذى علمنى إياها عليه رحمة الله . لا شىء يحدث فى هذه الحياة صدفة أو اعتباطاً . القطرة تؤدى إلى النهر . الحبة نواة الحقل . دخلت المعتقل ، لأومن بعقيدة الشيخ عبد الله ورؤيته النورانية للوجود والمعبود . ثم دخلت الحرب ، وعانقت الموت ، لكننى نجوت لأكون آية على أن الله ينجى عباده الصالحين .. وأن نار الأعداء ، كانت برداً وسلاماً على إبراهيم .!!

تماثلت للشفاء .. ولم تبق إلا فترة نقاهة قصيرة ، حتى أسترد عافيتى ، التى هربت فى أثناء العمليات الكثيرة ، التى أجريت لى فى المستشفى . عندما صرحوا لى بالخروج ، آثرت أن آخذ عربة تاكسى ، وأعود فى الليل إلى المنصورة . لم أعد قادراً على المواجهة . لكن القيامة قامت حين طرقت باب جارنا القديم الأستاذ حامد البكرى ، لآخذ مفاتيح البيت التى تركتها عنده . أقسم الرجل على أن أبيت هذه الليلة فى شقته . حدثته عن الحرب ، وعما حدث لى فى المستشفى . وكلمنى عن محادثات فض الاشتباك بين الجيشين المصرى والإسرائيلى بعد أن وافق الطرفان على وقف القتال .

فى صباح اليوم التالى كلمت صلاح زوج شقيقتى فى العمل ، وأخبرته بما حدث ، وطلبت منه أن يحضر زينب وأولادها ، حتى أراهم وأطمئن عليهم . لم يأت صلاح وأسرته فقط ، وإنما جاء معهم الحاج حلمى . كان أولاد زينب — نفيسة وأمانى ، وأحمد — الذى ولد بعد وفاة أبى رحمه الله — يلعبون بجوار

السرير ، الذى أرقد عليه ، والأم تطلب منهم أن يسكتوا ، حتى لا يتعبوا خالهم .

قال صلاح :

— أمرك عجيب يا أخى ؟

— لماذا ؟

— أنت معفى من الجيش ، ومع ذلك تذهب إلى الحرب برجليك .

— حب الوطن داء ، لا علاج له .

— لو كنت متزوجاً وصاحب أسرة لتغير فكرك .

— لا أظن ذلك .

قال الحاج حلمى :

— لا فائدة من الكلام معك فأنت عنيد ، رغم أنك رجل طيب . لكن ...

— لكن إيه يا عمى ؟

— ألا تريد أن تكمل نصف دينك ؟

— فاتنى القطار يا حاج حلمى ..

— يا أخى اركب حنطورا .. والحق نفسك قبل أن يفوت الأوان .

أشرقت البسمة على وجه زينب حين جرى حديث الزواج . فهى مشغولة بالبيت والعمل ، لكن قلبها دائما ملهوف على . قالت :

— والله عندى لك أكثر من عروسة . فقط وافق .. أشر .. عاوزين نفرح بيك يا حبيبى .. ألم تزهق من العزوبية ؟!

— كل شىء قسمة ونصيب يا زينب .

قال الحاج مبتسماً :

— شباب آخر زمن .. والله أنا لو فى مثل سنك لتزوجت مثنى وثلاث .

— الدهن فى العتاق يا عمى .

قال صلاح :

ـــ كل إنسان أدرى بظروفه يا بابا .

بكت زينب فى صمت ، وهى تقول :

ـــ الله يرحمك يا بابا ، يبدو أن ذرية الشريف سوف تنقطع .

قال الحاج منفعلا :

ـــ فأل الله ولا فألك ، أخوك ما زال مريضاً ، ونحن نهزر معه .

بعد أن رحلت زينب ، عدت إلى الوحدة .. الكيف الوحيد الذى أبدو صالحاً لإدمانه . كنت حزيناً من كل قلبى على حزن زينب . لكن كيف أرضيها .. المشكلة هى : بم أتزوج يا زينب ؟ لا أملك سوى راتبى .. مائة جنية ..؟ ماذا تفعل فى هذه الأيام السوداء .. أيام الغلاء .. والوباء .؟! الفقراء أمثالنا ليس لهم حظ فى هذه الحياة الزائفة . أملنا الوحيد فى الله .. فى العالم الآخر .. فى جنة الخلد ، التى أعدت للفقراء . أنا فقير .. أدرك أن الغنى غنى النفس ، لذلك فلسفت الفقر والعزوبية . القدر نفسه يعارض زواجى . كل فتاة أحببتها ، ضاعت من يدى .. عبير ، وعائشة ، وابنتا الشيخ عبد الله . من أجل ذلك أقمت حاجزاً منيعاً بينى وبين الناس ، حتى شقيقتى لا تعرف عن حالتى المادية شيئاً . إذا جمعت ـــ بشق الأنفس ـــ مبلغاً من المال فى أى وقت أشترى به هدايا لها ولأولادها ، حتى تظن أنى ميسور الحال ، وتفتخر بى أمام أهل زوجها . الله وحده يعلم الجهد ، الذى أتحمله بعد كل زيارة . من أجل أن تظل زينب مرفوعة الرأس ، فسأتحمل أى عبء من أجلها .

كنت أتحرك فى ثلاث دوائر ثابتة : مدرسة المنصورة الثانوية للبنين .. وبيتنا فى حارة الفكهانى .. ومسجد الشيخ سعد . أقوم بعد صلاة الفجر فأقرأ ما تيسر من القرآن وبعض الأوراد والأدعية ، ثم أتوجه إلى المدرسة ، فأظل بها إلى حوالى الساعة الثانية ظهراً . ثم أذهب إلى البيت فأتغدى وأستريح إلى ما قبيل صلاة

المغرب ، فأذهب إلى المسجد ، وأصلى المغرب جماعة فى مسجد الشيخ سعد ، ثم أصلى ما استطعت من السنن والنوافل ، وأتلو بعض الأدعية إلى أن تأتى صلاة العشاء ، وبعدها أعود إلى البيت لإعداد بعض الدروس أو تصحيح الكراسات . أحياناً أشارك فى المناسبات الاجتماعية ، التى تحدث لبعض أهل الحى أو زملاء العمل .

ارتفعت قامتى بين الناس ، لأنى زهدت فى كل ما يرغب فيه الناس . لم أطلب من أحد معروفاً ، وإنما كنت — بفضل الله — صاحب اليد العليا . هكذا أصبحت واحداً من الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . العفة كنز لا يفنى .

قال أحد الزملاء فى المدرسة — ذات يوم — ساخراً :

— كيف صار مستر إبراهيم الشيخ أبا خليل ؟!

لم أعبأ بالرد عليه ، وقلت لنفسى :

— لم لا أكون من الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ؟ سلام عليكم جميعاً أيها الجاهلون ، سأستغفر لكم ربى . إلىّ .. إلىّ أيها الجاهلون : أعرفكم كيف يكون الحلم والعلم . إلىّ .. إلىّ أيها المبغضون .. أدلكم على طريق المودة والرحمة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وبكى على خطيئته ، و لم يعبد الله خوفاً من ناره أو رغبة فى جنته . الله محبة ، ومحبة الله تؤدى إلى فعل الخيرات ، وترك المنكرات . تحابوا فى الله عباد الله ، حتى تشرق الأرض بنور ربها ، ويعم الرخاء ، وينكشف البلاء . اللـٰهم اجعل الحب ربيع قلبى ، ونور عينى ، وضوء حياتى ، وشفيعى يوم لقاك .!!

بعد حوالى سنتين رقيت إلى وظيفة مدرس أول لغة إنجليزية فى مدرسة المنصورة الإعدادية للبنات . سعدت بالعمل الجديد ، لأنه أكثر قرباً من سكنى ، وفى هذا توفير للوقت وصيانة للأحذية من كثرة المشى ، فى زمن أصبح ثمن الحذاء فيه يساوى مرتب خريج جامعة . كلما تقدمت الأيام .. صرت أكثر زهداً فى الحياة

ورغبة فى إسعاد الآخرين ، ومواساتهم فى المصائب والأحزان . كنت أؤدى العمل بإخلاص وأساعد الزملاء والزميلات ، وأعطى دروساً إضافية لمن تشاء من الطالبات دون مقابل . السعادة الحقة أن تساعد غيرك وأن تمسح دموعهم وأن تقف معهم فى الشدائد . كلنا فقراء .. ضعفاء .. غرباء .. ما أقوى حاجة الإنسان إلى الإنسان . الإنسان مصدر السعادة والشقاء . الإنسان ملاك وشيطان . الإنسان جنة ونار . الإنسان عمار ودمار . أيها الإنسان أحب لأخيك ما تحب لنفسك ، فالحب يطفئ الشرور كما يطفئ الماء النار . ومن فرج عن أخيه مصيبة من مصائب الدنيا الفانية ، فرج الله عنه كربة من كربات الآخرة الباقية .

كنت الأعزب الوحيد فى مدرسة البنات ، فكل الرجال هنا متزوجون ، حتى العمال ، لكننى كنت صاحب منزلة خاصة ، ومحل ثقة للجميع ، ونائب الناظرة — أبلة فريدة حسان — فيما لا تقدر عليه أو تشغل عنه . رغم سعادتى وقناعتى ، فقد كانت هناك امرأتان تبديان قلقاً على : الأولى أختى زينب ، لكن حماستها ضعفت لإنقاذى من مستنقع العزوبية ، لأنى خذلتها خذلاناً شديداً فى كل مساعدة ، تحاول القيام بها فى هذا السبيل . المرأة الثانية التى تغازلنى من بعيد .. ولم تيأس بعد من محاولة إدخالى قفص الزوجية بيديها هى فوقية عبد العزيز .. مدرسة اللغة الإنجليزية ، عذراء فى حوالى الأربعين من عمرها ، مقطوعة من شجرة ، لكن عندها ثروة ، كونتها من الدروس الخصوصية ومن الجمعيات التى تعملها دائماً ، وتواظب عليها باستمرار ، لدرجة أن واحدة من الزميلات ، قالت ذات يوم :

— أبلة فوقية يجب أن يخفف جدولها لإدارة الجمعيات التعاونية ، التى تقوم بها لإنقاذ المحتاجين والمحتاجات من المدرسين والمدرسات .. صيفاً وشتاء !!

رغم أن أبلة فوقية — كما يعرف الجميع — حريصة إلى درجة البخل ، ومحافظة إلى حد التزمت ، فقد كانت تصدر عنها بعض الهفوات ، التى تكشف عن رغبتها

فى لفت نظرى ، أو إظهار الإعجاب المبالغ فيه لما أقول أو أفعل — أحياناً . رأتنى حضرة الناظرة ذات مرة أراجع لها كراسة تحضير الدروس ، فقالت مبتسمة بسمة خبيثة :

— والله لايقين لبعض ..!!

فردت فوقية :

— وحياة بابا .. يا أبلة ، لقد رفضت عشرة عرسان ..!!

قلت ضاحكاً :

— الرجل لا يقدر على امرأة واحدة ، فكيف أقدر على امرأتين ؟

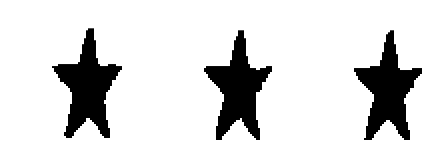
هربت من الموقف بحجة صلاة الظهر . كما يئست زينب منى .. بدأت أبلة فوقية ، تستسلم هى الأخرى ، بعد ثلاث سنوات من الكفاح الناعم .

فى تلك الأثناء جاءت المدرسةُ الجديدة كريمة حسين غالب ، ورغم سوء الفهم الذى حدث بيننا فى اليوم الأول ، فإننى بدأت أهتم بها على نحو ما . كريمة ذات جمال هادئ .. لكنه لافت وجذاب ، فهى متوسطة الطول ، معتدلة القوام ، أقرب إلى الامتلاء النسبى . ذات وجه شرقى السمات ، حلو البسمات . عيونها عسلية ، تسبح فى زورق من صنع أحلام الشباب . الرقبة مرمرية .. طويلة نوعاً ما ، بحيث تبرز جمال شعرها الفاحم المسترسل وأذنيها الرقيقتين . ملابسها عصرية محتشمة .. وإن كانت لا تخفى ساقيها المرتويتين . فتاة يجملها أمران : كبرياء الصبا ، وطهارة العذرية .. لكن أين أنا .. وأين هى ..؟! هذه الفتاة بينى وبينها فى العمر ما يقرب من عشرين سنة . أحس — أحياناً — أنها الابنة ، التى تمنيت أن أنجبها ، وأن أسمعها تنادى على بصوت ملائكى :

— بابا حبيبى !!

لو كانت كبيرة بعض سنوات ، لأرضيت زينب بالزواج منها . لكنها صغيرة

.. صغيرة فى سن ابنتى . والسن له حكم . كيف يلتقى الربيع بالخريف والسعيد بالحزين ومحب الدنيا بالزاهد فيها ؟! صبراً يا إبراهيم ، لأن زوجتك ستكون من الحور العين فى الجنة ونعيمها إن شاء الله . وداعاً يا كريمة فقد جئت متأخرة عشرين سنة عن موعدك . كل شىء بقضاء .. ما بأيدينا كُتب علينا الشقاء . أشعلت سيجارة .. طار الدخان فى الهواء ..!!



١٢ ــ مدينة الحب كثيرة الأبواب

لا أعرف ماذا جرى لى على وجه التحديد ؟ ما زلت كريمة بشحمها ولحمها .. بنت المنصورة ، مدرسة اللغة الإنجليزية ذات الخمسة والعشرين ربيعاً . فاح عطر الزهر ، ونضج التفاح ، وأثمر الرمان .. بلغت السن الحقيقية لنضج الأنثى . جاءنى أكثر من خطيب .. فأنا فتاة جميلة ــ أو بتعبير ماما قمر أربع عشرة ــ مثقفة .. موظفة .. والذى يشغل منصب مدير إدارة الشئون الاجتماعية بالدقهلية . يعنى على رأى أبلة فوقية . كاملة من جميعه ، فلم لا أوافق على أول عريس ، حتى لا أصبح مثلها فى عربة السبنسة ؟ لم تكن حريصة على مصلحتى ، قدر حرصها على إزالة غريمة تتنافس وإياها حب رجل .

حين جئت إلى المدرسة ، لم يكن إبراهيم يمثل بالنسبة لى شيئاً ، فهو مجرد رئيس فى العمل ، أحضر معه بعض الاجتماعات الرسمية ، وأسأله عن بعض المشكلات التى تطرأ فى المدرسة . لم ألجأ إليه فى أية مشكلة دون أن يقدم لى فيها النصيحة مخلصة والرأى مقنعاً . إذا استفسرت عن قضية علمية جاءنى بأكثر من مرجع حولها ، قائلا :

ــ التعليم يحتاج دائما إلى تجديد المعلومات . ليس بالأقدمية وحدها يصبح المرء ، معلماً ناجحاً .

ظننت ــ فى بداية الأمر ــ أنه يخصنى وحدى بهذه المعاملة المتميزة ، فإذا بى أكتشف أنه هكذا مع الجميع ، حتى مدرسى اللغة العربية ، يمدهم أحياناً ببعض الكتب المتخصصة . لا تقع لواحد من موظفى المدرسة حادثة إلا إذا كان أول الواقفين معه وآخر المنصرفين ، حتى التلميذات يؤدى لهن واجب العزاء

أو التهنئة ، إذا عرف الخبر فى حينه . صدقتُ ما يقال من أنه « الأب الروحى » للمدرسة كلها . هذا الرجل الوحيد ، الهزيل ، الضعيف ، شغل نفسه بالناس جميعاً ، و لم يشغل به أحد ، حتى أخته يبدو أنها نسيته أيضاً . البعيد عن العين بعيد عن القلب .!

حين انجذبت نحو الرجل ، لم يكن انجذاب فتاة محرومة ، أعجبت برجل صالح لزراعة الحب ، وإنما كان احترام موظف لرئيس وجده مثلا أعلى .. وإعجاب إنسان بإنسان ، رأى فيه أسوة حسنة . أعجبت بالأستاذ إبراهيم باعتباره رجلا فاضلا ، تتحقق فيه معانى الإنسانية على أكمل وجه ، فهو عطاء بلا حدود ، وتسامح بغير نهاية ، يحمل قلباً ذهبياً أبيض ، أكثر صفاء من قلب الطفل الرضيع . هذا ما يعتقده كل الناس ، غير أنى رأيت فيه جانباً آخر ، يمثل قصوراً شديداً فى حياتى . فهو بالنسبة لى — على وجه خاص — يقدم صورة لأب عطوف ذكى القلب يقظ الضمير ثاقب الرؤية ، حرمت منه منذ وقت بعيد .. بعيد جداً . ربما لا يدرك اليتيم معنى الأبوة ، لأنه لم يذق لها طعماً .. المتعود إذا حُرم من الحنان قد يصبر ، لكنه لا ينسى ، وإنما تظل حاجته إليه كامنة فى النفس ، تشتعل عند أول شرارة عاطفية . يا أبانا الذى فى السماء ، اهد آباءنا الذين يمشون على الأرض ..!!

وقع حادث ، كان له أثره فى بدء علاقاتنا العاطفية . جاءنى خطيب عن طريق أبى .. وقد اقتنعت به أمى ، فهو طبيب متخرج حديثاً ، وأبوه على صلة قوية بأبى ، لأنهما كانا زميلين فى أثناء بعض مراحل الدراسة ، ويعرف والده حق المعرفة . أهم من هذا وذاك فى نظر والدى ، هو أن الخطيب عنده شقة تمليك ، اشتراها له أبوه . قال بابا :

— الشقة مفتاح الزواج .. ومن يملك شقة يقدر أن يملك عروسة .

صحت :

— العروسة لا تملك ، فهى ليست عروسة حلاوة . الزواج تفاهم وتوافق .. ولا علاقة له بالنواحى المادية .

— هذا كلام جميل ، لا علاقة له بالحياة . الزواج الناجح فى رأيى ، مشروع اقتصادى نافع .

اندفعت أمى :

— أكيد كان هذا رأيك عند زواجنا .

صاح فيها دون مبرر :

— انسى الماضى يا امرأة ، وفكرى فى مستقبل ابنتك ، فعندك غيرها عروستان .

أية مناقشة بين الوالدين ، لابد أن تنتهى بخناقة وخلاف حاد بين رأى كل منهما . الحوار بينهما فى أى موضوع مناسبة ، لتفجير ما يحتوى عليه الصدر من غيظ مكتوم وحقد مكبوت . اقترحت عليهما حتى أفض الاشتباك ، أن أقابل الخطيب المنتظر فى مكان عام .. هو مع والده ، وأنا مع والدى ، فإذا حدث قبول يأتى لزيارتنا فى البيت .

أخذ أبى راحته على الكنبة ، التى يجلس عليها فى صالة البيت ، بدا كمن ظفر بحل سلمى لمشكلة الشرق الأوسط :

— والله رأى معقول يا كوكى .

رغم أنى صاحبة الاقتراح فإن الفكرة لم ترق لى . عزت على نفسى . سوق المنصورة يكون يوم الثلاثاء من كل أسبوع .. من عنده شيء يريد بيعه ، فليذهب به إلى سوق الثلاثاء . تذكرت أيضاً سوق الجوارى والغلمان والخصيان ، الذى كان يتم فى العصور الوسطى ووصفته — بعض حكايات « ألف ليلة وليلة » .

لو نقلت مشاعرى إلى أى من أبوى ، فسوف تقوم الدنيا ، ولن يعرف أحد متى يمكن أن تقعد ؟! قلت سأذهب وأرجع كما ذهبت . حتى أتقن حبكة التمثيلية ،

قلت لهم أمهلونى يومين حتى أفكر . توجهت إلى إبراهيم لأخذ رأيه . سألت نفسى .. لم هو دون غيره ؟ لم أجد مبرراً مقنعاً ، لكننى أحسست أن الرجل واضح الفكر ، نقى الضمير ، لا يزيف ، ولا يجامل ، لذلك سيقول الرأى الصواب .

بعد أن استمع إلى ، صمت لحظة :

ــ لقد عرضت على المشكلة ، لكن لم تقولى رأيك .

ــ أريد أن أحدد رأيى بناء على رأيك أنت .

ــ الزواج فى بلادنا مسألة سهلة جداً ، وأزمة معقدة جداً .

اقتربت بالكرسى إليه أكثر :

ــ كيف يا أستاذ إبراهيم ؟

ــ مسألة سهلة .. إذا تزوجت بالطريقة التقليدية ، وبالمناسبة فهى لا تتعارض مع الشريعة ، فالرسول يقول : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه » .

ــ وكيف يكون أزمة معقدة ؟

ــ لو صدقت ما نقرؤه فى كتب الأدب ونسمعه فى الأغانى .. وأقمت علاقة عاطفية ، تؤدى ــ بعد اختيار واختبار ــ إلى زواج .

قلت متحمسة :

ــ هذه مقدمات الزواج الناجح فعلا !

ــ لكن ظروفنا الاجتماعية وقيمنا الروحية ، لا تساعد كثيراً على قيام مثل هذه التجربة ، لذا أرى أن تستجيبى لنصيحة بابا فى هذا الموضوع .

فجعت فى رأيه ، ونظرت إليه فى دهشة :

ــ يعنى أنت تريد منى أن أطبق المثل الإنجليزى :

In Roma do as Romans do !

شرد الرجل بعيداً ، كأنما حركت المناقشة ذكرى ما داخل نفسه . صمت

برهة .. ثم استرد روحه الضالة : على كل أنت صاحبة المشكلة ، والرأى رأيك ، فلا تفعلى إلا ما تستريحين له . فاستفتى قلبك .. وإن أفتاك الناس وأفتوك .

قلت فرحة :

ـــ هذا هو الرأى الصادق ، الذى كنت فى حاجة لأن أسمعه من الأستاذ إبراهيم ، الذى يقول الحق دائماً ، حتى لو كان على نفسه .

إبراهيم بالنسبة لى ولكثيرين .. يمثل صوت الضمير ، ونحن حين نلجأ إليه فى مشكلة ، لا نتوقع أن نسمع رأيا مخالفاً أو غريباً ، وإنما نكون فى حاجة لأن نسمع منه صوت ما يدور فى داخلنا ، ولا نجرؤ ـــ أحياناً ـــ على البوح به . وهذا ما حدث لى اليوم ، فإبراهيم لم يقدم رأياً مخالفاً لما كنت أعتقده ، لكنه شجعنى على قول ما آمنت به . هناك خاطرة نفسية ، لا علاقة لها بالرأى والتفكير ، أو الموافقة والرفض ـــ فقد شعرت بقدر من الفرحة ، وأحسست أنى انتصرت على نفسى .. أو عليه .. هو نفسه ، لا أدرى ..! هل يمكن أن يظن ولو للحظة أنى رفضت الشاب الصغير من أجل رجل مجرب ، تشدنى إليه أمور أعرف بعضها ، ولا أفهم بعضها الآخر ؟!

حاول بابا أن يغير رأيى .. لكن أمى تعرف أن رأسى من حجر الصوان . قالت فى حزن :

ـــ ليتنا عرضنا عليه نعيمة ، فهى طالبة فى كلية الآداب .. وأعقل من هذه المجنونة .

ضحكت على فكرة ماما بشكل منفعل :

ـــ أمرك غريب يا ست ماما ، واحد عاوز ياكل بامية ، تقولى له لازم تاكل ملوخية .. صحيح عالم بطاطس .. بطاطس !!

صدق حدسى ، فقد أصبح القلب يدق إذا رأى إبراهيم .. بل إنه يدق أيضاً إذا فكرت فيه ، وأنا بعيدة عنه فى البيت . سيل من الماء كانت تحول دون

تدفقه قطعة صخر ، أزيلت .. فمضى منطلقاً بغزارة ، يسقى الأرض الشراقى .
منذ ذلك الحين بدأ حبى له . لكن الحب من طرف واحد مرض وجنون ، أو بمعنى آخر مرض يؤدى إلى الجنون أو جنون يوصل إلى المرض . كيف ألفت نظره .. وهو التقى ، النقى ، الزاهد ، الورع ؟! يا إلـٰهى لم حكمتَ على بهذا الحب الغريب ، الذى قد يؤدى بى إلى الجنون أو المرض ؟ إبراهيم كيف يطمئن قلبى إليك ؟ لكن .. لم الخوف من الحب يا كريمة ؟ الحب هو الانتصار للحياة ، بل يمكن القول : إن المبرر الوحيد للحياة البشرية هو ممارسة الحب ، الذى يستطيع المرء بمقتضاه أن يحقق ذاته .

منذ ذلك الحين بدأت أنظر إلى إبراهيم نظرة جديدة .. لا علاقة لها بالعمل ، وإنما نظرة فتاة لرجل ، رأت فيه صورة مثالية لفارس الأحلام . إبراهيم .. رجل قمحى البشرة ، أقرب إلى الطول ، وهذا ما يجعله يبدو نحيل القوام . بدأ الشيب يشتعل فى سوالفه . خفيض الصوت ، عيونه — من تحت النظارة — يشع منها صفاء روحى ، يجذبك — بالضرورة — إليه . حريص على نظافة ملابسه وهدوء ألوانها . يعامل الناس معاملة طيبة ، كأنهم — بالنسبة إليه — إخوة أو أصدقاء منذ زمن بعيد . بالإضافة إلى أنه — بشهادة الجميع — إنسان مثالى .. فى أخلاقه وعلمه وعمله وطريقة تعامله . ألست معذورة فى أن أعلن عليه الحب ..؟!

ضاعت محاولاتى سدى فى لفت نظره . أحسست فقط أنه حاول أن يكون لطيفاً معى ، ولم يعد يهتم كثيرا بمتابعة عملى المدرسى . هل هذا نتيجة ثقة .. أم عطف .. أم تجاهل ؟! نحن نتعامل فى مدرسة فيها ألف تلميذة ومائة مُدرس ومُدرسة وستة عشر عاملا وعاملة .. فكيف أكلمه ؟ الكلام فى الحب يحتاج إلى جو خاص .. لا تهدده أبلة فريدة أو تعكره أبلة فوقية أو الزملاء والزميلات .. أو التلميذات . جاءتنى فكرة مباغتة .. نفذتها لأول مرة فى حياتى . كتبت له رسالة غرامية على ورق بمبى اللون .. وعطرته برائحة البنفسج . تذكرت مطلع

أغنية قديمة :

ليه يا بنفسج بتبهج وانت زهر حزين ؟!

بالطبع أنا بنت حويطة .. لن أكتب اسمه أو اسمى فى الرسالة . من يدرى .. على كل .. الحذر مهم .. مهم جداً . كما أنى لن أذكر شيئاً فى الرسالة يدل عليه أو على .. الحب صعب ..!!أغلقت الرسالة ووضعتها فى كراسة تحضير الدروس ، تمهيداً لإعطائه إياها فى أول فرصة سانحة .

حملت الرسالة .. وذهبت إلى المدرسة سعيدة مرحة . اليوم أكتب السطر الأول فى قصة حبى .. هل يستجيب أم يرفض ؟! كلما اقتربت من المدرسة زاد خفقان الطائر الملهوف فى صدرى . أخذت أعيد التفكير .. قلت فى نفسى أخيراً : لم أتردد ؟ ما فعلته هو الصواب . لابد أن أعرف موقفه من مشاعرى نحوه ، فأستمر .. أو أتوقف !! قطع تفكيرى ظهور تلميذة أعزها فى الصف الأول الإعدادى . أقبلت على مبتسمة :

— صباح الخير يا مس كريمة .

— صباح الخير يا ندى .. عملت الواجب ؟

— أيوه يا أبلة .

الأطفال أحباب الله . تفاءلت بظهور ندى . قررت أن أستمر فى المحاولة . حاولت أن أتحين فرصة أخلو فيها إليه ، لكن الظروف لم تسمح . غريب ، كل يوم أراه .. وأجلس معه ، وأتكلم . دنيا عجيبة ، تعطى الحلق لمن ليست له أذنان . انتهى اليوم الدراسى دون أن تسنح فرصة لإعطائه الرسالة . اليوم من بكرة ، لن تنهد الدنيا ولن تقوم الساعة . أول ما فعلته حين وصلت إلى البيت هو الاطمئنان على الرسالة . عجيب .. غريب .. ماذا حدث .. كيف .. أين الرسالة ؟ فى الكراسة .. فى الكتب .. فى الحقيبة . لا شىء .. فص ملح ذاب .!! كيف حدث ؟! هل وقعت فى الطريق .. فى المدرسة .. فى البيت ؟! حين

شككت للحظة أنها يمكن أن تكون قد وقعت فى المدرسة ، خفق قلبى بشدة ، ورفّت عينى اليسرى : يا رب استر .. استر يا رب ..!!

مضى يومان دون أن أعثر للرسالة على أثر . استيقظت داخلى النفس اللوامة . ليتنى ما فكرت فى هذه الفكرة الصبيانية . لم أقترف جريمة . لكنها رسالة غرامية . لو وقعت فى يد تلميذة ، أو زميلة ، أو الناظرة .. ما العمل ؟! العمل عمل ربنا .. مطرح ما ترسى ، دُق لها .. قولى يا باسط .. يا رب ياساتر .!!

فى صباح اليوم الثالث ، استدعتنى الناظرة بحضور الأستاذ إبراهيم . طلبت منى أن أغلق الباب ، ونبهت على العاملة ألا تدخل أحداً . بعد التحية التقليدية بينى وبينهما ، أحسست أن فى الأمر شيئاً غير عادى . قالت الناظرة :

ــ ألم أقل لك يا مس كريمة أنك مثل ابنتى من أول يوم لك فى المدرسة .

ــ هذا ما أحسه نحوك منذ جئت إلى هنا .

بدا المدرس الأول صامتاً .. ومتحفظاً ، بينما واصلت الناظرة :

ــ نحن فى مدرسة بنات يا كريمة .

ــ أعرف ذلك جيداً يا أبلة فريدة .

ــ المعلمة لا تعلم البنات اللغة الإنجلزية فحسب ، وإنما هى قدوة فى الأخلاق والسلوك .

ــ أنا حريصة على ذلك ، ليس بدافع المسئولية فقط .. لكن هذه طبيعتى وطريقة تربيتى .

قال إبراهيم :

ــ وذلك ما جعلنا نتعجب مما حدث ، وطلبتُ من أبلة فريدة أن تعالج المسألة بمنتهى الحذر والحكمة ، حرصاً عليك .. على كريمة التى نحترمها ونقدرها . ولم ترتكب أية مخالفة منذ عملت معنا فى هذه المدرسة .

ــ إيه الحكاية يا ماما فريدة ؟

فتحت درج المكتب بهدوء . وأخرجت الرسالة ، التى أبحث عنها منذ يومين . خفق قلبى ، لكنى حاولت ضبط انفعالاتى ، حتى لا يخرج الأمر من يدى :

ــ ما هذه يا ابنتى ، لو كنت ماما كما تقولين ؟!

قال الأستاذ إبراهيم فى حسم :

ــ لا داعى للمناقشة فى أمور شخصية . لكنى أريد أن أقول إنها يجب أن تكون حذرة وحريصة ، حتى لا تلقى بنفسها إلى التهلكة .. فهذا آخر شيء ، كنت أتوقعه أنا شخصياً من فتاة مهذبة مثل الأستاذة كريمة .

استأذن وخرج .. على وجهه تبدو علامات الغضب والحزن . من كثرة انشغالى عليه .. لم أحسن الإصغاء إلى ما قالته الناظرة . فقد ذكرت أن زميلة عثرت على الرسالة واقعة تحت مكتبى . قلت فى نفسى وجدتها تحت المكتب أم سرقتها من بين كتبى . قلبى يحدثنى أنها سُرِقت عمداً .. وأن السارق هو أبلة فوقية ، التى أحست أنى أقترب من إبراهيم ، فأرادت أن تشوه صورتى لديه ، بل لدى المدرسة كلها . سرقت الرسالة وسلمتها للناظرة . لم تكتف بهذا ، وإنما أخبرت إبراهيم بالواقعة باعتباره الرئيس المباشر . ابنة الكلب .. الأرنبة المنتفخة .. عملتها .. العجوز الحيزبون !!

ما حدث رغم قسوته أمر ، وما فهمه إبراهيم أمور أكثر قسوة . خيل له أنى أحب شخصاً آخر .. وأنى ضحكت عليه يوم أخذت رأيه فى مسألة الخطوبة فى الأسبوع الماضى . كيف نجمت عن هذه الحادثة العارضة ، كل تلك المصائب الكبرى .. كيف ..؟! أكاد أنفجر من الغيظ ..!!

مرت أيام طويلة أحسست فيها أنى أعامل معاملة المنبوذ ، خاصة من مدرسى اللغة الإنجليزية وأصدقاء فوقية عبد العزيز . لو كانت المحنة محنة عادية لأخذت رأى ماما فيها .. أو أية واحدة من صديقاتى .. لو كانت هدى فوزى هنا ،

لتحدثت معها بصراحة ، الوحيدة التى كانت تفهمنى وتقف بجوارى . الأزمات العاطفية أزمات من نوع خاص ، مثل منتجات البترول تشتعل من أية شرارة .. وربما بفعل الاحتكاك الذاتى ، بالإضافة إلى أنها لا تحرق سوى صاحبها . الكعكة فى يد المحروم عجبة . حاولت أن أمارس حقى فى الحب مثل بقية خلق الله ، فجاء الأمر بالعكس . الكارثة الكبرى — بالنسبة لى — أن إبراهيم بدأ يتحاشى الكلام معى ، أو الحديث فى المسائل التى أسأله — عامدة — فيها . إنه — فيما يبدو — حاول إسقاطى من ذاكرته . سأتجنن يا عالم .. وأدخل السراية الصفراء بسبب ما حدث . ليتنى ما فكرت فى الحب .. من رجل معقد .. أكيد هناك أسرار سوداء فى حياته ، جعلته وهو على مشارف الخمسين دون زواج . يتزوج أو لا يتزوج .. أنا مالى .. مائة رجل ورجل ، يتمنون أن أتزوج واحداً منهم . لا .. لا .. أنت غلطانة يا كريمة . ليست المشكلة أن نخطئ ، وإنما كيف نعالج الخطأ ؟! جاءتنى فكرة أكثر جنوناً .. طلبته فى تليفون البيت .. صباح يوم جمعة :

— صباح الخير يا أستاذ إبراهيم .

— صباح النور .. من تتكلم ؟

— أنا كريمة ؟

— خيراً إن شاء الله .

— أريد أن أراك .

— سنتقابل غداً فى المدرسة بإذن الله .

— الأمر عاجل ، لا يتحمل التأخير، كما أنه موضوع خاص ،لا يمكننى الكلامَ فيه فى المدرسة .

— شغلتنى عليك ، ما الحكاية ؟

— أنا أكلمك من الشارع .. لا أقدر .

— متى .. وأين ؟

— عندك فى البيت .

— أنا رجل أعزب .

— وأنا أثق بك .. سأمر عليك فى الثالثة ظهراً .

لا أدرى هل وافق راضياً أم مضطراً ؟ مايهمنى أنه وافق والسلام . هل انتصرت أم حققت خيبة أخرى ؟.. لا أدرى . ما أريده هو أن أشرح له وجهة نظرى .. وأبرىء نفسى .. وله الخيار بعد ذلك . إذا افترقنا ، فسوف نفترق أصدقاء . على الأقل لا أكون خاطئة فى نظره . رب ساعدنى ، حتى أخرج من هذه الأزمة بسلام . السلام مع النفس أمر ، لا يقل خطورة عن السلام ، الذى وقعه السادات مع إسرائيل .!!

ذهبت إليه فى الموعد . تعمدت أن أخفف من المكياج ، الذى أضعه عند الذهاب إلى المدرسة . لابد أن أكون طبيعية . هذا هو الهاجس الذى ألح على .. سأكون على الفطرة فى السلوك والفكر .. يا رب ساعدنى .

— بيتكم فى حى هادئ .

— الحسينية كانت أهدأ أحياء المنصورة ، لكنها صارت اليوم مزدحمة ومزعجة بسبب ورش السيارات والمحلات .

— كل شىء تغير إلى الأسوأ .

— تصورى أنى ولدت فى هذا البيت .

— الحاضر يخيفنى من المستقبل .

— خيراً .. ادخلى فى الموضوع .

— أولا .. أرجو أن تحسن الظن بى لأنى طلبت أن يكون اللقاء فى بيتك .

— لماذا ؟

— المنصورة قرية صغيرة . لو تحركنا فى أى مكان ، فقد يرانى أو يراك أحد . أريد أن أحافظ على سمعتى وسمعتك .

ـــ لكنى فى النهاية رجل أعزب .

ـــ كل الناس يعرفون أنك إنسان طاهر .

ـــ صدقت ذلك ؟

ـــ هذا سبب مجيئى إليك .

ـــ اللّٰهم اجعلنا عند حسن ظن عبادك .

ـــ أستاذ إبراهيم .. فى المسيحية قسيس يسمونه « أب اعتراف » .. وقد اخترتك عن قصد ، لتقوم معى بهذا الدور .

أخذت أحدثه عن أشياء كثيرة فى حياتى . أحسست بقدر من الضعف البشرى ، وأنا أكلمه عن بعض المواقف .. مثل علاقتى بأبى ، وتعب ماما من أجلنا ، والفقر الذى سود حياتنا ، والآمال التى علقتها على الوظيفة . وأخيراً قضية الرسالة المأساوية .. الرسالة التى تحتاج إلى صفح وغفران .!!

صمت بعد أن انتهيت من كلامى :

ـــ حكايتك عجيبة .. وأنا مصدق كل ما قلت ، ما عدا شيئاً واحداً .

ـــ ما هو ؟!

ـــ اعذرينى إذا أسأت فهم موقفك من الرسالة . صحيح .. كيف لم أدرك أنه لولا طيبتك الشديدة ، ما حدث لك ذلك ؟!

ـــ لكنك صدقت فوقية ، وكذبتنى .!!

ـــ نحن بشر لنا الظاهر .. ولله الباطن ، على كل حال .. أنا شاكر لمشاعرك النبيلة ، لكنى لا أقدر على تحمل مسئولية الحب . أنا رجل عجوز على مشارف الخمسين . سأقبل فقط أن أكون أبا لك .. أو أخاً كبيراً ، أو صديقاً ، يقف معك فى أية أزمة .

ـــ هذا يكفينى وزيادة .. المهم أن نبدأ من الآن صفحة جديدة ..

ـــ أنا بابا إبراهيم .

ـــ وأنا بنتك كريمة .

خرجت من عنده ، وأنا فى قمة النشوة . أول يوم سعيد فى حياتى . بعد خمسة وعشرين عاماً بدأت الحياة تبتسم لى . الحياة صعبة .. الوردة الوحيدة وسط خمسة وعشرين شوكة . معادلة صعبة .. لكنها الحياة . أخيراً انتصرت عليك يا فوقية .. هل هذا صحيح أم أنى وضعت العربة أمام الحصان .. وربطت مستقبلى برجل أقام معاهدة دائمة مع العزوبية ؟ أكيد هناك مواقف ألزمته بهذا الاختيار الصعب . لِم لَم يحدثنى عنها ؟ أنا صحيح ساذجة .. قرأت له كتاب حياتى ، و لم أعرف عنه سطراً واحداً . على كل ، النوايا الطيبة تحمينا دائماً من بعض الحماقات ، التى نصنعها بحسن نية .

بدأت علاقتى بالناظرة والزملاء ، تعود إلى سابق عهدها . إبراهيم صاحب الفضل فى إعادة ترميم تلك الجسور المقطوعة . فى البيت .. حسدتنى أمى على حالة الصفاء التى أمر بها ، والعلاقة الطيبة بينى وبين نعيمة وحليمة ، فقد تحملت مسئولية مصاريفهما الخاصة ، و لم أفكر ذات مرة فى أن أشترى لنفسى شيئا دون أن أشترى لهما مثله . اعترضت أمى ذات مرة ، فقلت لها :

ـــ بنات الست عفاف لابد أن تكون مثلها فى العطاء والحنان .

قبلتنى قائلة :

ـــ ربنا يحفظك ويحميك . لو حدث لى مكروه ، أنت المسئولة عن أخواتك يا كريمة .

ـــ ألف بعيد الشر عنك يا أم كريمة .. يا أعظم أم فى الدنيا .

ـــ نفسى أطمئن عليك .. وأشيل أولادك وأولاد أولادك .

انصلحت علاقتى بالكون كله ، حتى بابا بدأت أحس أنى كنت قاسية عليه . قد يكون من حق ماما ألا تغفر له . لكن أنا .. أنا ابنته الكبرى ، التى طالما أحبها ودللها ، وفعل لها كل ما كان يقدر عليه . آمنت أن الحب يصنع المعجزات ..

فقد أصلح كثيراً مما أفسده الدهر فى حياتى . حب إيه .. مستر إبراهيم رجل ثقيل ، أعطيه جرة ماء لقاء قطرة .. قطرة واحدة فقط لا غير . على أية حال ، أول الغيث قطرة . الألف ميل تبدأ بخطوة . المهم أن أبو الهول قد تحرك .. والحركة بركة .
من علامات التحول فى حياتى أنى كنت أحب الأغانى الشبابية ، فأصبحت أحب الأغانى الكلاسيكية . بالطبع .. هو لا يسمع الموسيقى أو الغناء ، لأنه مشغول بالعمل وبالعبادة وبالناس . ذات مساء جلست وحدى أصحح الكراسات ، وأفكر فى الحبيب المجهول ، وأستمع إلى أغنية « عاشق الروح » :

عشقت الحب فى معبد   بنيته بروحى وكيانى
وخليت الأمل راهب   مالوش عندى أمل تانى
وعشق الروح مالوش آخر   لكن داعشق الجسد فانى

أوشك العام الدراسى على الانتهاء . كنت حزينة ، لأنى لن أرى المحبوب . ليس شرطاً أن أكلمه كلاماً خاصاً ، المهم أنى أراه كل يوم وأطمئن عليه . فى إجازة الصيف كنت أزوره كل شهر مرة تقريباً .. فى أيام مختلفة ، نتفق عليها .

بدأ يرتبط بى .. ويحبنى ، لكنه محافظ فى سلوكه ومشاعره . لم يحاول قط أن يستغل وجودنا فى بيته سواء بالكلام أو السلوك . فنحن نتكلم عن بعض ذكرياتنا أو بعض المواقف العامة ، التى يمر بها كل منا .. كأننا صديقان أو صديقتان . الأمر الذى يبرد عواطفى ، أنه أخذ مع الأيام يزداد حرصاً على صلتى به ، وصداقتى له . بدأت تجربة الحب الحقيقى فى حياتى ، تنمو على مهل وعمق .. وقوة ..!!

الحب عنده ــ مثلما هو عندى ــ حب نبيل طاهر ، ليست له غاية أو نهاية . كل منا يتمنى إسعاد الآخر ، والتفكير معه ــ بصوت رقيق ــ فيما يطرأ من قضايا الحياة . حب إبراهيم أحدث راحة نفسية كبرى ، وأعطانى قدراً هائلا من الثقة بالنفس . أحسست أننى حمامة لها أليف ، تعيش وإياه فى مدينة مقدسة ، لذلك سأقيم له معبداً .. لا تتلى صلوات العشق فيه لأحد سواه ..!!

١٣ ـــ لؤلؤة المستحيل

أخذت أستعد لبدء عام جديد ، سوف تفتح المدرسة أبوابها ، لنلتقى كل يوم .. وأراه كل يوم . الحياة بعيداً عمن نحب قاسية .. بطيئة .. مملة . اليوم الذى يمر دون رؤيته ، لا يحسب من العمر .. فهو عمرى وحبى ، بل إنه أنا .. وأنا هو .. فالحياة الحب ، والحب الحياة ..!! فى الأسبوع الأول من الدراسة ظهرت حركة الترقيات والتنقلات . رقى إبراهيم ليكون موجها للغة الإنجليزية فى مركز المنصورة . صارت فوقية عبد العزيز المدرس الأول . جربت اليتم فى البيت .. وبقى أن أجربه فى العمل . قررت المدرسة إقامة حفل تكريم للأستاذ إبراهيم . خشيت للحظة أن أحضره . لن أتحمل ، قد أبكى .. وأفضح نفسى أمام خلق الله .. وتصبح فضيحة ، تتمناها فوقية ـــ غريمتى فى حبه . الأمر الذى خفف عنى هذه المصيبة ، أنه صدر قرار بنقلى أيضاً إلى المدرسة الثانوية للبنات . ربك كبير.. قبل أن يبتلى يدبر . كيف كنت سأعيش وحدى وسط الأطلال .. وتكون الست فوقية .. الأرنبة المنتفخة ، رئيستى المباشرة . هل كنا سوف نختلف بعد رحيل الرجل ، الذى كنا نتنافس من أجل التقرب إليه ؟!

الفرقة فى العمل ، قربت بيننا بشكل آخر ، فقد قررنا أن نلتقى مرتين كل شهر عنده . بعد ذلك أصبحنا نلتقى مرة كل أسبوع . اشتقت إليه ذات مرة ، فارتميت على صدره ، كغريب عاد إلى أرض الوطن . تركنى إلى أن هدأت ، وقال :

ـــ أرجو أن يساعد كل منا الآخر على أن يكون ما بيننا فوق مستوى رغباتنا .

أكبرته فى عينى وقلبى وعقلى . أخذت أحس معه الحب .. الحب الآمن العاقل . هذا الرجل إنسان عظيم .. هل هذه حقيقة أم أنى أراه بعين الرضا ؟! كل

فتاة بمن تحب معجبة وراضية . بدأ يفتح ذهنى على أهمية القراءة فى كتب الأدب والدين والتاريخ :

ــ الخراب يا كريمة لا يصيب الأرض فقط ، أخطر خراب هو خراب العقول ، خاصة عقول المعلمين . التعليم إذا فسد فى بلد ، فقولى على كل شىء فيه السلام .

ــ لماذا تبالغ فى أهمية التعليم .. إنه جهاز واحد من أجهزة كثيرة .

ــ لكنه أخطر هذه الأجهزة جميعاً .. صدق من قال : « كاد المعلم أن يكون رسولا » .

ــ تقصد أن المعلمين هم المسئولون عن النكبة والنكسة وغلاء الأسعار وخراب الذمة واتفاقية كامب ديفيد ونهب المال العام والانفتاح الاقتصادى ..؟!

ــ المعلمون والمتعلمون هم أصحاب المسئولية الأولى فى كل شىء .. ابتداء من كرسى الحكم .. وانتهاء بنظافة الشارع .

ــ أنت متشدد إلى درجة التزمت .

ــ لو رأيت ما رأيت ، لكنت أكثر تشدداً يا حبيبتى .

أخيراً قلتها يا إبراهيم .. أنا حبيبتك . أول مرة تعترف . هناك أمل .. الصبر طيب . خطرت لى ذات يوم فكرة .. وأصررت على تنفيذها . قال إنه ذاهب لزيارة أخته وحضور مولد السيد البدوى ، لأن تلك عادة لا يقطعها كل عام . قلت :

ــ ما رأيك ؟

ــ فيم ؟

ــ نذهب من هنا فى الصباح .. أرى المولد معك ، ثم أعود فى نهاية اليوم ، وتبقى أنت عند أختك .

ــ قد يرانا أحد .

ـ مولد .. فى طنطا .. وتقول يرانا أحد . لا .. أنت لا تحبنى . اعترف وخلصنى .

ـ أنا أحبك ، لكن أنت لا تعلمين كم أحبك !.

ـ لم .. ألست إنسانة ، ومن حقى أن أسمع منك كلمة طيبة ؟!

ـ الحب ليس كلاماً ، إنه التزام .

ـ وهل التزمت معى بأى شىء ؟! أنت قاعد هنا مثل هارون الرشيد ، وأنا الجارية المعذبة التى أحبتك بإخلاص ، وعلى استعداد لأن تضحى من أجلك بأى شىء تملك .. وبعد هذا تخاف أن يراك أحد معها .. تخاف على نفسك ، ولا تخاف على .. أو تسأل فى ..!!

ازداد صوتى حدة .. انطلقت ألومه وأعاتبه ـ بدرجة لم أكن أتوقعها . فجأة توقفت عن الكلام . أخذت أبكى بحرقة ، وأتنهد بحرقة .. أتنهد وأنوح ، مثل طير مذبوح ..!! أربكه بكائى الحار وثورتى غير المتوقعة . فتح قلبه واحتوانى بين ذراعيه . كان أطول منى قليلا ، فنامت رأسى على صدره . خيل إلى أنى أسمع دقات قلبه . هذا الصدر الحنون دنيا الأمان ، التى تمنيت أن ترسو سفينتى عند شاطئها . كلما تنهدت ، أخذ يربت على كتفى ، ويردد بعض الأدعية :

ـ « اللّٰهم فارج الهم ، وكاشف الغم ، ارحمنا رحمة ، تغنينا بها عن رحمة سواك ، والطف بنا فيما جرت به المقادير ، لطفاً نرجو به رضاك ، اللّٰهم يا من وسع كرسيه السماوات والأرض ، احفظنا بحفظك المنيع ، من شر كل إنس وجان ، وشيطان مارد ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . اللّٰهم يا مانع .. امنع عنا كل أذى ظاهر وباطن ، وأدخلنا فى لطفك الظاهر والباطن ، إنك أنت اللطيف الخبير . ﴿ قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ » .

غسلت الدموع مشاعرى ، وطهرت الأدعية روحى . خرجت من الأزمة

مثل عصفور الجنة .. راضية مرضية . ذهبت إلى الحمام . أنعشنى الماء البارد ، حين غسلت به وجهى . حين عدت كان قد أعد كوبين من الشاى ، جاءا فى الوقت المناسب . نقلت بصرى بين أثاث الشقة العتيق وجسده النحيل :

ــ آسفة .. أرجو ألا أكون قد ضايقتك . تحملنى أنا فتاة متعبة .

ــ لا يجوز أن تقول هذا بنت لأبيها .

ــ تحملنى لأنى أحبك .. أقمت لك فى قلبى محراباً ، لا يدخله سواك . أحس أن حبى لك ، لم تحمله امرأة قبلى لرجل . لا أرغب فى شىء .. ولا أطلب منك سوى أن تسمح لى بأن أراك .. وأكلمك .. وأحبك . كلى لك .. وبعضك لى . لا أريد منك شيئاً .. واطلب أنت كل ما تريد .. يا حبيبى ..!!

قال وهو يضع كوب الشاى الفارغ على الصينية بعد انتهى من شربه :

ــ هذا الحب ، أسمى من أن يستحقه رجل عجوز مثلى .

ــ لا تقل هذا على حبيبى .

ــ لو جئت منذ عشرين سنة ، لكنت أفضل عروسة . لكن الآن .. لا أريد أن أجنى عليك .. صدقينى ..

ــ لا تعتذر .. فأنا لا أريد أى شىء . كل ما أريد هو أن تسمح لى بأن أحبك .

ــ أرجوك .. فكرى بعقل ..!!

ــ أرجوك أنت ، دعنى أذهب الآن ، حتى لا أتأخر وأغضب ماما .

خرجت من عنده سعيدة . الوقت عصراً .. الجو معتدل . تمنيت أن أرقص فى الشارع .. أغنى .. أقبل كل الناس .. أصيح فيهم : أيها المعذبون .. المحزونون .. داووا جراحكم بالحب .. داووا جراحكم بالحب ..!!

بعد أن وصلت إلى البيت ، تلقتنى ماما بعاصفة من الأسئلة . سكت حتى تقول كل ما عندها . اقتربت منها ، محاولة أن أمتص بعض غضبها :

ــ يا ماما يا حبيبتى .. بنتك الآن موظفة كبيرة ، مدرسة ثانوى ، لا تعمل

إلا ما هى مقتنعة به . استريحى من ناحيتى يا ماما .

— لن أستريح إلا بعد أن أطمئن عليك . البنت يا حبيبتى مثل الوردة ، إذا لم تقطف فى أوانها ، تذبل على عودها .

— يا رب ابعث عريساً مناسباً ، حتى يهدأ بال ست الحبايب .

قالت أمى فرحة :

— يبدو أنه فى الطريق . قولى .. قولى لماما حبيبتك ، حتى تفرح معك .

— انتظرى يا ماما .. الصبر طيب .

— ربنا يعدلها لك بابن الحلال ، الذى يعوض صبرك خيراً بإذن الله .

استراحت أمى قليلا ، لكن الفأر بدأ يلعب فى عبها . لن تهدأ إلا بعد أن تعرف الموضوع . أقول .. أم أنتظر ؟! ماذا أقول .. هل حدث شىء ؟! حب من طرف واحد . حتى لو كان من طرفين ، هل ترضى ماما أن أتزوج رجلا فى مثل سن أبى ..؟!

قضيت مع إبراهيم يوماً سعيداً فى طنطا .. اليوم الأخير فى مولد السيد البدوى . مولد يا دنيا . الحياة جميلة ، فلم لا نتذوق جمالها ، وننعم بمسراتها ؟! الناس غاوية نكد وتعب ، لماذا .. لست أدرى . أخذنا نتفرج على مناظر المولد .. وملاعبه .. وحلقات الذكر . ومجالس الإنشاد الدينى ، جذبنى من بعيد مطرب يغنى بصوت كله شجن :

يا سرورى ومُنيتى وعِمادى ... وأنيسى وعُدتى ومرادى
أنت روحُ الفؤاد أنت رجائى ... أنت لى مؤنسى ، وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأنسى ... ما تشتتُ فى فسيح البلاد
كم بدتْ منةٌ وكم لك عندى ... من عطاءٍ ونعمة وأيادى
حبك الآن بُغيتى ونعيمى ... وجلاءٌ لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك ما حييتُ براحٌ ... أنت منّى مُمكنٌ فى الفؤادِ

شجانى صوت المطرب . حلقت بعيداً فيما ينشد . شغلتنى المعانى السامية للحب الصوفى ، التى تقدم صوراً نادرة من صور الوفاء للمحبوب ، والرغبة فى التخلص من قيود المادة ، والسمو بالمشاعر النبيلة . الحب الروحى أعلى درجات الحب .. أحبك يا إبراهيم حب الزاهدين الواصلين . أحبك يا من علمتنى الحب ، وجعلتنى أبصر ضوء المحبة . يا حبيبى أنت من أهوى .. ومن أهوى أنا ، نحن روحان سكنا جسداً .!!

فى أثناء زيارة طنطا مع إبراهيم تأكد لى حبه بدرجة واضحة . كنت ألمس ذلك من أمور بسيطة ذات دلالة كبيرة ، مثل حرصه على حمايتى فى الزحام . حين دخلنا لتناول الغداء ، ظل حريصاً على أن يطعمنى قبل أن يتناول أى لقمة . كان الاتفاق أن أظل معه طول النهار ، وأعود وحدى فى القطار إلى المنصورة ، ويبقى هو لزيارة أخته . ذهبنا إلى المحطة . قطع لى تذكرة . جلسنا نتحدث إلى أن يأتى موعد القطار . قال :

ــ تصورى .. زيارة طنطا أوحت لى بفكرة ؟

قلت مبتسمة :

ــ كراماتك يا سيد يا بدوى .

ــ المنصورة مدينة صغيرة .. فلماذا لا نقضى كل فترة يوماً كاملاً فى مدينة من المدن المجاورة .

ــ فكرة عظيمة يا حبيبى .. دار على شمعتك تقد .

جاء القطار .. ذهب معى ، حتى أركب . فجأة قال :

ــ كيف تسافرين وحدك ؟ قلبى لا يطاوعنى .

ــ لا تشغل بالك .. لست طفلة .. سوف أطمئنك بالتليفون غداً .

وقفت فى شباك العربة ألوح بيدى ، وهو واقف على الرصيف . حين بدأ القطار يتحرك ، قفز مسرعاً بدرجة خشيت فيها عليه . جرى نحوى قائلا :

— لم يطاوعنى قلبى أن أتركك وحدك .

— وأختك زينب ؟

— سأحضر غداً لزيارتها بإذن الله .

أسعدتنى هذه اللفتة الصغيرة ، فقد أكدت لى حبه القوى العارم . صرت سكرى بحبه . لم أعد أطلب بعد الحب شيئاً آخر .!!

أمى هذه امرأة غريبة قادرة على اكتشاف اللون الثامن من ألوان الطيف . لم أحدثها عن حبى لإبراهيم ، وإن كانت تعلم أنى معجبة به ، وأستشيره فى كثير من الأمور . لكنها صارت تشك — دون دليل واضح — أنى مشغولة برجل . لن تستريح أو تريح إلا إذا عرفت . جلست معى ذات مساء ، نتكلم فى شئون البيت وغلاء الأسعار ، فجأة قالت :

— متى يهديك الله ؟

— هل أنا عاصية ؟

— شاب من أقاربنا أرسل يطلب موعداً ، ليخطبك .

— رجعت ريمة لعادتها القديمة .

— تعرفى عنوان الأستاذ إبراهيم الشريف ؟

فجرت أمى قنبلة ، وهى غاية فى الهدوء . أخذت تتأملنى فى تحد مكبوت ، لترى أثر رد الفعل . تمهلت لحظة ، حتى أفكر فى الرد . هل رآنى أحد .. وقال لها . مدة طويلة ، وأنا على هذه الحالة .. أمى كشفت السر . أخبرها أم لا ..؟ أقول لها . يا مصيبة سوداء .. سوداء ، لا تكفى .. مصيبة سوداء ، وزرقاء ، وحمراء ..!! لابد أن أنكر الآن على الأقل ، حتى أفكر فى مخرج من هذه الورطة .

— لم تجيبى عن سؤالى ؟

— لا أعرفه .. لكن لماذا ؟

— إذا كنت تحبينه ، فقولى له يتزوجك ويخلصنا .

ــ يخلصك من إيه ؟

ــ منك .. ومن همك .!!

ــ سامحك الله يا ماما .

تركتها ودخلت ، لأنى خشيت أن يفضحنى الحوار ، لو طال أكثر من هذا القدر . سمعتها تقول بصوت تعمدتْ أن يصل إلى مسامعى :

ــ أقطع ذراعى ، إن لم يكن هناك رجل فى حياتك ، يا بنت حسين غالب .

لماذا نذعر عندما يكتشف الناس بعض ما نخفيه من حقائق . حين يمارس الإنسان عادة بعيداً عن الضوء ، يحس أنه سعيد سعادة خاصة ، وعندما ينكشف السر تفتر العادة ، وتتبخر السعادة . الإشاعة .. النميمة .. الفضيحة .. كلمات حارقة . لا تحرق الثوب ، وإنما تحرق قلب من يلبسه .

بعد هذه الحادثة ــ التى بدت لى عارضة ــ زاد الاقتراب بين ماما وبابا . بدأ بابا يتودد إلى ، ويحاول أن يتكلم معى . فهم من ماما شيئاً ، ما أرجوه ألا يكون قد عرف الحقيقة . أول مرة أدرك أن معرفة الحقيقة أمر خطير ومرعب . رغم اقتناعى الكامل بما أفعل ، فإننى عاجزة عن أن أقول لأبى .. أو حتى لأمى ــ أننى أحب رجلا عجوزاً ، أذهب إليه فى بيته . نجلس وحدنا .. نسافر إلى طنطا ودمياط ورأس البر . أعرف كل شىء عنه .. وهو يعلم كل أسرارى ونبض عروقى . لم أخطئ و لم يستغل هو أية لحظة فى علاقتى معه ، بل إننى أحياناً أكون فى حاجة إلى لمسة يده .. أو ضمة إلى صدره .. بل ربما إلى قُبلة ، لكنه محافظ وهادئ دائماً . كلما ازدادتْ علاقتنا رسوخاً ، ازداد حرصه على . لذلك ليس عندى ما أخجل من الكلام عنه ، لكنى فى النهاية لا أريد أن أصرح بذلك ، حرصاً على الكبرياء الظاهرى لأسرتنا غير السعيدة . أبى وأمى لا يعرفان الحب ، ولا يحترمان الزواج ، ومع ذلك يريدان أن أكون صورة منعكسة لما هما فيه من شقاء . لن أفعل .. لن أفعل ، حتى لو وضعوا تاج كليوباترا فى يمينى ،

وكنوز بلقيس فى شمالى ..!!

جاءت إجازة منتصف السنة . اتفقت مع إبراهيم على أن نزور القاهرة والإسكندرية ، حتى نلتقى بعيداً عن المنصورة ، ونرى ما لم نعرفه عن المدن القريبة ، لأننا فى مصر لا نفضل — أو قل لا نقدر على — السياحة الداخلية ، فأبناء الشمال لا يعرفون شيئاً عن الجنوب ، وأبناء الجنوب لا يزورون أى مدينة فى الشمال ، وأبناء الدلتا والصعيد — كلاهما — يكادون لا يعرفون شيئاً عن منطقة البحر الأحمر أو سيناء . سيناء أرض القمر .. وبوابة مصر الشرقية ، معظم المصريين لا يعرفون حتى الطريق إليها — رغم الأهمية الاقتصادية والعسكرية .

قال إبراهيم :

— تصورى يا كريمة لولا اليهود ما عرفنا قيمة سيناء .

— أعتقد أنك مبالغ بعض الشىء .

— سيناء هذه كنز ، لم نتعرف عليه معرفة واضحة ، وبالتالى لم نتمكن من الاستفادة به كما ينبغى .

هذا الرجل عالم موسوعى ، قادر على الكلام فى موضوعات كثيرة ، لا تدخل فى إطار ثقافة الإنسان العادى . أخذ يحدثنى عن أهمية سيناء . أهم ما لفت نظرى فى حديثه هو كلامه عن أهمية استغلال سيناء سياحياً ، حيث تتوافر فيها كل أنواع السياحة .. الدينية والتاريخية والعلاجية والترفيهية .

— كيف عرفت كل هذا يا حبيبى ؟

— من الكتب فى الغالب ، لا نقيم وزناً كبيراً للقراءة والثقافة العامة .

— شوقتنى لزيارة سيناء .

— هذه تحتاج إلى أسبوع على الأقل .

— يا ليت .. أتمنى أن أرى الدنيا كلها وأنا معك .

— طولة العمر ، تحقق الأمل .

طلب منى بابا — مساء اليوم الأول فى عطلة نصف السنة — أن أعد حقيبة سفرى . أنا لا أكلمه إلا نادراً ، فكيف أسافر معه ؟ لم تشجعنى ماما على السفر ؟ ما المبرر لهذا القرار المفاجئ .. ما الذى جعلهما يتفقان ؟ منذ مدة طويلة ومعظم الحبال بينهما مقطوعة .. فما الجديد فى الأمر ؟ أهم من ذلك كله .. كيف أسافر دون أن أخبر إبراهيم ؟!

— ما حكاية السفر هذه يا بابا ؟

نظرت إليه .. منذ فترة طويلة غابت عنى ملامحه فى الزحام .. زحام الأيام ، بما فيه من قلق وتوتر . أفزعتنى علاقتى بأسرتى ، فقد أصبحت بعيدة عنهم ، وهم بعيدون عنى . لا أفهم أحداً .. ولا أحد يفهمنى . ما الذى أفسد الحياة هكذا ، حتى صارت قادرة على تمزيق الروابط الأسرية وتدمير العلاقات ؟! بعد كل هذا تحاول يا بابا أن تصلح ما أفسده الدهر ؟!

فى اليوم الذى اتفقت فيه مع إبراهيم لزيارة معرض القاهرة الدولى للكتاب ، كان على أن أسافر فى اليوم ذاته مع بابا إلى بورسعيد . ضحيت بموعدى مع إبراهيم ، حتى أقنع أبى بأن يخلع شعيرات القلق ، التى نبتت فى صدره . ماما وبابا يعلمان أنى أمر بتجربة حب . هذه الرحلة محاولة للنسيان ..!!

تعمد بابا أن نقيم فى حجرة واحدة بالفندق ، حتى ينتهز أية فرصة ، ليتحدث معى . حاول أن يستريح من تعب الرحلة فانتهزت الفرصة ، وذهبت للاتصال تليفونياً بإبراهيم . المفاجأة الحلوة التى أنقذتنى مما أعانيه أن إبراهيم أخبرنى أنه سوف يأتى إلى بورسعيد قبل أن تغرب شمس اليوم . وطلب منى أن أحجز له غرفة . كانت فى الدور نفسه . مفاجأة جميلة .. جميلة . فرق كبير بين حالتى منذ لحظات وحالتى الآن . شكراً يا بابا .. فقد أسديت إلى خدمة جليلة .!!

عدت إلى الحجرة . أخذت حماماً بارداً ، حتى أرطب مشاعرى . استيقظ بابا ، بينما أمشط شعرى . قال وهو مسترخ على السرير :

ـــ من هذه العروسة الجميلة ؟ لو كنت شابا لطلبت يدك .

ـــ من زمان ، لم أسمع منك هذا الكلام الحلو يا بابا .

ـــ الحياة صعبة ، تجعلنا نخطئ أحياناً فى حق أنفسنا .

ـــ المهم أنك عدت لنا .

نظرت إليه ، كأنما أنظر إلى طلل قديم . أنت المسئول يا بابا عن الليالى السوداء .. والضياع .. والألم ، بل أنت المسئول عن حبى لإبراهيم . الإنسان لابد أن يشبع حاجاته الروحية ، كما يلبى طلباته المادية . خسارتى فيك .. أشد من خسارة ماما . كنت أرى كل شيء بعينيك أنت وحدك . احتضنتنى طفلة ، وابتعدت عنى شابة.تحملت كثيراً حتى انتهيت من التعليم . للصبر حدود .. هرب القلب المتمرد إلى رجل ، يحمل كثيراً من صفاتك . سامحنى يا بابا .. إن كنت سوف تسامح نفسك .!!

قطع أبى تيار مشاعرى ، وهو يتأهب لدخول الحمام :

ـــ ألم يحن الوقت للعروسة الجميلة أن تبحث عن عش ؟

قلت وأنا متجهة ، لكى أفتح الشباك :

ـــ تبحث عن عش أم عن قفص ؟!

ـــ ما الفرق ؟

ـــ الدنيا تغيرت .. ابنتك نجحت فى التعليم ، وفى العمل ، وإن شاء الله سوف أنجح فى الزواج .

ـــ متى .. فرحينى .. أريد أن أطمئن عليك . لو أنك ولد ..

ـــ يا بابا .. بنتك بمائة ولد .

بعد الغداء .. خرجت فى العصر مع بابا لمشاهدة المدينة . تجولنا فى الشارع التجارى .. ثم خرجنا منه إلى شارع البحر . بورسعيد .. المدينة الحرة ، أصبحت كائناً ممسوخاً . ما زالت الشوارع قذرة ضيقة ـــ رغم أنها تعرض البضائع

المستوردة . بدت المدينة عجوزاً شمطاء ، تلبس ملابس نايلون مزركشة ، وتضع المساحيق فوق وجه مجعد . بورسعيد رمز النضال ، صارت سوقاً لبيع كل ما هو مستورد . من البائع .. من المشترى .. من الرابح .. من الخاسر .. فى عصر الانفتاح .؟! زحمة يا بلدنا زحمة ، زحمة ولا فيك رحمة ..!!

بعد الجولة فى المدينة والعشاء ، تعمد أبى أن نعود إلى الحجرة فى وقت مبكر ، حتى يواصل كلامه معى . بعد أن غير ملابسه ، تظاهرت بأنى لم أحضر معجون أسنان وفرشة .. وسوف أخرج لشرائهما من أقرب مكان . حمدت الله فى سرى ، فقد صدق بابا . وجدت إبراهيم يجلس فى صالة الاستقبال ، سلمت عليه ، وخرجنا نبحث عن صيدلية . كنت متأكدة أن أبى لن ينزل ، ومع ذلك حرصت على لقاء إبراهيم خارج الفندق . أول مرة أمشى معه ، ويمسك يدى . أحسست فرحة غامرة ، وهو يسير بجوارى دون خوف من مراقبة الطريق ، مثلما كنا نفعل فى المنصورة . .

ـــ بابا جاء بى إلى هنا ، حتى ينتزع منى اعترافاً .

ـــ بأى شيء ؟

ـــ إن كنت مشغولة .. فبمن ، حتى يطمئن على . وإذا لم أكن .. فلم أرفض كل خطيب ؟

ـــ ماذا قلت ؟

ـــ قل لى أنت .. ماذا أقول له ؟

سكت .. كأنما سألته عن حقيقة تتصل بعالم الذرة . أغرانى الصمت والحيرة بأن أداعبه . وضعت يدى فى يده :

ـــ سوف أعطيه عنوانك ، حتى يخطبك لى ..!!

ـــ اللحظة ، لا تتحمل الهزار يا حبيبتى .

ـــ قلها مرة ثانية .. قلها للناس جميعاً .. قل بأعلى صوتك .. أحبك يا كريمة

.. أحبك .. أحبك .

العقل مطلوب فى كل موقف ، إلا فى لحظة توهج العاطفة واشتعال الحب . برودة الليل والبحر ، حدت من عدد المشاة . الليل والبحر والطريق ملك لى .. لى أنا وحبيبى . برودة الجو لا تؤذى القلوب الدافئة . نظرت إليه .. أعرفه جيداً . فى لحظات الحرج والقلق .. يصمت . إذا كنت تحبنى كل هذا الحب ، فلم لا تصنع شيئاً ؟! الأسرة كلها ترقب حركتى ، وتريد أن تبعدنى عنك — رغم أنهم لا يعرفون علاقتى بك . لو عرفوا ، لأقاموا سداً عالياً . لن أسمح .. لن أسمح لأحد أن يبعدنى عنك . أنت قدرى ومصيرى . النهر لا يقدر على تغيير مجراه !

عدت بعد غيبة قصيرة ، حتى لا يشك أبى ، ولا يقلق . تواعدنا الغد عصراً . سوف أقول أريد شراء بعض لوازم الحريم ، وهذه تستلزم أن أكون وحدى . عدت فوجدت أبى أعد جلسة شاعرية فى بلكونة الغرفة . لا .. هذه ليست جلسة شاعرية ، وإنما جلسة اعتراف .. أنا ابنتك وأعرف كيف تفكر .. يا أبى .!!

قال بابا :

— أطلب لك شاياً .

قلت وأنا أحمل المعجون والفرشة متجهة نحو الحمام :

— أنا متعبة .. أريد أن أنام .

— قطعت هذه المسافة الطويلة ، حتى نكون وحدنا .. نتكلم .. ونتفاهم .

— الصباح رباح . دعنى أستريح الليلة ، حتى أقدر على مناقشة رجل عظيم مثلك .

— دائما تغلبينى يا كوكو .

قبلته لأول مرة بعد فترة طويلة :

— تصبح على خير يا بابا .

حاول أبى أن تكون رحلة بورسعيد بدء صفحة جديدة بينى وبينه ، ويتأكد

أنى غير متورطة فى علاقة عاطفية . صدقت معه فى الأولى ، وكذبت فى الثانية . أرغب فى أن يعود الحوار والحب بيننا . أنكرت أن لى علاقة بأحد . نحن فى زمان الكوليرا يا بابا .. ويجب أن ننقذ الحب ، حتى لو كانت الوسيلة هى الكذب ..!!

استطعت أن أختلس بعض الساعات وأخرج فيها مع إبراهيم . بورسعيد فيها شوارع جميلة ونظيفة قربَ الشاطئ .. وفى بعض المناطق التجارية ، وشوارع قديمة حزينة ، البؤس والفقر يقيمان فيها ، لدرجة أن بعض الناس يسكنون فى عشش من الصفيح والقش ، ومناطق ما زالت آثار الحرب تخيم عليها .. بيوت مهدمة .. حوائط مثقوبة ، خرمتها طلقات المدافع . بورسعيد منطقة حرة ومدينة مفتوحة .. هذه نتيجة الحرية والانفتاح . قال إبراهيم فى أسى :

ــ الفقراء حاربوا وانتصروا وماتوا .. والأغنياء تاجروا وقبضوا الثمن وعاشوا ..!

ــ ما الحل ؟

ــ غيرى موضوع الحديث .. فقد أقسمت ألا أفكر فى أمور السياسة .

ــ لماذا تبدو متشائماً ؟

ــ هل هناك ما يدعو إلى التفاؤل يا كوكو ؟

عدت من بورسعيد ، وقد استطعت أن أعيد إصلاح بعض جسور الثقة ، التى تهدمت بينى وبين أبى . لكن النصر الكبير هو أن هذه الرحلة المباركة أكدت مدى حب إبراهيم لى . إبراهيم هذا الرجل ، التقى النقى ، الزاهد ، العابد ، استيقظ قلبه بعد غفوة طويلة ، وبدأ مرحلة البعث قوية .. عارمة . لكنه رجل كبير السن .. لم يعد نفسه للزواج ، وإنما نذر حياته من أجل العبادة وخدمة الناس . رفض الحديث عن موضوع الزواج ، حتى مع أخته الوحيدة . القلب العجوز تمرد ، وأعلن حالة العصيان . كنت أحس قلقه وحيرته . لم أقدر على إحراجه حتى بالتلميح البعيد ، أصبحت أنا نفسى أتململ من الوضع القائم . ماذا أسمى هذا

الوضع الحائر ؟ أحبه .. وهو يحبنى ، لكنه عاجز عن اتخاذ أى قرار . عائلتى تشدد المراقبة على ، ولا ترضى بما أنا فيه ، لدرجة أن أمى أصبحت تعتقد اعتقاداً راسخا بأنه معمول لى عمل . وقد زارت الشيخة سيد ، لكى تصنع لى حجاباً ، يفك النحس الملازم لى ، خاصة وأن أختى نعيمة صارت عروسة ، وبدأ الخطاب يطلبون يدها ، لكن أبوى محرجان غاية الحرج ، كيف تتزوج الصغرى قبل الكبرى .. ما السبب .. وما نهاية كل هذا ؟!

فى الطريق إلى بيت إبراهيم اصطدمت برجل مجذوب ، يلبس ثوباً مرقعاً . يسير ضالا فى الطريق ، لا يقصد ناحية معينة فيما يبدو . أحياناً يسير ، وأحياناً يتوقف . فى يده عصا طويلة ، فى رقبته مجموعة مختلفة من السبح الملونة الطويلة . يغنى بصوت شجى مؤثر :

أمدح نبينا اللى ربه كرمه وعطاه
الاسم أحمد ، ومحمود انكتب فى سماه
هو نبى الهدى وشفيعنا فى الآخرة
هو الرسول الكريم ، هو النبى المختار

حين التقيت بإبراهيم ، شرعت أتكلم عن المجذوب وغنائه الشجى فى مدح الرسول ، فقد تعاهدنا أن يحكى كل منا ما حدث له منذ لحظة الوداع ، حتى لحظة اللقاء . بعد أن سمع حديثى عن المجذوب ، قال فرحاً :

— وجدتها .. وجدتها يا كريمة .

— ماذا وجدت يا حبيبى ؟

— حل المشكلة .. يا حبيبتى .

قبل أن تأتى إلى هنا ، كنت أفكر فى مشكلتنا .

— الحب مشكلة ؟

— أرجوك .. لا تقاطعينى ، إنها أكبر مشكلة بالنسبة لى على الأقل . أعيش

حالة قلق وحيرة ، لم أعرفها فى المعتقل أو ميدان الحرب ، بل حتى وأنا فى غرفة العمليات . القلق الآن يشغلنى عن العمل ومشاركة الناس ، أكثر من هذا ...
توقف لحظة — دون أن يبعد ناظريه عنى :

— ماذا نسمى ما نحن فيه ؟

— نحن فى حالة حب .. حب حقيقى طاهر .

— ما نهاية كل هذا ؟ أنا رجل متدين .. محافظ . أصبح القلق يشغلنى ، حتى فى وقت الصلاة والعبادة . صرت أحياناً لا أدرى .. اثنتين صليت العشاء أم ثمانية ؟!

— لم كل هذا .. أنا لا أطلب شيئاً ، ولا أسبب لك أزمة .

— كلما زاد عطاؤك ووفاؤك ، زاد قلقى وغضبى على نفسى .. وعلى ما نحن فيه . الآن فقط اكتشفت الحل .

— لماذا جعلت حبنا مشكلة .. ومن الذى طلب منك الحل ؟

— سوف أذهب لأداء فريضة الحج ، وأستخير الله سبحانه ، فإن كانت الاستخارة بالإيجاب ، فسوف نتزوج ، وإلا ...

— لا تكمل .. لا تقل شيئاً . لم أطلب شيئاً . لم تعذب نفسك وتعذبنى ؟!

قال فى هدوء :

— إذا أراد الله فسوف نلتقى ، وتكون الخيرة فيما اختاره الله !!

لا أدرى لم انفجرت باكية ، يا رب .. لم تصب على كل هذه الاختبارات القاسية ؟! ماذا لو... هل يمكن أن أخسر الرجل ، الذى عشت عمرى أحلم به ، وأضحى من أجله . ثم كيف أتحمل غيابه فى أثناء فترة الحج ..؟! اضطرب الطائر الجريح فى صدرى . لم أستطع أن أوقف بحر دموعى . اقترب منى :

— ضميرى يعذبنى من أجلك .. ومن أجل نفسى يا كريمة . لم أعد قادراً على أن أحملك همومى أكثر من هذا . إن الله لطيف خبير ، وقد أسلمت أمرى

وأمرك لله .

خرجت من عنده فى حالة نفسية سيئة . قلبى يحدثنى أنى سأفقد حبيبى .. وأعود للوحدة والغربة والضياع مرة أخرى . يضاعف همومى دائماً أننى لا أستطيع أن أشكو لأحد من الناس . ليست لى صديقة ، حتى أمى وأختى أغلقت نوافذ الحوار معهن . إبراهيم صار أبى وأخى وصديقى وابنى وحياتى . به أستغنى عن كل البشر . لمن أشكوه .. لمن أعبر عن مصيبتى .. من يقدر أن يفرج كربتى ؟! إبراهيم يا حبيبى .. لم تفعل بى كل هذا ..؟!

زاد من تشاؤمى أنه أصبح مشغولا من أجل أن يعد نفسه للرحلة المباركة . قلت له حزينة :

ـــ لماذا تتهرب منى ؟ أصبحت عبئاً عليك . أعرف أنك تمهد لموقف صعب . سامحك الله ...

بكيت .. وارتفع صوت نشيجى . دموعى واقفة عند جفونى ، ومهيأة للسقوط بمناسبة أو بغير . أحسست راحة كبرى ، حين وضع يده على كتفى :

ـــ حبك يسرى فى دمى . ستكونين معى فى الأماكن المقدسة . سأدعو لك كثيراً . لن أنساك ، حتى لو لا قدر الله ....

انتفضت صارخة :

ـــ قل .. قلها بفمك ، قل إنك تنوى أن ...

وضع يده على فمى . واحتوانى فى صدره قائلا :

ـــ ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ، إذا قضى الله ورسوله أمراً ، أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾ . ثم أخذ يدعو : اللهم إنى أتوجه إليك بفضل حرمة بيتك ، وعظمة رسولك ، أن توفقنى إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة . اللهم إن كان فى زواجى رضا وصلاح ، وتقوى

وفلاح ، فسهله لى .. فإنه لا سهل إلا ما سهلته ، يارب العالمين ، وأرحم الراحمين .

ازداد الموقف صعوبة حين أخبرنى إبراهيم برغبته فى أن يعتكف فى المسجد بعض أيام قبل موعد سفره للحج . قبلت على مضض . لم أستطع أن ألقاه إلا لحظة خاطفة ليلة السفر ، فى حضور أخته ، التى جاءت مع زوجها وأولادها لوداعه . زينب لم تعرفني .. ولم ترنى من قبل ، غير أنى كنت أعرف عنها كل صغيرة وكبيرة . حين رأيتها تعانقنا بحرارة ، لم أستطع أن أجد لها تفسيراً واضحاً — على الأقل من ناحيتها . هل قال إبراهيم لها شيئا .؟ يا ريت .. معنى هذا أنه يأخذ الموضوع مأخذ الجد . إبراهيم كل شيء عنده جد فى جد .

قالت زينب ، وهى تقدم طبقاً من الفاكهة به عنب وتين :

— أولادى نفيسة وأحمد ، على اسم ماما وبابا .. وحسين على اسم حماى .

— لم تتركى لإبراهيم شيئا ؟!

— وما الذى يمنع أن يكون هناك أحمد آخر ، ونفيسة أخرى .

— من فمك لباب السماء .

— لقد تعذب إبراهيم كثيراً ، وآن له أن يستريح ؟.. ربنا يعطيه على قد نيته .

رحل إبراهيم . سافر حبيبى . سافرت أخته من بعده . أحسست أنى نازح ضال .. لا أهل .. لا وطن .. لا راحة .. لا أمل .. لا .. لا . لا شيء ، يعوض فقدى إبراهيم . أول مرة منذ تعارفنا يبتعد واحد منا عن الآخر . أحياناً يمر أسبوعان دون أن أراه .. لكنى لم أكن قلقة ، فهو على مسيرة نصف ساعة . اليوم غاب بعيداً . يومان فقط أحس أن الأرض زلزلت ، والمياه تعكرت . الحياة بغير المحبوب قبر موحش . أحياناً لا نعرف قيمة الأشياء إلا بعد أن نفقدها ، ماذا يصنع وجود هذا الرجل فى حياتى ؟ لا أعلم .. على وجه التحديد . لكنه كان ويكون وسيكون أمل حياتى ، بل هو حياتى نفسها .!!

تعجبت أسرتى ، خاصة الست ماما ، حين وجدت أنى لم أعد أخرج من البيت ، فشكت أنى مريضة . لكنها من جانب آخر ظنت أن حجاب الشيخة سيد ، قد عمل عمله ، ونجح فى إنقاذى من ضلال ، كنت أسير فيه . ضحكت لهذه الفكرة العجيبة ، التى أراحت أمى فترة ، لم يكن يوجد فيها ما يريح على الإطلاق .

ليس من عادتى مشاهدة التليفزيون أو صندوق العجب — كما يسميه إبراهيم — كثيراً ، لأنه جهاز مدمر للوقت والفكر ، وهو أسوأ إنجاز حضارى اخترعته البشرية . جلست مع العائلة — وتلك عادة جديدة اكتسبتها بعد سفر المحبوب — نتفرج على العرض العسكرى ، يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر ١٩٨١ . كان ذلك يوم وقفة عيد الأضحى المبارك . بعد أن بدأ العرض ، حدث اضطراب شديد فى ساحة المنصة ، التى يوجد فيها الرئيس أنور الساداتْ وبعض رجال الحكم والمسئولين فى الدولة . توقف الإرسال ... بعد مدة ، عرفنا أنه جرت محاولة لاغتيال الرئيس . كيف .. حدث هذا .. ولماذا ؟ كان بابا أشدنا قلقاً ، فهو — بحكم كونه رجلا — يعرف فى السياسة أكثر مما نعرف جميعاً . كان حزيناً على ما حدث ، وبدرت منه عبارات ، لم أسمعها منه من قبل :

— هذه بربرية .. وحشية .. يقتلون قائد النصر ، يوم عيد النصر .. خونة .. عملاء .. كفرة .

علقت ماما فى هدوء :

— لا تحزن يا أخى .. ربنا يحرسه ، ويحرس البلد .. قادر يا كريم .

بعد وقت متأخر .. عرفنا أن حادث المنصة أودى بحياة السادات وحده . و لم يصب أحد ممن كانوا معه فى المنصة بسوء . لو كان إبراهيم هنا ، لفهمت منه أبعاد القضية ، خاصة وأن الذين اغتالوه ، ينتمون إلى بعض الجماعات الإسلامية . الإسلام دين السلام ، فكيف تغتال الأبرياء جماعة ، تدعى أنها تنتسب إليه ؟!

لم أعرف أبعاد القضية .. المهم أن السادات قد قتل . السياسة فى بلادنا .. وفى بلاد العالم الثالث كلها ، لعبة قذرة ـــ هكذا قال إبراهيم .. وهذا ما أؤمن به أيضاً . الصوت يتبع الصدى . أنا ظل إبراهيم ، وهو روحى وكل كيانى ومنى قلبى . هذا الحادث المؤسف زاد من تشاؤمى ، وجعلنى أحس ضيقاً شديداً .

حبيبى متى ستعود .. وما هو قرارك ؟ مصيرى فى يدك فأحينى أو أمتنى .. فأنا منك وإليك ..!!

مضت فترة العيد الكبير سوداء كابية . مصر حزينة على ما حدث فى اليوم المشئوم ، أما أنا فكنت بائسة لغياب حبيبى . أول عيد منذ تعارفنا لا نلتقى فيه . متى ترجع يا إبراهيم حتى تعود الروح ؟ أضنيتنى بالهجر يا حبيبى .. يا شفاء الروح ، روحى تشتكى منك إليك . يا روح الروح ارجع إلى .. إلى .. صحواً كنتَ أم مطراً ..!

بدأت عودة أفواج الحجاج .. لكنى لا أعرف موعداً لعودة الحبيب . لن يعود إبراهيم إلا مع آخر فوج ، إنه حبيبى .. وأنا أعرفه أكثر من الأم ، التى أنجبته من بطنها ، وعاشرته طوال حياتها . إبراهيم لن يأتى إلا بعد أن يحج البيت ويزور الروضة الشريفة . لن يترك شعيرة من الشعائر إلا بعد أن يقوم بها على أكمل وجه . لم أقدر عليه يوم كان الشيخ إبراهيم .. فكيف أقدر عليه بعد أن يصبح الحاج إبراهيم ؟!.. ساعدنى يا رب ..!!

أخذتنى سنة من النوم ـــ رغم أن الوقت كان عصراً ـــ وأنا أقرأ فى كتاب « ألف ليلة وليلة » ، الذى أخذته ، ولم أرده إليه . رأيت فى منامى أنى ألبس ثوباً أبيض وحذاء أبيض مثل العروس .. لا بل مثل الحورية ، تائهة فى غابة موحشة .. تعبانة عطشانة . أبحث عن طريق يوصلنى إلى البحر . أخذت أجرى من هنا .. ومن هناك .. إلى أن تمزق ثوبى ، وتقطع حذائى . تعبت .. تعبت . بعد فترة بدأت

نسمات البحر ، تداعب وجهى ، الذى يتصبب عرقاً . بدت من بعيد .. بعيد جداً سفينة كبيرة . أخذت أصيح .. إبراهيم .. إبراهيم .. خذنى يا إبراهيم .. خذنى يا إبراهيم .. يا ...

دخلت نعيمة دون أن أحس بها . أيقظتنى لأرد على التليفون . مشيت مرهقة .. والحلم أو الكابوس ما زالت أصداؤه جاثمة على صدرى . أمسكت السماعة فى تكاسل وأنا بين اليقظة والنوم :

ـــ ألو .. من .

ـــ ....

ـــ غير معقول .. متى وصلت ؟ حمداً لله على سلامتك . يا أستاذ .. قصدى يا حاج إبراهيم .

ـــ ....

ـــ سوف أكون عندك بعد نصف ساعة .

ـــ ....

ـــ لا .. لا أقدر على الانتظار ، سأحضر حتى لو كانت عندك الدنيا كلها .

لا أدرى كيف ارتديت ملابسى ، ولا كيف خرجت إلى الشارع ..؟! ألقيت نفسى فى أول تاكسى صادفته . ابتسمت حين وجدت المجذوب ، يسير فى المكان الذى أراه دائما عنده . هذا المجذوب تحكم فى مصيرى دون أن يدرى . هو الذى هدى إبراهيم إلى فكرة الحج والاستخارة . ما النتيجة .. ماذا حدث .. هل سيتزوجنى ؟ لا شىء يهمنى .. سوى أن يكون معى قريباً منى .. أحبه ويحبنى .!!

لم تسعنى الفرحة حين رأيته ، والنور يفيض من قسمات وجهه . عانقنى بحرارة . أول مرة يفعل هذا . لو كنت أعلم أن الحج سيصلح حاله هكذا ، لطلبت منه أن يحج من زمان بعيد ..!!

قال مبتسماً :

ـــ سأذهب غدا إلى طنطا .

ـــ لماذا ؟

ـــ أحضر زينب ، لتقضى معى يومين .

هذا الرجل سيجنني .. أو يفقع مرارتى على الأقل . لم يصرح بشىء . لماذا لا أسأله ؟ قال بعد مدة طويلة وأحاديث بعيدة :

ـــ لقد أديت مناسك الحج ـــ عقبى لك . أجريت الاستخارة بتوفيق الله وهداه . جاءنى هاتف فى المنام أكثر من مرة ، يقول : لماذا تبحث عن البعيد ، وتترك القريب . القريب مثل البعيد . اطلب الرضا من أهل الرضا .. تكررت هذه الرؤيا ، أكثر من مرة . اطلب الرضا من أهل الرضا .. يا عبد الله .. القريب مثل البعيد . ما دام القلب طاهراً ، والنية خالصة ، فاطلب الرضا من أهل الرضا .. ولسوف يعطيك ربك فترضى .

من فرحتى بسماع صوته ، لم أفهم على وجه التحديد .. ماذا يريد أن يقول . كل ما يهمنى أنه عاد وأننى أسمع صوته . نظر إلى نظرة شوق ولهفة ، ونظرت إليه نظرة تعجب وحيرة :

ـــ من يكون أهل الرضا يا روح قلبى ؟

اقترب منى أكثر . ماذا حدث لهذا لرجل ؟ هذا الرجل كاد يجننى .. بل أصبحت مجنونة بالفعل . احتوانى بناظريه وذراعيه . وضع كفى بين راحتيه ، وقال مبتسماً :

ـــ سوف تعرفين الإجابة عندما أزوركم غداً مع أختى زينب ..... (*)

(*) كتبت أحداث هذه الرواية فى الفترة من مايو ١٩٩٢ إلى أكتوبر ١٩٩٣ .

أعمال أدبية أخرى للمؤلف

١ ــ عمار يا مصر	(مجموعة)	١٩٨٠ ــ ١٩٩١
٢ ــ الدموع لا تمسح الأحزان	(مجموعة)	١٩٨٢ ــ ١٩٩١
٣ ــ حكاية الليل والطريق	(مجموعة)	١٩٨٥ــ١٩٩١ــ١٩٩٢
٤ ــ دائرة اللهب	(مجموعة)	١٩٩٠ ــ ١٩٩١
٥ ــ العشق والعطش	(مجموعة)	١٩٩٣
٦ ــ الأفق البعيد	(رواية)	١٩٨٤ ــ ١٩٩١
٧ ــ الممكن والمستحيل	(رواية)	١٩٨٧ ــ ١٩٩٢
٨ ــ الكهف السحرى	(رواية)	١٩٩٤
٩ ــ الليالى	سيرة ذاتية جـ ١	١٩٩٠ ــ ١٩٩٢

رقم الإيداع ١٠٠٣٤ / ٩٣

الترقيم الدولى 8 - 0832 - 11 - 977

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٥٠ قرشا